إيزابيل ألليندي

غابة الأقزام

ترجمة: رفعت عطفة

ورد

غابة الأقزام

إيزابيل ألليندي

غابة الأقزام

رواية

ترجمة: رفعت عطفة

العنوان الأصلي للكتاب:

EL BOSQUE DE LOS PIGMEOS

لقد أظهرت دائماً التزامي بالدفاع عن الغابات. ليس عبثاً أنني أسّستُ مع شخصياتٍ تشيليةٍ أخرى المجموعة البيئية «المدافعون عن الغابة التشيلية». في جميع رواياتي، وخاصّة في هذه الثلاثية، يتكرّر دائماً عامل أخلاقيّ واحترام للطبيعة وسكانها.

ساندتُ حملة في الولايات المتحدة للمطالبة بأن يكون الخشب الذي يُباع في هذا البلد مسجّلاً طبقاً للشروط الاجتماعية والبيئية للمعيار البيئي FSC، بهدف تفادي حلول غابات الصنوبر الصناعية محل الغابات الأصلية في بلدي، والتي ما تزال تشكّل غابات عذراء تضم تنوعاً بيولوجياً، وغنى ثقافياً كبيراً.

أريد أن أُعبّر عن أصدق امتناني للمنظمة البيئية غرينبيس Greenpeace، وإلى مجموعة نشر راندوم هاوس موندادوري، على هذه المبادرة التي ستعود بالخير علينا جميعاً.

إيزابيل أللييندي

إنَّ المنظمة البيئية غرينبيس تُؤَكِّد أنَّ الورق المستخدم في طباعة هذا الكتاب، يتطابق مع الحاجات البيئية والاجتماعية الضرورية، كي يُعتبر كتاباً «صديقاً للغابات». إنَّ مشروع «الكتاب صديق الغابات»، إنَّما يبحث عن اشتراك الكتَّاب والناشرين في الحفاظ على الغابات والاستخدام الدائم لها، خاصَّة الغابات البدائية، آخر غابات الكوكب العذراء.

نأمل أن يكون الطريق الذي شقَّته دار نشر راندوم هاوس موندادوري، مثالاً يحتذى بالنسبة إلى بقيَّة دور النشر في البلد.

دولورِس رومانو

رئيسة غرينبيس في إسبانيا

إنّ الورق المستخدم في هذا الكتاب، مصنوع من خشب مصدره نباتات وغابات مُدارة حسب شروط مجلس إدارة الغابات، وهي العلامة الوحيدة التي تضمن سياسة حراجية للغابات مُستدامة مع البيئة ومفيدة للناس. إنّ مجموعة نشر راندوم هاوس موندادوري، تلتزم بهذه الطريقة للحفاظ على غابات الكوكب وإدارتها المُستَدامة.

نوريا تيي
مديرة النشر

غابة الأقزام

إلى الأخ فِرناندو دِ لا فونْتِ،
المبشّر في أفريقيا، الذي تُنعِشُ روحُه هذه القصّة.

1

عزّافة السوق

توقّفت قافلة الفيلة بأمرٍ من الدليل، ميشيل موشاحا. كان حرّ الظهيرةِ الخانق قد بدأ، حين بدأت حيواناتُ المحمية الطبيعية الشاسعة ترتاح. كانت الحياة تتوقّف عدّة ساعاتٍ، فالأرض الأفريقية تتحوّل إلى جحيم من حمم ملتهبة يجعلُ الضباع والنسور ذاتها تبحث عن ظلّ. كان ألِكساندرْ كولْد وناديا سانتوس يمتطيان فيلاً متقلّب الأهواء، يُدعى كوبي. أحبَّ الحيوان ناديا، لأنّها جهدت خلال تلك الأيام في تَعَلُّم أسسِ لغةِ الفيلة والتواصل معه. كانت تحكي له، خلال المشاوير الطويلة، عن بلدها، البرازيل، الأرض القصيّة، التي لا يوجد فيها حيوانات بضخامته، باستثناء حيوانات قديمة وخُرافية مُتخفيّة في قلب جبال أمريكا العصيّة على الاختراق. كان كوبي يُقدِّر ناديا بقدرِ ما يكرهُ ألِكساندر، ولم يكن يترك فرصة تمرُّ دون أن يبرهن عن هذين الشعورين.

أطنان كوبي الخمسة من العضلات والشحم توقّفت في واحة صغيرة، تحت بعض الأشجار المغبّرة، التي تُغذيها غمرة من مياهٍ بلون الشاي بالحليب. كان ألِكساندرْ قد مارس فنّاً خاصّاً به كي يرمي بنفسه عن ارتفاع ثلاثة أمتار إلى الأرض دون أن يرتضّ أكثر من اللازم، لأنّه لم يكن قد نجح بعد، خلال أيّام السفاري الخمسة،

من جعل الحيوان يتعاون معه. ولم ينتبه إلى أنّ كوبي قد وقف بحيث أنّه حين سقط نزل في البركة غائصاً فيها حتى ركبتيه. بوروبا، قرد ناديا الصغير الأسود، قفز فوقه. وعندما حاول التخلّص منه، فَقَد توازنه وسقط على مؤخرته. فأطلق لعنة بين أسنانه، وأزاح عنه بوروبا، ونهض على قدميه بصعوبة، لأنّه لم يكن يرى شيئاً، فنظارته كانت تقطر ماء وسخاً. كان يبحث عن قطعة نظيفة من قميصه كي ينظفها حين تلقى ضربة خرطوم على ظهره، رمته على وجهه. انتظره كوبي حتى ينهض ليدورَ نصفَ دورة، ويوجِّه مؤخَرتَه ويطلق ضرطة هائلة في وجه الفتى. جوقة من القهقهات من بقية أعضاء البعثة احتفلت بالمزحة.

لم تكن ناديا مستعجلة للهبوط، وفضّلت أن تنتظر كوبي ليساعدها في الوصول إلى اليابسة بكرامة. وضعت قدمها على الركبة التي قدّمها إليها، استندت إلى خرطومه، ووصلت إلى الأرض بخفّة راقصة. لم يكن الفيل يأخذ هذه الاعتبارات تجاه أيّ شخص آخر ولا حتى تجاه ميشيل موشاحا، الذي كان يكنّ له الاحترام ولكن ليس المحبّة. كان حيواناً واضح المبادئ: أن يُنزِّه سياحاً على ظهره، وهو عمل مثل أيّ عملٍ آخر، يكافأ عليه بطعام ممتاز وحمّامات وحل، شيء، وأن يحتال حيل سيرك مقابل قبضة من الفستق شيء آخر. كان يُحبّ الفستقَ، فهو لا يستطيع نكران ذلك، لكنّه كان يستمتع أكثر بتعذيب شخص مثل ألِكساندر. لماذا كان وقعه في نفسه سيّئاً؟ لم يكن متأكّداً، لكنّها مسألة جِلد. كان يُزعجه بقاؤه بجانب ناديا دائماً. كان القطيع يتألف من ثلاثة عشر حيواناً، ومع ذلك يركب مع الفتاة، إذ لم يكن من اللائق أن يحشر نفسه بينه وبين ناديا. ألم يكن ينتبه إلى أنّهما بحاجة إلى خلوة كي يتحدّثا. ضربة خرطوم وبعض من الريح النتنة هما أقل ما يحتاجه هذا النوع من حين إلى آخر. نفخ كوبي نفخة طويلة حين وطئت ناديا اليابسة، وشكرته طابعة قبلة على خرطومه. كانت هذه الفتاة حسنة الآداب، فهي لم تهنه قط بتقديم الفستق إليه.

ـ هذا الفيل عاشق لناديا ـ سخرت كات كولد.

لم يعجب بوروبا المظهر الذي اتخذته العلاقة بين كوبي وصاحبته. كان يراقب ذلك بكثير من القلق. إذ أنَّ اهتمام ناديا بتعلّم لغة صفيقات الجلد يمكن أن يؤدي إلى نتائج خطيرة بالنسبة إليه. ترى ألا تفكّر بتبديل صاحبها (تميمتها). ربّما حانت ساعة التظاهر بالمرض كي يستعيد اهتمام صاحبته التام به، لكنّه كان يخاف أن تهجره في المعسكر، ويخسر المشاوير الرائعة في المحمية. فتلك كانت فرصته الوحيدة كي يرى الحيوانات الوحشية، ثم أنّه من غير الملائم، من ناحيةٍ أخرى، أن يرفع نظره عن منافسه. اتخذ وضعية مريحة على كتف ناديا، محافظاً تماماً على حقّه، وهدّد من هناك الفيلَ بقبضته.

ـ هذا القرد يشعر بالغيرة ـ أضافت كات.

كانت الكاتبة العجوز معتادة على تبدّل مزاج بوروبا. لأنّها تشاطره السقف نفسه منذ سنتين تقريباً. كانت كمن يملك في شقته رجلاً صغيراً مشعّراً. هكذا كان منذ البداية، لأنّ ناديا لم تقبل الذهاب إلى نيويورك للدراسة والعيش معها إلا إذا أخذت معها بوروبا. فهما لم ينفصلا قط. كانا متلاصقين إلى حدّ أنها حصلت على إذنٍ خاصٍّ كي يستطيع الذهاب معها إلى المدرسة. كان القرد الوحيد، في تاريخ نظام المدينة التعليمي، الذي ذهب بانتظام إلى الصف. لم تكن كات تستغرب أن يعرف القراءة. فقد كانت ترى كوابيس يظهر فيها بوروبا جالساً على الأريكة، على عينيه نظارة وفي يده كأس من البراندي، يقرأ القسم الاقتصادي في الصحيفة.

لاحظت كات الثلاثي الغريب الذي يشكّله ألِكساندر وناديا وبوروبا. القرد الذي كان يشعر بالغيرة من أيّ مخلوق يقترب من صاحبته قَبِل في البداية ألِكساندر كشرٍّ لا مفرّ منه، ثم أحبّه مع مرور الزمن. ربّما انتبه إلى أنّه لم يكن عليه أن يطرح على ناديا الإنذار القائل بـ «إمّا أنا أو هو»، كما كان يفعل عادةً. من يدري من كانت

ستختار من بين الاثنين. فكّرت كات أنّ كلا الشابين تغيّر خلال هذه السنة. فناديا ستُكمِل الخامسة عشرة وحفيدها الثامنة عشرة، لقد صار لهما جسد ورزانة البالغين.

كذلك وعت ناديا وألِكساندر التغيرات. كانا خلال فترة الانفصال الإجبارية يتواصلان بعناد مجنون عبر البريد الإلكتروني. فقد كانت حياتهما تمضي بالضرب على الأحرف أمام الكومبيوتر في حوارٍ لا ينتهي. يتقاسمان فيه بدءاً من أكثر تفاصيل روتينهما مللاً وحتى عذابات المراهقة الفلسفية. كثيراً ما كان يرسل الواحد منهما للآخر صوراً، لكنّ هذا لم يُعدّهما للمفاجأة التي وقعت لهما حين التقيا وجهاً لوجه وتبيّنا كم كبرا. فألِكساندر قد نما كمهر وأدرك طول أبيه، وأخذت ملامحه أبعادها، وصار عليه في الأيام الأخيرة أن يحلق ذقنه يوميّاً. ناديا من ناحيتها لم تعد ذلك الكائن المزيّن بريش ببغاء معلق في أذنها، والذي عرفه في الأمازون قبل سنوات، بل صار باستطاعته الآن أن يتصوّر المرأة التي ستصير إليها خلال وقت قصير.

كانت الجدّة والشابان في قلب أفريقيا، في رحلة السفاري الأولى المقامة على متون الفيلة للسياح. وُلِدت الفكرة عن طريق ميشيل موشاحا، أحد أصدقاء الطبيعة الأفريقيين، والمجاز من لندن، والذي خطر له أنّ هذه هي أفضلُ طريقة للاقتراب من الحيوانات البرّية. لم يكن تدجين الفيلة الأفريقية سهلاً كما في الهند وأماكن أخرى من العالم، لكنّ ميشيل استطاع ذلك بصبره وحكمته. في النشرة الدعائية وضّح ذلك بجملٍ قليلة: «الفيلة جزء من المحيط وحضورها لا يُبعد الحيوانات الأخرى؛ وهي لا تحتاج للبنزين ولا للطرقات، ولا تلوّث الهواء ولا تلفت الانتباه».

حين كُلِّفت كات كولدْ بمهمة لكتابة مقال بهذا الخصوص، كان ألِكساندر وناديا معها في تونخالا، عاصمة مملكة التنين الذهبي. كانوا قد تلقوا دعوة من الملك ديل باهادور وزوجته بما للتعرف على ابنهما البكر وحضور تدشين تمثال التنين الجديد. فقد استُبْدِلَ

التمثال الأصلي، الذي دمّر في انفجارٍ، بآخر مماثل، صنعه صائغٌ صديق لكات.

لقد مَلَك شعب تلك المملكة في هيملايا لأوّل مرّة الفرصةَ لرؤية أداة الأسطورة الغامض، الذي كان العاهل المتوَّجُ وحده من يستطيع الوصول إليه. قرّر ديل باهادور أن يعرض تمثال الذهبِ والحجارة الكريمة في قاعة من قاعات القصر الملكيّ، التي مرّ فيها الناس يتأملوه ويتركوا تقدماتهم من الأزهار والبخور. كان مشهداً رائعاً، فالتمثال الموضوع على قاعدة من الخشب الملون يلمع تحت ضوء مئة مصباح. ويقوم على حراسته أربعة حرّاس، يرتدون الثياب الاحتفالية القديمة والقبّعات الجلدية وقنزعات الريش والرماح التزيينيّة. لم يسمح ديل باهادور بأن يُهان الشعب بإجراءات أمنية مشدّدة.

كان قد انتهى من الاحتفال الرسمي بإزاحة الستار عن التمثال حين أعلموا كات كولد أنّ هناك مكالمة هاتفية لها من الولايات المتحدة. كان نظام الهاتف في البلد قديماً والمكالمات الدولية مشكلة، لكن ناشر مجلة *الإنترناشيونال جيوغرافيك*، وبعد الكثير من الصراخ والتكرار تمكن من أن يُفهِمَ الكاتبةَ طبيعةَ عملها المستقبلي. كان عليها أن تغادر إلى أفريقيا فوراً.

- عليّ أن آخذ معي حفيدي وصديقته ناديا، الموجودين معي هنا - وضّحت.

- الصحيفة لا تدفع نفقاتهما، يا كات! - ردّ الناشر من مسافةٍ كونية.

- إذن لن أذهب! - زعقت.

وهكذا كان أن وصلت بعد أيّام إلى أفريقيا برفقة الولدين، والتقت هناك بالمصوّرَين اللذين عملا دائماً معها، الإنكليزي تيموثي بروس والأمريكي اللاتيني جول غونثالِث. كانت الكاتبة قد وعدت ألا تسافر أبداً مع حفيدها وناديا، اللذين جعلاها في الرحلتين

السابقتين تمرُ في لحظاتٍ خوفٍ شديد، لكنّها فكّرت أن مشواراً سياحياً في أفريقيا لا ينطوي على أيّ خطر.

استقبل موظّفٌ من موظّفي ميشيل موشاحا أعضاءَ البعثة عندما حطّوا في عاصمة كينيا. رحّب بهم وأخذهم إلى الفندق كي يرتاحوا، لأنّ الرحلةَ كانت قاتلة: فقد تنقّلوا بين أربع طائرات وعبروا ثلاث قارات وطاروا آلاف الأميال. نهضوا في اليوم التالي باكراً وانطلقوا في جولة في المدينة، لزيارة المتحف والسوق قبل أن يركبوا طائرة صغيرة ستقودهم إلى السفاري.

كان السوق في منطقة شعبية، وسط غابة كثيفة. الأزقة غير المرصوفة مزدحمة بالناس والآليات: دراجات نارية تحمل ثلاثة أو أربعة أشخاص، باصات متداعية، عربات تُجر باليد. كلّ أنواعِ منتجات اليابسة والبحر والصناعة البشرية كانت تُعرض هناك، بدءاً من قرون وحيد القرن وأسماك النيل الذهبية وحتى الأسلحة المُهرَّبة. انفصل أعضاء البعثة على أن يلتقوا بعد ساعة عند زاوية محدّدة. وقول ذلك أسهل من تنفيذه، لأنّه لم يكن هناك من طريقة لتحديد المكان وسط ذلك الزحام والجلبة. أخذ ألِكساندر ناديا من يدها خوفاً من أن تضيع أو تذهب بين الأقدام، وانطلقا معاً.

كان السوق يقدّم عيّنة عن تنوّع الأعراق والثقافات الأفريقية: بدو من الصحراء، فرسان رشيقون على جيادهم المزدانة، مسلمون بعمائم محكمة الصنع ووجوه نصف مغطاة، نساء بعيون ملتهبة ووشوم زرقاء على الوجه؛ رعاة عراة زُخْرِفَت أجسادُهم بالطين الأحمر والحوار الأبيض؛ ومئات الأطفال يتراكضون حفاةً وسط قطعان من الكلاب. كانت النسوة مشهداً: بعضهن يزدهين بمناديل فاخرة منشاةٍ، تبدو من بعيد أشرعةَ سفن وأخريات حليقاتِ الرؤوس بعقود تغطيهن من الكتفين وحتى الذقن، وبعضهن الآخر يلتففن بأمتار وأمتار من قماشٍ برّاق الألوان، وأخريات يمضين شبه

عاريات. كان الجوّ يمتلئ كلاماً بعدّة لغات وموسيقى وضحكات وأصوات زمامير وتألم حيوانات تُذبح هناك. الدم يقطر من طاولات الجزّارين ويختفي في غبار الأرض، بينما الرّمّاحات الملكية السوداء تطير على ارتفاع قليل، جاهزة للانقضاض على الأحشاء.

كان ألِكساندر وناديا يتمشّيان مذهولين في عيد الألوان ذاك، ويتوقّفان ليساوما على سعر سوار بلوريّ، ويتذوّقا حلوى ذرة أو يلتقطا صورة بكاميرا آلية عادية اشترياها في اللحظة الأخيرة من المطار. فجأة اصطدما بنعامةٍ مربوطة من ساقيها تنتظر مصيرها. كان الحيوان ـ وهو ذكر أطول وأقوى وأشجع مما هو متصوَّر ـ يراقبهما من أعلاهما إلى أسفلهما بازدراءٍ مُطلق؛ ثم ومن دون سابق إنذار لوى عنقه الطويل ووجّه نقرة إلى بوروبا، الذي كان على رأس ألِكساندر، ممسكاً بقوّة بأذنيه. استطاع القرد تفادي النقرة القاتلة وراح يزعق مثل معتوه. انقضّت النعامة قصيرةُ الجناحين عليهم بما سمح لها به الحبل الذي يكبلها. ومن حسن الحظّ أنّ جول غونثالِث ظهر في تلك اللحظة، واستطاع أن يلتقط بكاميرته ملامح الذعر عند ألِكساندر والقرد، بينما ناديا تحميهما من المهاجم غير المتوقّع ضرباً بيديها.

ـ هذه الصورة ستظهر على غلاف المجلة ـ صاح جول.

انعطف ألِكساندر وناديا الهاربان من النعامة المتعالية في زاويةٍ، فوجدا نفسيهما فجأة في قطاع من السوق مخصَّصٍ للسحر. كان هناك سحرةُ سحرٍ أبيض وأسود، عرّافون مولعون بالوثنية، أطباء شعبيون، سامّون، طاردو الأرواح الشريرة، كهنة فودويون يعرضون خدماتهم تحت مظلات مستندة إلى أربع عصيّ كي تحميهم من الشمس؛ يأتون من مئات القبائل ويمارسون مختلف الطقوس الدينية. راح الصديقان يجوبان الشوارع الضيقة دون أن يترك أحدهما يدَ الآخر، يتوقّفان أمام دُوَيْباتٍ في مرطباناتٍ زجاجية

وزواحف محنطة؛ تعاويذ ضدّ العين والحب؛ أعشاب، غسولات، وبلسم طبيّ لشفاء أمراض الجسد والروح؛ مساحيق للحلم والنسيان والنشور؛ حيوانات حية للتضحية؛ أطواق ضدّ الحسد والجشع؛ حبر من دم لكتابة التعاويذ، وأخيراً مخازن هائلة من المواد الخيالية للتخفيف من خوف العيش.

كانت ناديا قد شاهدت طقوس الفودو في البرازيل، واعتادت إلى هذا الحدّ أو ذاك على رموزهم، لكن هذا الجزء من السوق كان بالنسبة إلى ألِكساندر عالماً مذهلاً. توقّفا أمام محلّ مختلف عن المحلات الأخرى، سقفه المخروطيّ من قشّ. علقوا عليه ستائر بلاستيكية. انحنى ألِكساندر كي يرى ما بداخله، فامسكت به من ثوبه يدان هائلتان وجذبتاه إلى الداخل.

امرأة ضخمة تجلس على الأرض تحت السقف. جبلٌ من لحم متوّجٌ رأسه بمنديل فيروزيّ كبير. كانت ترتدي الأصفرَ والأزرقَ وصدرها مغطى بأطواق الخرز، متعدّدةِ الألوان. عرّفت بنفسها على أنّها ساعية بين عالم الأرواح وعالم المادّة، عرّافة وكاهنة فودوية. على الأرض قماش عليه رسوم بالأبيض والأسود، وتحيط به صور آلهة وشياطين خشبية، بعضها مبلل بدمِ الحيوانات المضحى بها، وبعضها الآخر مليء بالمسامير، وتظهر إلى جانبها تقدمات الفاكهة والحبوب والأزهار والنقود. كانت المرأة تُدخِّنُ أوراقاً سوداء ملفوفة على شكل أسطوانة أدمع دخانها عيون الشابين. حاول ألِكساندرُ أن يفلت من اليدين اللتين سمّرتاه، لكنّها ثبّتته بعينيها الجاحظتين، في الوقت الذي راحت تُطلق فيه زمجرة عميقة. عرف الفتى صوت حيوانه الطوطمي، الذي كان يسمعه في الأوقات الحرجة ويطلقه حين يتخذ هيئته.

- إنّه الجغوار الأسود! - هتفت ناديا إلى جانبه - أجبرت الكاهنةُ الفتى الأمريكيَّ على الجلوس أمامها، وأخرجت من تقويرةِ صدرها كيساً جلدياً تالفاً جدّاً، وأفرغت محتواه على القماش

المصور. كانت أصدافاً بيضاء، صقلها الاستخدام. بدأت تدمدم شيئاً بلغتها دون أن تفلت السيجارة التي أمسكت بها بين أسنانها.

ـ إنكليزية؟ إنكلِش؟ ـ سأل أَلِكساندر.

ـ جئتَ من مكانٍ آخر، من بعيد. ماذا تُريد من ما بانْغِسِة؟ ـ ردّت محاولةً أن تُفهمه بخليط من الإنكليزية والمفردات الأفريقية.

هزَّ ألِكساندر كتفيه وابتسم عصبياً وهو ينظر شذراً إلى ناديا، ليرى ما إذا كانت تفهم ما يحدث. أخرجت الفتاة من جيبها ورقتين نقديتين ووضعتهما في إحدى القرعات، حيث التقدمات النقدية.

ـ ما بانغِسِة تستطيع أن تقرأ قلبك ـ قالت المرأةُ القبيحةُ متوجّهةً بكلامها إلى ألِكساندر.

ـ ماذا في قلبي؟

ـ أنت تبحث عن دواء لعلاج امرأة ـ قالت.

ـ أمّي لم تعد مريضة، لقد تراجع سرطانُها... ـ همس ألِكساندر، خائفاً، وهو لا يدري كيف تعرف ساحرة في سوق أفريقيّ عن أمور ليزا.

ـ في جميع الأحوال أنت خائف عليها ـ قالت ما بانغِسِه. هزّت الصدفات في يدٍ وجعلتها تتدحرج مثل الزهر ـ ليس بيدك حياة أو موت هذه المرأة ـ أضافت.

ـ هل ستعيش؟ ـ سأل ألِكساندر.

ـ إذا عدتَ عاشت وإذا لم تعد ماتت حزناً، وليس مرضاً.

ـ طبعاً سأعود إلى بيتي ـ صاح ألِكساندر.

ـ ليس أكيداً، هناك أخطار كثيرة لكنّك شجاع. عليك أن تستخدم شجاعتك. في جميع الأحوال ستموت وستموت معك هذه الفتاة ـ أنشدت المرأة مشيرةً إلى ناديا.

ـ ماذا يعني هذا؟ ـ سأل ألِكساندر.

ـ يمكن أن تعمل شرّاً ويمكن أن تعمل خيراً. لا يوجد جزاء على عمل الخير غير رضا الروح. عليك أحياناً أن تُقاتِل، أنت من عليه أن يُقرّر.

ـ ماذا عليَّ أن أفعل؟

ـ ماما بانغِيسِهٔ لا ترى غير القلب، ولاتستطيع أن تُبينَّ الطريق ـ ثم التفتت إلى ناديا، التي جلست بجانب ألِكساندر، ووضعت إصبعاً على جبينها، بين عينيها ـ أنت ساحرة ولك نظرة طائر، ترين من الأعلى، عن بعد. وتستطيعين مساعدته ـ قالت.

أغمضت عينيها وراحت تترنّح إلى الأمام وإلى الخلف بينما العرق يسيل على وجهها وعنقها. كان الحرّ لا يُحتَمَل، ورائحة السوق تصل إليهم: ثمار عفنة، قمامة، دم وبنزين. أصدرت ما بانغِيسِهٔ صوتاً حلقياً خرج من بطنها، أنّة طويلة وجشّاء ارتفعت نبرتها حتى هزّت الأرض، وكأنّها تخرج من قاع الأرض ذاتها. فخافت ناديا وألِكساندر، الدائخين والمتصبّبين عرقاً، أن تخونهما قواهما. كان هواء الحظار، المختلط بالدخان الكثيف، لا يستنشق. حاولا الهرب، وهما في كلّ مرّة أكثر ذعراً، لكنّهما لم يستطيعا التحرّك. هزّتهما رعشة طبول، سمعا كلاباً تنبح، امتلأ فماهما باللعاب المرّ وتحوّلت المرأة الضخمة أمامهما إلى عدم، مثل بالون أفرغ من الهواء، وظهر مكانها طائر خرافيّ برّاق الريش الأصفر والأزرق والعرف الفيروزي، طائر جنّة نشر قوس قزح جناحيه ولفّهما صاعداً بهما.

قُذِفَ الصديقان في الجوّ. استطاعا أن يريا نفسيهما مثل خطي حبر ضائعين في منظار ألوان برّاقة وأشكالٍ متماوجة تتبدّل بسرعة مرعبة. تحوّلا إلى أنوار نارية، وجسداهما صارا شرراً، فقدا الإحساس بأنّهما حيّين وبالزمن والخوف. بعدها اجتمعت الشرارات في زوبعة كهربائية وعادا ليرى الواحد منهما الآخر مثلَ نقطة مصغَّرة تطير بين رسوم المنظار الخيالي. صارا الآن ملاحين

فضائيين، يطيران في فضاء المجرات. لا يشعران بجسديهما، لكنّهما يملكان وعياً ضبابياً بالحركة وبالتواصل فيما بينهما. تمسّكا بهذا الاحتكاك لأنّه الدليل الوحيد على إنسانيتهما؛ فإمساكهما الواحد بيد الآخر يجعلهما غير ضائعين كلّياً.

أخضر، كانا مغمورين بأخضر مطلق. بدآ يهبطان مثل سهمين وحين بدا الاصطدام حتمياً، صار اللون مختلطاً، وبدل أن ينفجرا طَفَوا مثل ريشتين إلى الأسفل، غائصين في خضرة غير معقولة، أزهارٍ قطنية، حارّة ورطبة من كوكب آخر. تحولا إلى ميدوزتين شفافتين، ذائبتين في بخار ذلك المكان. وفي هذه الحالة الهلامية، بلا عظام تعطيهما شكلاً ولا قوّة يحميان بها نفسيهما ولا صوت يناديان به، واجها الصورَ العنيفة التي مثلت أمامهما بتتالٍ سريع، رؤى موت، دم، حرب وغابة مدمّرَة. موكب أطياف مكبّلة مرّ أمامهما، تُجرجر أقدامها بين هياكل حيوانات كبيرة. رأيا سلالاً مليئة بأيد بشريّة، وأطفالاً ونساءً حبيسات في أقفاص.

سرعان ما عادا ليكونا هما نفسيهما، بجسديهما اللذين كانا لهما دائماً؛ وعندئذ ظهر أمامهما بوضوحٍ أكثر الكوابيس رعباً: غول متوعّد بثلاثة رؤوس، عملاق بجلد تمساح. كانت الرؤوس مختلفة: رأس بأربعة قرون ولُبَد أسد قاس، وثانٍ أصلع بلا عينين ويلفظ أنفه ناراً، وثالث هو جمجمة فهدٍ بأنيابٍ دامية وبؤبؤي شيطان ملتهبين. وكانت الرؤوس الثلاثة تشترك في حلاقيم مفتوحة ولسان إيغوانا. تحرّكت مخالبُ المسخ الهائلة بتثاقلٍ، محاولة الوصول إليهما. عيونه الممغنطة انغرزت فيهما، وأطلقت المخاطم الثلاثة لعاباً لزجاً ساماً. تفادى الشابان مرّةً وأخرى ضربات أيديه الضارية، دون أن يتمكّنا من الهرب، لأنّهما أسيرا كابوس موحل. تفاديا المسخَ زمناً لا حدود له، إلى أن وجدا بغتةً رماحاً في أيديهما وبدآ يائسين يدافعان على غير هدى عن نفسيهما؛ وحين يهزمان رأساً من الرؤوس يهجم الرأسان الآخران؛ وإذا ما استطاعا أن يتملصا من أحدهما عاد الأوّل ليهاجم. تكسّرت الرماح في المعركة.

وفي اللحظة الأخيرة حين كاد المسخ يلتهمهما حدث لديهما ردّ فعل خارق، وتحوّلا إلى حيوانيهما الطوطميين، ألِكساندر صار جغواراً ونادیا نسراً، لكن لم تكن تُفيد أمام ذلك الحيوان المريع ضراوةُ الأوّل ولا جناحا الثاني... ضاعت صرخاتهما في زمجرة الغول.

ـ ناديا! ألِكساندرْ!

عاد بهما صوتُ كاتْ كولْدْ إلى العالم المألوف، ووجدا نفسيهما جالسين في الوضعية ذاتها التي بدآ بها رحلة الهذيان في السوق الأفريقي، تحت سقفِ القشّ، أمام المرأة الضخمة بثيابها الصفراء والزرقاء.

ـ سمعناكما تصرخان. من هذه المرأة؟ ماذا حدث؟ ـ سألت الجدّة.

ـ لا شيء، يا كات، لم يحدث شيء ـ استطاع ألِكساندر أن يلفظ مترنّحاً.

لم يعرفِ كيف يشرح لجدّته ما خَبِراه للتو. فصوت ما بانغِيسِة العميق بدا أنّه يصل من عالم الأحلام.

ـ حذار! ـ حذّرتهما العرّافة.

ـ ماذا حدث لكما؟ ـ كرّرت كات.

ـ رأينا مسخاً بثلاثة رؤوس. كان قاهراً... ـ تمتمت ناديا وهي ما تزال مذعورة.

ـ لا تنفصلا، فمعاً تستطيعان أن تنجوَا، وبالانفصال ستموتان ـ قالت ما بانغِيسِة.

في صباح اليوم التالي سافرت مجموعة *الإنترناشيونال جيوغرافيك* في طائرة صغيرة إلى المحميّة الطبيعية الفسيحة، حيث كان ينتظرهم ميشيل موشاحا والرحلةُ على ظهور الفيلة. كان

أِلكساندر ونـاديا مـا يزالان تحت تأثير صدمة تجربة السوق. وخلُص أِلكساندرْ إلى أن دخان تبغ السـاحرة يحتوي على مخدّر، لكنّ هذا لم يكن يُبرِّر أنّ كليهما رأيا الرؤى ذاتها. لم تُحاول نـاديـا أن تعقلن المسألة، فتلك الرحلة الرهيبة كانت بالنسبة إليها مصدراً لمعلومات، وطريقة للتعلّم، تشبه التعلّم في الأحلام. بقيت الصور جليّة في ذاكرتها؛ وكانت على ثقةٍ من أنّها ستلجأ إليها ذات لحظة.

كانت أنجي نينِدرِرا هي التي تقود الطائرةَ الصغيرة التي تملكها. كانت امرأة مغامرة ومدفوعة بطاقة مُعدية، واستغلت الرحلة لتقوم بعدّة دورات استثنائية وتريهم جمال الطبيعة الجليل. بعد ساعة هبطوا في منطقة مكشوفة على بعد ميلين من معسكر موشاحا.

خيَّبت تجهيزاتُ السفاري الحديثةُ آمال كاث، التي كانت تنتظر شيئاً أكثر بدائية. عدد من الموظَفين الأفريقيين الأكفاء واللطيفين بثيابهم الخاكية ومعهم جهاز بثٍّ واستقبال، راحوا يهتمون بالسياح ويعتنون بالفيلة. كان هناك عدد من الخيام الواسعةِ كأجنحة الفنادق، وبناءان خشبيّان تافهان يحتويان على أماكن الخدمة العامة والمطابخ. وهناك ناموسيات بيضاء معلقة فوق الأسرّة والأثاث من الخيزران، وعلى الأرض جلود حمر الوحش والظباء بدل السجاد. كانت الحمّامات تحتوي على نوع من المراحيض والدوشّات المزودة بالمياه الساخنة. وكان لديهم مولّد كهربائي يعمل من السابعة إلى العاشرة ليلاً، بينما يتدّبرون أمرهم فيما تبقى من الوقت بالشموع ومصابيح البترول. الطعام القائم على كاهل طباخَيْن، كان لذيذاً، بحيث أنّ أِلكساندر نفسه، الذي كان يرفض أيَّ طبق لا يعرف تهجية اسمه، التهمه. بالمجمل كان المعسكر أنيقاً أكثر من معظم الأماكن التي نامت فيها كاث خلال عملها كرحالة وكاتبة. وقد قرّرت الجدّةُ أن ذلك يُنقِص نقطة من قيمة السفاري؛ وهي لن تتوانى عن نقده في مقالها.

في الخامسة وخمس وأربعين دقيقة صباحاً كان يقرع جرسٌ،

فيستغلون أكثر ساعات الصباح برودة، لكنّهم يستيقظون قبل ذلك على صوت أسراب الخفافيش الجلية، العائدة إلى جحورها عند ظهور أوّل خيوط الشمس بعد أن تكون قد طارت طوال الليل. في مثل تلك الساعة كانت القهوةُ المغليّة للتو تملأُ الجوَّ بعبقها. والزوار يفتحون خيامهم ويخرجون ليتمطّوا بينما شمس أفريقيا، التي لا تقارن بأيّة شمس أخرى، ترتفعُ قرصاً هائلاً من نارٍ يملأُ الأفق. كان المشهد يفور تحت نور الفجر، والأرض الملفوفة بضباب ضارب للحمرة يبدو أنّها ستمّحي في أيّة لحظة وتختفي كالسراب.

سرعان ما يغلي المعسكر بالحركة والطباخان يدعوانهم إلى المائدة، وميشيل موشاحا يملي أوامره الأولى. ثمّ يجمعهم بعد تناول طعام الإفطار ليلقي على مسامعهم محاضرة قصيرة عن الحيوانات والطيور والنباتات التي سيرونها. كان تيموثي بروس وجول غونثالث يحضران كاميرتيهما، والمستخدمون يُحَضِّرون الفيلة. كان يرافقهم فيل صغير في الثانية من عمره، يخبّ سعيداً بجانب أمّه، وهو الوحيد الذي عليهم أن يُذكّروه بين الفينة والأخرى بالطريق، لأنّه كان يتلهى بالنفخ على الفراشات، أو بالاستحمام في البرك والأنهار.

كان المشهد من فوق الفيلة جليلاً وصفيقاتُ الجلد تتحرّك دون ضجّة، منسجمة مع الطبيعة؛ تتقدّم بهدوء متثاقل، لكنّها تقطع أميالاً كثيرة في زمن قصير، ودون جهد. ما من أحدٍ منها ولد في الأسر غير الفيل الصغير؛ فقد كانت حيوانات بريّة، وبالتالي غامضة. نبّههم ميشيل موشاحا إلى أنّ عليهم أن يلتزموا بالتعليمات، وإلاّ فإنّه لن يستطيع أن يضمن لهم الأمان. الوحيدة في المجموعة التي كانت تخترق النظام هي ناديا سانتوس، التي أقامت منذ اليوم الأوّل علاقة خاصّة مع الفيلة، اختار مدير السفاري أن يغضّ الطرف عنها.

كان الزوار يقضون الصباح بالتطواف في المحمية. يتفاهمون بالإشارات دون أن يتكلموا كيلا تكتشفهم حيوانات أخرى. وكان موشاحا يبدأ المسير على ظهر أكبر فيلة القطيع الذكور سناً، وخلفه

كات والمصوران على الإناث، التي كانت واحدة منها أمّ الفيل الصغير، يليهم ألِكساندر وناديا وبوروبا على ظهر كوبي. وينتهي الصف بزوج من المستخدمين على فيلين فتيين ذكرين، ومعهما المؤن ومظلات القيلولة وجزء من معدات التصوير. كما كانوا يحملون معهم مخدّراً قوياً كي يستخدموه في حال وجدوا أنفسهم أمام حيوان عدوانيّ.

كانت الحيواناتُ صفيقةُ الجلد تتوقّف عادةً لتأكل الأوراق عن الأشجار ذاتها التي ارتاحت تحتها قبل قليل عائلة من الأسود. وكانت في أحيان أخرى تمرّ قريبةً جداً من وحيدات القرن، التي كان باستطاعة ألِكساندر وناديا أن يرياها منعكسة في العين الدائرية التي تتفحصهم مرتابةً من الأسفل. قطعان الجواميس والظباء الأفريقيّة لا تأبه بوصول المجموعة؛ ربّما لأنّها كانت تشمّ رائحة البشر، لكنّ حضور الفيلة الجبار يربكها. استطاعوا أن يتنزهوا بين حمر الوحش الخائفة، ويُصَوِّروا عن قرب قطيعاً من الضباع المتنازعة على جيفة ظبي، وأن يداعبوا عنق زرافة، بينما هي تنظر إليهم بعيني أميرةٍ وتلعق أيديهم.

ـ بعد سنوات لن يكون هناك حيوانات برية طليقة في أفريقيا، ولن تظهر إلاّ في الحدائق والمحميات ـ أسِفَ ميشيل موشاحا.

كانوا يتوقّفون عند الظيهرة محميين بالأشجار، يتغدون مما احتوته بعض السلال ويرتاحون في الظل حتى الرابعة أو الخامسة مساءً. والحيوانات البرّية تستلقي لترتاح في ساعة القيلولة، ولا شيء يتحرك في سهل المحمية تحت الأشعة الملتهبة. كان ميشيل موشاحا يعرف المنطقة ويعرف كيف يُقدِّر الوقت والمسافة، وعندما يبدأ قرص الشمس الهائل ينحدر يكونون قد أصبحوا على مقربة من المعسكر ويستطيعون رؤية الدخان. كانوا يخرجون أحياناً ليلاً ليشاهدوا الحيوانات ترِد النهر لتشرب.

2

رحلة سفاري على متن فيل

سرب من ستة قرودحات تدبّرت أمرها لتخرب المعسكر. فالخيام على الأرض، وطحين وسمن ورز وفاصولياء ومعلبات مبعثرة في كلّ مكان، أكياس النوم الممزقة معلقة على الأشجار، وكراسٍ وطاولات مكسرة تتكوّم وسط المعسكر. والأثر بدا وكأنّ إعصاراً استوائياً قد كنس المعسكر. القرودحات، التي يتصدَّرُها قرودح أشرس من البقيّة، استولت على القدور والمقالي وراحت تستخدمها كهراوات تضرب بها بعضها بعضاً، وتهاجم أيَّ كائن يُحاول الاقتراب منها.

- ماذا جرى لها! - صاح ميشيل موشاحا.

- أخاف أن تكون ثملة قليلاً... - وضّح أحد المستخدمين.

راحت القرود تطوف بشكل متواصل حول المعسكر، جاهزة للسطو على ما تستطيع القذف به إلى فراطيسها. كانت تدخل ليلاً في القمامة وتسرق المؤن إن لم تكن محروسة جيداً. لم تكن ظريفة، بل إنها تكشف عن أنيابها وتزمجر، لكنّها تخشى البشر وتبقى على مسافة حذرةٍ منهم. كان ذلك الهجوم غير معهود.

أمام استحالة السيطرة عليها، أمر موشاحا بقذفها بالمخدّر، لكنّ إصابة الهدف لم يكن أمراً سهلاً، لأنّها كانت تقفز وتجري كما

لو أنّ الشيطان قد مسّها. أخيراً تلقت القرودحات الوخزات المهدّئة، واحداً بعد الآخر، وراحت تسقط متخشبة على الأرض. ساعد ألِكساندر وتيموثي بروس على رفعها من رسغها ومعاصمها ووضعها على بعد مئتي متر عن المعسكر، حيث ستشخر دون أن تتعرّض لأيّ إزعاج إلى أن يذهب تأثير المخدّر. كانت أجسادها، النتنة والثقيلة تزن أكثر بكثير مما يفترضه حجمها. واضطر ألِكساندر وتيموثي والمستخدمون الذين لمسوها، لأن يستحمّوا ويغسلوا ثيابهم ويرشوا أنفسهم بالمعقّمات كي يتخلّصوا من البراغيث.

وبينما كان عمّال السفاري يحاولون أن يُجلَوا بعض النظام في تلك البلبلة، تحقّق ميشيل موشاحا مما حدث. في غفلة من المسؤولين دخل قردوح إلى خيمة كات وناديا، حيث تحتفظ الأولى باحتياطيها من زجاجات الفودكا. كان باستطاعة القردة أن تشمَّ رائحة الكحول عن بعدٍ، وحتى في الزجاجات المختومة. سرق القردوح زجاجة وكسر عنقها وتقاسم محتواها مع رفاقه. سكرت من الجرعة الثانية، ومع الجرعة الثالثة هاجمت المعسكر مثل عصابة من القراصنة.

ـ أنا بحاجة للفودكا من أجل ألم عظامي ـ شكت كات، مقدّرة أن عليها أن تعتني بالزجاجات القليلة المتبقية كما لو أنّها ذهب.

ـ ألا تستطيعين أن تتدبّري أمركِ بالأسبرين؟ ـ اقترح موشاحا.

ـ الأقراص سمّ! وأنا لا أستخدم إلاّ المنتجات الطبيعية ـ هتفت الكاتبة.

وما إن سيطروا على القردوحات وتمكّنوا من ترتيب المعسكر من جديد، حتى لاحظ أحدهم أنّ قميص تيموثي بروس مدمى. وبلا مبالاته المعهودة اعترف بأنّه قد تلقى عضةً.

ـ يبدو أنّ قردوحاً فتيّاً لم يتخدّر تماماً... ـ قال بما يُشبه التوضيح.

ـ دعني أرَ ـ طلب موشاحا.

رفع تيموثي حاجبه الأيسر. تلك الحركة الوحيدة في وجهه، وجه الحصان القاسي، التي يستخدمها في أيّ من الانفعالات التي كان قادراً على الإحساس بها، وهي: المفاجأة والشك والانزعاج. وهو الانفعال الأخير في تلك الحالة. كان يكره كلّ أنواع اللغط، لكنّ موشاحا أصرّ، ولم يبقَ أمامه خيار آخر غير أن يرفع كمّهُ. لم يكن الجرح ينزف، بل هناك قشرة جافة فوق النقاط التي ثقبتها الأسنان، لكنّ مقدّمة الذراع انتفخت.

ـ هذه القرود تنقل أمراضاً. سوف أعطيك حقنة مضادات حيوية، لكن من الأفضل أن يراك طبيب ـ أعلن موشاحا.

ارتفع الحاجب اليساري لبروس حتى منتصف الجبهة: في الحقيقة هناك الكثير من الصخب.

خاطب ميشيل موشاحا أنجي نيندِررا باللاسلكي وشرح لها الوضعَ. ردّت الطيارةُ الشابة بأنّها لا تستطيع أن تطير ليلاً، لكنّها ستصل في اليوم التالي باكراً في طلب بروس لنقله إلى العاصمة نيروبي. لم يستطع مدير السفاري أن يتفادى ابتسامة، فقد ألهمته عضّة القردوح فرصة أن يرى أنجي قريباً، والتي كان يشعر تجاهها بضعف لا يستطيع أن يعترف به.

راح بروس يرتعد ليلاً من الحمّى. ولم يكن موشاحا متأكّداً مما إذا كان ذلك بسبب الجرح أم بسبب ملاريا مباغتة، لكنّه في جميع الأحوال كان مشغولاً، لأنّ راحة السائحين من مسؤولياته.

وصل إلى المعسكر عند العصر مجموعة من الماساي الرُحَّل، اعتادت أن تجتاز المحمية، تسوق أبقاراً ضخمة القرون. كانوا

طوالاً، نحيلين، جميلين ومختالين؛ يُزيّنون أعناقهم ورؤوسهم بأطواق معقّدة من الخرز؛ ويرتدون قمصاناً يعقدونها إلى خصورهم ومزوّدين بالرماح؛ يعتقدون أنّهم شعب الله المختار، وأنّ الأرضَ وما تحتويه هبة من الله لهم. وهذا ما كان يمنحهم الحقّ بالاستيلاء على قطعان الآخرين، وهي عادة كان وقعها سيّئاً عند القبائل الأخرى. وبما أن موشاحا لم يكن يملك قطيعاً فهو لا يخاف أن يسرقوه. الاتفاق بينهم كان واضحاً: يستضيفهم حين يعبرون المحميّة، لكنّهم لا يستطيعون أن يلمسوا شعرة من الحيوانات البرّية.

كما هي العادة دائماً، قدّمَ لهم موشاحا الطعام، ودعاهم للبقاء. لم تكن رفقة الغرباء تسرُّ القبيلة، لكنّها قبلت لأنّ أحدَ أطفالها كان مريضاً. كانوا ينتظرون وصول طبيبة شعبيّةٍ كانت في طريقها إليهم. وهذه المرأة مشهورة في المنطقة وتجوب مسافات هائلة كي تشفي زبائنها بالأعشاب وقوّةِ الإيمان. لم يكن باستطاعة القبيلة أن تتواصل معها بالوسائل الحديثة، لكنّها علمت بطريقة ما أنّها ستصل في تلك الليلة، ولذلك بقيت في أملاك موشاحا. سمعوا عند غياب الشمس، كما توقّعوا فعلاً، صوتَ أجراس وتعاويذ الطبيبة الشعبية.

ظهرت في غبار المساء الضارب إلى الحمرة هيئةٌ شاحبة وحافية وبائسة. كانت ترتدي تنورةً سملة قصيرة، ومعداتها تقتصر على قرعات وأكياس من التمائم والأدوية وعصوين سحريين متوجين بالريش. كان شعرُها، الذي لم تقصّه قط، فتائلَ محشوّة بالتراب الأحمر. بدت عجوزاً جدّاً، وجلدها يتهدّل على شكل طيات فوق عظامها، لكنّها تسير منتصبة القامة، قويّة الذراعين والساقين. تمّت عملية مداواة المريض على بُعد أمتار من المخيّم.

ـ تقول الطبيبة الشعبية إنّ روحَ سَلَفٍ مُهانة قد دخلت في الطفل، وعليها أن تحدّد من تكون وتعيدها إلى العالم الآخر، حيث مكانها الذي تنتمي إليه ـ وضّح موشاحا.

ضحك جول غونثالث، ففكرة أن يوجَد شيء كهذا في غرّة القرن الحادي والعشرين بدت له مضحكةً جداً.

ـ لا تسخر، يا رجل. فالمريض يشفى بنسبة ثمانين بالمئة من الحالات ـ قال له موشاحا.

وأضاف أنّه رأى ذات مرّة رجلين يتمرّغان بالتراب، يعضان، يطلقان زبداً من فميهما، ويزمجران وينبحان. كان الضبع، حسب ما قاله أهلهما، قد ضبَعَهما. وهذه الطبيبة ذاتها شفتهما.

ـ هذا اسمه هستيريا ـ قال جول.

ـ سمِّهِ ما شئت، لكنّ المسألة أنّهما شفيا بطقس. ونادراً ما يُحقق الطب الغربيّ النتائج ذاتها بالمهدئات وبالصعقات الكهربائية ـ ابتسم موشاحا.

ـ دعك من هذا، يا ميشيل، أنت شخص علميّ ودرست في لندن، لا تقل لي إنّ...

ـ أنا أفريقيّ قبل كلّ شيء ـ قاطعه نصير الطبيعة ـ لقد فهم الأطباء في أفريقيا أنّ عليهم أن يعملوا مع الأطباء الشعبيين، بدل السخرية منهم. فالسحر يُعطي أحياناً نتائجَ أفضل من المناهج المجلوبة من الخارج. الناس يؤمنون به، ولذلك فهو يؤدي عمله. الإيحاء يفعل المعجزات. لا تحتقر سَحَرَتَنا.

استعدّت كاث كولد كي تُسجّل ملاحظاتها عن الجلسة، وحضّرَ جول غونثالث، الخَجِل من أنّه يضحك، كاميرته كي يصوّرها.

وضعوا الطفل العاري فوق بطانية على الأرض، يحيطُ به أعضاء أسرته الكبيرة. بدأت العجوز تضرب عصويها السحريين وتحدث ضجة بقرعاتها، راقصةً على شكل دوائر، بينما هي ترنّم نشيدها، الذي سرعان ما راحت تردّده معها القبيلة. بعد برهة قصيرة سقطت مغشياً عليها وراح جسدها يرتعش، وغربت عيناها وصارتا بياضاً. في هذه الأثناء تخشّب الصبي على الأرض، قوّسَ جسده إلى الخلف، وبقي مستنداً على نقرته وكعبيه.

شعرت ناديا بطاقة الجلسة كتيار كهربائيّ، وانضمّت إلى نشيد ورقصةِ الماساي الرُّحّل دون تفكير مدفوعة بعاطفة مجهولة. استغرق العلاجُ عدّةَ ساعاتٍ، امتصّت خلالها الساحرةُ الروحَ المؤذيةَ التي كانت قد سيطرت على الطفل وضمّته إلى جسدها وراحت تبكي، وهو ما فُسّر على أنّه دليل عافية. أخذته أمّه في حضنها، وراحت تهزّ له وتقبّله أمام فرحة الجميع.

بعد قرابة عشرين دقيقة، خرجت الطبيبةُ الشعبية من غيبوبتها، وأعلنت أنّ المريضَ قد تخلّص من كلّ سوء، وصار باستطاعته بدءاً من تلك الليلة أن يأكل بشكلٍ طبيعيّ، بينما على والديه أن يصوما ثلاثةَ أيّام كي يستعطفا الروحَ المطرودةَ. الشيء الوحيد الذي قبلته العجوز غذاءً ومكافأةً كان قرعةً من خليطِ الحليب الحامض والدم الطازج، الذي يحصل عليه رعاةُ الماساي بإحداث جرح صغير في عنق الأبقار. انسحبت بعدها لترتاح قبل أن تقوم بالقسم الثاني من عملها: إخراج الروح التي أصبحت الآن في داخلها وإرسالها إلى الماوراء، إلى مكانها الذي تنتمي إليه. القبيلة الممتنّة ذهبت لتقضي الليلة بعيداً.

ـ إذا كان هذا النظام فعّالاً إلى هذه الدرجة، نستطيع أن نطلب من هذه السيّدة أن تعتني بتيموثي ـ اقترح ألِكساندر.

ـ هذا لا يُعطي مفعوله دون إيمان ـ ردّ موشاحا ـ ثمّ إنّ الطبيبة الشعبية منهكة، وعليها أن تستعيد طاقتها قبل أن تعالج مريضاً آخر.

وهكذا قضى المصوّر الإنكليزي بقيّةَ الليل في سريره يرتعد من الحمّى، بينما الطفلُ الأفريقيُّ يستمتع تحت النجوم بطعامه الأوّل خلال أسبوع.

خضَرَت أنجي نينديرِرا في اليوم التالي إلى السفاري، كما سبق أن وعدت موشاحا خلال اتصاله باللاسلكي. رأوا طائرتها في الجوّ،

وانطلقوا ليأخذوها في سيارة لاندروفر من المكان الذي كانت تهبط فيه دائماً. أرادَ جول غونثالِثْ أن يُرافق صديقه تيموثي إلى المستشفى، لكنّ كات نكّرته بأنّه يتوجّب على أحدٍ ما أن يلتقط الصور لمقال المجلّة.

وبينما هم يعبئون خزّانَ الطائرة بالبنزين ويجهّزون المريضَ ومعداته، جلست أنجي تحت إحدى المظلات لتتمتّعَ بفنجان قهوة وترتاح. كانت أفريقيةً، بشرتها بلون القهوة، صحيحة البدن، طويلة، ممتلئة وضحوكة، ويمكن أن تكون بين الخامسة والعشرين والأربعين من عمرها. ضحكتها السهلة، وجمالها الطازج يأسران منذ اللحظة الأولى. حكت أنّها وُلِدت في بوتسوانا، وتعلّمت قيادةَ الطائرة في كوبا، حيث حصلت على منحة. وقبل موت والدها باع كوخه وقطيعه كي يعطيها مهرها، لكنّها وبدل استخدام رأس المال في الحصول على زوج محترم، كما كان يرغب والدها، استخدمته في شراء طائرتها الأولى. كانت أنجي طائراً حرّاً، بلا عشّ ثابتٍ، وعملها يحملها من مكان إلى آخر، فاليوم تنقل لقاحاتٍ إلى زائير وغداً تنقل ممثّلي وفنّيّ فيلم مغامرات في سهول سيرينغيتي، أو مجموعة متسلقين يصعدون على أقدامهم إلى جبل كلِمنجارو الأسطوري. كانت تتباهى بأنّها تملك قوّة جاموس، ولكي تبرهن على ذلك تراهن على مصارعة أيّ رجل يتجرّأ على قبول التحدّي. وُلدت وعلامة على شكل نجم في ظهرها، وهي العلامة التي تدل، برأيها، على حُسن الحظ. وبفضل هذا النجم استطاعت أن تنجو من مغامراتٍ لا تُحصى. فقد أوشكت ذات مرّة أن تُقتل رمياً بالحجارة في مشادة في السودان؛ وفي مناسبة أخرى بقيت خمسة أيام ضائعةً في صحراء الحبشة، وحيدة على قدميها، بلا طعام ولا شرابٍ غير زجاجة ماء. لكن لا شيء يمكن مقارنته بتلك المناسبة التي اضطرت فيها أن تقفز بالمظلة وتسقط في نهر مليء بالتماسيح.

ـ هذا قبل أن أملك طائرةَ سيزنا كارافان، التي لا تتعطّلُ أبداً ـ

سارعت إلى القول حين روت المغامرةَ إلى زبائنها، من بعثة *الإنترناشيونال جيوغرافيك.*

ـ وكيف نجوت بحياتك؟ ـ سأل ألِكساندر.

ـ تلهّت التماسيحُ بعلكِ نسيج المظلّة، وهذا ما منحني الوقت كي أسبح حتى الضفّة وأخرج راكضةً من هناك. نجوتُ في تلك المرّة، لكن عاجلاً أو آجلاً ستلتهمني التماسيح، فهذا هو قدري...

ـ وكيف تعرفين ذلك؟ ـ استفسرت ناديا.

ـ لأنَ عرّافة تقرأ المستقبل قالته لي. ما بانغِسِهْ مشهورة بأنّها لا تُخطئ أبداً ـ ردّت أنجي.

ـ ما بانغِسِهْ؟ المرأة البدينة، التي تملك محلاً في السوق؟ ـ قاطعها ألِكساندرْ.

ـ نفسها. ليست بدينة، بل مكتنزة ـ أوضحت أنجي، الحساسة بالنسبة إلى موضوع الوزن.

تبادل ألِكساندر وناديا النظر مندهشين من تلك المصادفة الغريبة.

رغم حجمها الضخم ومعاملتها الفظّة قليلاً، كانت أنجي رشيقةً جداً. ترتدي أنثرة مزهرة وتتزين بمجوهراتٍ شعبية ثقيلة تحصل عليها من معارض الصناعات اليدوية، وتطلي شفتيها عادةً بأحمر شفاهٍ ورديّ لافت للنظر. وتختال بتسريحة مكوّنة من عشرات الجدائل المرشوشة بالخرز الملوّن. كانت تقول إنّها كارثة بالنسبة للأعمال اليدوية، وليست مستعدة لأن تسمح ليديها بأن تُصبحا يدي عامل ميكانيكي. كانت أظافرها طويلة ومطلية، ولكي تحمي بشرتها تدهنها بدهن السلحفاة، الذي تعتبره عجائبياً. فمسألة أنَّ جلد السلحفاة مجعد لم يُقلل من ثقتها بالمنتوج.

ـ أعرف عدداً من الرجال العاشقين لأنجي ـ علّق موشاحا، لكنّه امتنع عن توضيح أنّه كان واحداً منهم.

غمزته هي بإحدى عينيها وأوضحت أنّها لن تتزوّج أبداً، لأنّ قلبها ممزّق. فقد عشقت مرّة واحدةً في حياتها: محارباً من الماساي كان عنده خمس زوجات وتسعة عشر ولداً.

ـ كانت عظامه طويلة وعيناه من عنبر ـ قالت أنجي.

ـ وماذا حدث...؟ ـ سألت ناديا وألِكساندر بصوتٍ واحد.

ـ لم يبغِ الزواجَ مني ـ ختمت بزفرةٍ مأساوية.

ـ ما أغباهُ من رجلٍ! ـ ضحك ميشيل موشاحا.

ـ كنتُ أكبر منه بعشر سنوات وأثقل بخمسة عشر كيلو غراماً ـ أوضحت أنجي.

أنهت الطيارةُ قهوتها وجهّزت نفسها للانطلاق. ودّع الأصدقاءُ تيموثي بروس، الذي أضنته حمّى ليلة البارحة إلى حدّ أنّ قواه لم تسعفه في رفع حاجبه الأيسر.

مرّت أيامُ السفاري الأخيرة سريعةً في متعةِ الرحلات على ظهور الفيلة. عادوا ورأوا قبيلة الماساي الرحّل الصغيرة وتحقّقوا من شفاء الصغير. وفي الوقت ذاته علموا باللاسلكي أنّ تيموثي بروس ما يزال في المستشفى، ويُعاني من مزيج من الملاريا والتهاب عضّة القردوح، العصيّة على المضادات الحيوية.

جاءت أنجي نيندِرِرا تبحث عنهم مساء اليوم الثالث، وبقيت لتنام في المعسكر، وتخرج في صباح اليوم التالي باكراً. أقامت منذ اللحظة الأولى صداقة جيّدة مع كاتْ كولد؛ كلاهما كانتا مولعتان بالشرب كثيراً ـ أنجي بالبيرة، وكات بالفودكا ـ وكلاهما تملكان خزّاناً لا ينضب من القصص المرعبة بما يكفي لسحر المستمعين. في تلك الليلة، وبينما المجموعة جالسة حول النار تستمتع بلحم الظبي المشويّ وبعض الطيّبات الأخرى التي أعدّها الطباخون، تشاجرت المرأتان على الكلام، لتبهرا المستمعين بمغامراتهما. حتى

بوروبا كان يصغي إلى قصصهما باهتمام. كان القرد يوزّع وقته بين البشر الذين اعتاد رفقتهم، ومراقبة كوبي واللعب مع عائلة من ثلاثة أفراد من أقزام الشمبانزي، تبناها ميشيل موشاحا.

- إنّها أصغر بعشرين بالمئة من الشمبانزي العادية وأكثر مسالمةً منها - وضّح موشاحا - الأنثى هي التي تأمر بينها. وهذا يعني أن نوعية الحياة عندها أفضل وأكثر تعاوناً وأقل تنافساً. في مجتمعها تأكل وتنام جيداً، والصغار محميّة والمجموعة تعيش في حالة عيد وابتهاج. ليست كالقرود الأخرى يشكّل فيها الذكور عصابات لا عمل لها غير المُشاجرة.

- حبذا لو كان الأمر كذلك بين البشر! - تنهّدت كاث.

- هذه الحيوانات الصغيرة شبيهة بنا: فنحن نشاركها قسماً كبيراً من مادتنا الجينية، بل وحتى جمجمتها شبيهة بجمجمتنا. لا شكّ أنّ بيننا سلف مشترك - قال ميشيل موشاحا.

- إذن هناك أمل بأن نتطوّر مثلها - أضافت كاث.

كانت أنجي تدخّن سيجاراً، وهو، حسب قولها، ترفها الوحيد، وتتباهى برائحة طائرتها النتنة. وعادة ما تقول للزبائن الذين يَشْكون منها: «من لا تُعجبه رائحة التبغ فليذهب سيراً على قدميه». وكانت كات كولد كمدخّنة تائبة تُلاحق بعينين نهمتين حركة يد صديقتها الجديدة. فقد أقلعت عن التدخين منذ أكثر من سنة، لكن الرغبة به لم تختف، وكانت، وهي تراقب رواح وغدوّ سيجار أنجي، تنتابها رغبة بالبُكاء. أخرجت من جيبها غليونها الفارغ، الذي تحمله معها دائماً لمثل تلك اللحظات الحرجة، وراحت تعضّه بحزن. كان عليها أن تعترف أنّ السعال السلّي الذي كان لا يتركها تتنفس قد زال عنها. وكانت تعزو ذلك للشاي بالفودكا وبعض المسحوق الذي أعطاه لها والِيماي، شامان الأمازون وصديق ناديا. بينما عزا حفيدها ألِكساندر المعجزةَ إلى تميمة من روث تنين، أهداها إليه الملك ديل باهادور في المملكة المحرّمة، وكان مقتنعاً بقوّتها

السحرية. لم تكن كاث تعرف ما تفكّر به تجاه حفيدها، العقلاني جدّاً سابقاً والمائل إلى الخيالات الآن. لقد غيّرته صداقته مع ناديا. فقد كانت ثقة ألِكس بتلك المستحاثة كبيرة، إلى حدّ أنّه سحق عدّة غرامات منها وحلّها في كحول الرز، وأجبر أمّه على تناولها كي تُصارع السرطان. وكان على ليزا أن تحمل بقية المستحاثة أشهراً معلقةً إلى عنقها، والآن يحملها ألِكساندر، ولا يخلعها حتى عندما يستحمّ.

ـ يمكنها أن تشفي عظاماً مكسورة وأمراضاً أخرى، يا كاث؛ كما تفيد في حرف السهام والمِدى والطلقات عن مسارها ـ أكّد لها حفيدها.

ـ لو كنتُ مكانك لما وضعتها محلّ اختبار ـ ردّت هي بجفاف، لكنّها اعترفت بالإكراه بأنّه كان يفرك صدرها وظهرها بروث التنين، بينما تتمتم في داخلها بأنّهما معاً فقدا صوابهما.

أسفت كات والبقيةُ، في تلك الليلة وهم يجلسون حول موقد المعسكر، أنّ عليهم أن يودّعوا أصدقاءهم الجدد وتلك الجنّة، التي قضوا فيها أسبوعاً لا يُنسى.

ـ جيّد أن نذهب، أريد أن أرى تيموثي ـ قال جول غونثالث كي يواسي نفسه.

ـ سننطلق غداً قرابة الساعة التاسعة ـ أعلمته أنجي، دافقة نصف ليترٍ من البيرة في حنجرتها وماجّةً سيجارها.

ـ تبدين منهكة، يا أنجي ـ أشار موشاحا.

ـ الأيام الأخيرة كانت ثقيلة. اضطررت أن أنقل مواد غذائية إلى الجانب الآخر من الحدود، حيث الناس في قنوط؛ مرعب أن يواجه المرء الجوعَ وجهاً لوجه ـ قالت.

ـ هذه القبيلة من سلالةٍ نبيلة جدّاً. كانوا يعيشون في السابق

بكرامة على الصيد المائي والبريّ وما يزرعونه، لكن الاستعمار الاستيطاني والحروب، والأمراض حصرتهم في البؤس. وهم الآن يعيشون على الإحسان. ولولا هذه الصناديق من الطعام التي يتلقونها لماتوا جميعاً. نصف سكان أفريقيا يعيشون تحت خط الفقر الأدنى ـ وضّح ميشيل موشاحا.

ـ ماذا يعني هذا؟ ـ سألت ناديا.

ـ أي ليس عندهم ما يكفي للعيش.

بهذا التأكيد وضع الدليلُ نهايةً لأحاديث المائدة، التي استمرّت إلى ما بعد منتصف الليل، وأعلن أنّ الساعة حانت للانسحاب إلى الخيام. بعد ساعة كان السلام يخيّم على المعسكر.

في الليل لم يبقَ غير مستخدَمٍ واحد يحرسُ ويُذكي النار، لكنّ النعاس غلبه هو أيضاً بعد برهة. وبينما هم يرتاحون في المعسكر كانت المنطقة من حولهم تعجّ بالحياة. فتَحْتَ السماء العظيمة المرصعة بالنجوم تدور مئات الأنواع من الحيوانات التي تخرج في مثل تلك الساعة للبحث عن الغذاء والماء. كان الليل الأفريقيّ جوقةً حقيقيةً من الأصوات المتنوعة: زمجرة فيلة عابرة، عواءات ضباع بعيدة، زعيق قردوحات مرعوبة من فهد، نقيق ضفادع وصداح جداجد.

استيقظت كاث قبلَ الفجر بقليل مذعورةً، لأنّها ظنّت أنّها سمعت جلبةً قريبة منها. «لا بدّ أنّني حلمت» تمتمت، منقلبة نصف قلبة في سريرها. حاولت أن تقدّر كم نامت. كانت عظامها تُطقطق وعضلاتها تتشنّج وتؤلمها. كانت سنواتها السبع والستون التي عاشتها على غاربها تُثقل عليها، وهيكلها العظمي سحقته الرحلات. «صرت عجوزاً جدّاً بالنسبة إلى مثل هذا الأسلوب من الحياة...» فكّرت الكاتبة، لكنّها سرعان ما صحّحت مقتنعة بأنّ الحياة بأية طريقة أخرى ليس لها طعم. كانت تعاني من عدم التحرّك ليلاً أكثر

مما من التعب نهاراً؛ فالساعات ضمن الخيمة تُثْقِلُ عليها ببطئها الخانق. في هذه اللحظة عادت وأحسّت بالجلبة التي أيقظتها. لم تستطع أن تحدِّد ماهيتها؛ لكنّها بدت لها خدشاً وتمزيقاً.

انجلت آخر بقايا النعاس عن كات واستوت في سريرها الفردي جافةَ الحنجرة مضطربةَ القلب. لم يكن هناك من شكٍّ: يوجد هناك شيء ما، قريب جدّاً، لا يكاد يفصله قماشُ الخيمةِ عنها. وبحذرٍ شديد بحثت متلمِّسَةً في الظلمة عن المصباح الكهربائي، الذي كانت تبقيه دائماً قريباً منها. وحين أصبح بين أصابعها انتبهت إلى أنّها تتصبّب عرقاً من الخوف ولم تستطع أن تشعله بيديها الرطبتين. أوشكت أن تحاول ذلك ثانيةً حين سمعت صوت ناديا، التي تشاطرها الخيمة.

ـ هس، كات، لا تشعلي الضوء... ـ همست الصغيرة.

ـ ماذا هناك؟

ـ إنّها أسود، لا تُخيفيها ـ قالت ناديا.

سقط المصباح من يد الكاتبة. شعرت بعظامها تلين مثل حلوى وبصرخة من أعماقها بقيت محصورةً في فمها. خدشة واحدة من مخالب أسدٍ ستمزّق قماش نايلون الخيمة الرقيق، وينقضّ عليهما. ولن تكون المرّة الأولى التي يموت فيها سائح في سفاري. فخلال الرحلات شاهدت أسوداً كانت من القرب بحيث استطاعت أن تعدّ أسنانَها. قرّرت أنها لا تحب أن تُجرّب ذلك في لحمها. وكلمح البصر مرّت في ذهنها صورةُ المسيحيين الأوائل المحكوم عليهم بالموت ملتهَمين من الضوراي في الحلبة الرومانية. راح العرق يتصبّب من وجهها بينما هي تبحث عن المصباح على الأرض، وقد احتبلت بشبك النوم الذي يحمي السرير. سمعت هرَّ قطّ كبير وضربات مخالب جديدة.

اهتزّت الخيمةُ هذه المرّة كما لو أنّ شجرة سقطت فوقها. انتبهت كات مذعورةً إلى أنّ ناديا تُصدر بدورها صوت هرٍّ. عثرت

أخيراً على المصباح وتمكّنت أصابعها المرتعشة والمبلّلة من إشعاله. عندئذٍ رأت الفتاةَ مقرفصةً ووجهها قريب جدّاً من قماش الخيمة، مسحورة في تبادل الهرّ مع الضاري الموجود على الجانب الآخر. صرخة كات الحبيسة خرجت متحولة إلى صيحة رهيبة أخذت ناديا على حين غرّة ورمتها على ظهرها. أخذت مخالب كات الشابّةَ من ذراعها وبدأت تشدّها. صرخات جديدة يرافقها هذه المرّة زئير أسود قطعت سكينةَ المعسكر.

وخلال دقائق قليلة أصبح مستخدمو وزوّار المحمية في الخارج، رغم التعليمات الدقيقة لميشيل موشاحا، الذي حذّرهم ألفَ مرّة من مخاطر الخروج من الخيام ليلاً. وتمكّنت كات من إخراج ناديا شدّاً، بينما الصغيرة تخبط بساقيها محاولةً التخلّصَ منها. سقط نصف الخيمة في العراك وانهارت إحدى الناموسيات، وسقطت فوقهما ولفّتهما. بدتا دودتين تعاركان للخروج من الشرنقة. هرع ألِكساندر، الذي كان أوّل من خرج، إليهما وحاول أن يخلصهما من الناموسية. وما إنّ تحرّرتا حتى دفعته ناديا بطريقة غاضبة لأنّهم قطعوا عليها بطريقة وحشية حديثها مع الأسود.

وهنا أطلق ميشيل موشاحا النارَ في الهواء فابتعد زئير الضواري. أشعل المستخدمون بعضَ المصابيح وأخذوا أسلحتهم وانطلقوا يفتشون المحيط. في هذه الأثناء اضطربت الفيلةُ وحاول المروّضون تهدئتها قبل أن تخرج مُجْفَلةً من الزرائب وتهاجم المعسكر. وراحت الشمبانزيات الصغيرة الثلاثة، التي أرعبتها رائحةُ الأسودُ، تزعق وتتعلّق بأول ما يقترب منها؛ بينما اعتلى بوروبا رأسَ ألِكساندر، الذي عبثاً راح يحاول أن يُزيحه عنه وهو يشدّه من ذيله. في تلك المعمعة لم يكن هناك من يعرف ما الذي حدث.

خرج جول غونثالث يصرخ مشتاطاً غيظاً.

ـ أفعى! صلّ!

ـ أسود ـ صحّحت له كات.

توقّف جول متجمّداً، مشوّشاً.

ـ أليست أفاعٍ؟ ـ تردّد.

ـ لا، بل أسود.

ـ ولهذا أيقظتموني؟ ـ تمتم المصوّر!

ـ بالله عليك، غطّ عورتك، يا رجل! ـ سخرت أنجي نيئدِررا التي ظهرت في بيجامتها.

وما إن عرف جول غونثالث أنّه عارٍ تماماً حتى انسحب إلى الخيمة مغطياً عورته بكلتا يديه.

عاد ميشيل موشاحا بعد قليل يحمل خبرَ أنّ هناك آثار عدّة أسود حولهم وأنّ خيمة كاث وناديا ممزّقة.

ـ هذه أوّل مرّة يحدث فيها مثل هذا في المعسكر. لم تهاجمنا هذه الحيوانات قط ـ علّق مشغولاً.

ـ لم تهاجمنا ـ قاطعته ناديا.

ـ هاهَا! إذن كانت زيارة مجاملة ـ قالت كاث، منزعجة.

ـ جاءت لتسلّم! لو أنك لم تبدئي بالصراخ، يا كات، لكنّا ما زلنا نتحادث!

دارت ناديا نصف دورة ولاذت بخيمتها، التي اضطرت أن تدخلها زحفاً، لأنّه لم يبق منها شيء منتصباً غير زاويتين.

ـ لا تولِها أهمية، إنّه سن المراهقة. شيء وينقضي، الجميع يشفون من هذا ـ أبدى جول غونثالث، الذي عاد وظهر ملفعاً بمنشفة.

استمر البقية يُعلّقون ولم يعد أحد منهم إلى النوم. أحيوا النيران وأبقوا على المصابيح مشتعلة. بوروبا والشمبانزيات القزمة الثلاث، التي كانت ما تزال ميتةً من الرعب أقامت أبعد ما تستطيع عن خيمة ناديا، التي بقيت رائحة الضواري فيها. بعد قليل سُمع خفق أجنحة

خفاش يعلن بزوغَ الفجر، وبدأ الطباخون يصفّون القهوة ويحضّرون البيض بدهن الخنزير للإفطار.

- لم أركِ قط بمثل هذه العصبية. إنكِ تترهلين مع تقدّمك في العمر، يا جدّتي - قال ألِكساندر، وهو يقدّم فنجان القهوة الأوّل لكات.

- لا تنادِني جدّتي، يا ألِكساندر.

- وأنت لا تناديني ألِكساندر، فاسمي جغوار، على الأقل بالنسبة إلى أسرتي وأصدقائي.

- صهٍ، اتركني بسلام، يا خُشري! - ردّت هي، وقد أحرقت شفتيها بأوّل رشفة من المشروب الساخنِ كريهِ الطعم.

3

المبشّر

حمّل مستخدمو السفاري المُعدات في اللاندروفر ورافقوا الغرباء إلى طائرة أنجي في منطقة مكشوفة، على بعد كيلومتراتٍ قليلة من المعسكر. كان ذلك بالنسبة إلى الزوّار المشوار الأخير على متون الفيلة. كوبي المختال، الذي امتطتْه ناديا خلال ذلك الأسبوع، شعر بالفراق وبدا، مثلَ مجموعة *الإنترناشيونال جيوغرافيك*، حزيناً. كذلك كان حال بوروبا، لأنّه خلّف وراءه الشمبانزيات الثلاثة، التي أقام معها صداقة رائعة. لا شكّ كانت المرّة الأولى التي يعترف فيها بوجود قرود تكاد تكون بذكائه.

كانت سنوات الاستخدام وأميال الطيران ظاهرة على *سيزنا كارافان*. تعلن لافتة على جانبها اسمها المتعجرف: الصقر الخارق. وقد رسمت أنجي لها رأسَ وعيني ومنقارَ ومخالبَ طائرٍ جارح، لكنّ الطلاء تقشّر مع الزمن والآلة بدت تحت انعكاسات نور الصباح أقربَ إلى دجاجة مثيرة للشفقة، منتوفةِ الريش. ارتعش المسافرون أمام فكرة أن يستخدموها كواسطة نقل، باستثناء ناديا، لأنّ صقرَ أنجي الخارق بدا رائعاً بالمقارنة مع الطائرة التي كان يتنقّل فيها أبوها في منطقة الأمازون. عصابة القردوحات سيّئةِ التربية التي شربت فودكا كات ترتع على جناحيه. كانت القردة تتسلى، يقتل بعضُها براغيثَ بعض بعناية كبيرة، كما تفعل الكائنات البشرية

عادةً. وقد رأت كات في أماكن كثيرة من العالم طقسَ تفلية البراغيث اللطيف، الذي يجمع العائلةَ ويخلق رابطة بين الأصدقاء. كان الصغار يصطف الواحدُ منها خلف الآخر، الأصغر فالأكبر، كي ينكش الواحد في رأس الآخر. ابتسمت وهي تفكّر أن مجرّدَ كلمة «برغوث» في الولايات المتحدة تُحدِثُ قشعريرة رعب. بدأت أنجي ترشقُ القردوحاتِ بالحجارة والشتائم، فردّت عليها هذه بازدراء أولمبي ولم تتحرّك حتى أصبحت الفيلة عملياً فوقها.

سلّم ميشيل موشاحا أنجي حقنةً مخدّر للحيوانات.

ـ إنّها آخر ما تبقى عندي. هل تستطيعين أن تأتيني بصندوق منها في رحلتك القادمة؟ ـ طلب منها.

ـ طبعاً أستطيع.

ـ خذيها معك كعيّنة، لأنّ هناك ماركات عدّة مختلفة، ويمكن أن تخلطي بينها. هذه هي التي أحتاجها.

ـ حسن ـ قالت أنجي وهي تُخبّئ الحقنة في خزانة الإسعاف بالطائرة، حيث ستكون في أمان.

كانوا قد انتهوا من وضع المعدات في الطائرة حين ظهر من بين بعض الشجيرات القريبة رجل لم يره أحد حتى تلك اللحظة. كان يرتدي بنطلونَ جينز وقميصاً قطنياً بالياً وينتعل جزمةً مستهلكة تصل حتى وسط ساقه. ويعتمرُ قبّعة قماشية وعلى ظهره حقيبة ظهر يتدلى منها قِدر مسودّ وسكين. كان قصير القامة، نحيلاً، هزيلاً، أصلعَ، على عينيه نظارة سميكة العدسات، شاحب البشرةِ، أسودَ ورقيقَ الحاجبين.

ـ صباح الخير، أيّها السادة ـ قال بالإسبانية وترجم التحيّةَ على الفور إلى الإنكليزية ـ أنا الراهب فِرناندو، مبشّر كاثوليكي ـ قدّم نفسه، مصافحاً ميشيل موشاحا أوّلاً ثمّ البقية.

ـ كيف وصلتَ إلى هنا؟ ـ سأل هذا.

ـ بمساعدة بعض سائقي الشاحنات، وقاطعاً قسماً لا بأس به من الطريق سيراً على القدمين.

ـ سيراً على القدمين؟ من أين؟ لا توجد قرى في دائرة قطرها أميال كثيرة!

ـ الطرق طويلة، لكنّها جميعاً تقود إلى الربّ ـ ردّ الآخر.

وضّح أنّه إسباني، مولود في غاليثيا، إلا أنّه منذ سنوات طويلة لم يزر وطنه. لم يكد يتخرّج من المدرسة الدينية حتى أرسلوه إلى أفريقيا، حيث قام بواجبه في البعثة طوال أكثر من ثلاثين سنة. آخر جهة خدم فيها كانت قرية من قرى رواندا، هناك عمل في بعثة تبشيرية صغيرة مع أخوة آخرين وثلاث راهبات. كانت منطقة محققتها أشرس حرب شهدتها القارّة: لاجئون لا يحصى عددهم كانوا يمضون من جانب إلى آخر هرباً من العنف، الذي كان يُدركهم دائماً؛ كانت الأرض مغطاة بالرماد والدم، لم يُزرع فيها شيء لسنوات طويلة، من كان ينجو من الرصاص والسكاكين يسقط صريع الجوع والأمراض؛ وفي الطرق الجهنّمية تتيه آرامل وأيتام جياع، كثيرون منهم جرحى أو فاقدون لبعض أطرافهم.

ـ الموت في حالة عيد في هذه المنطقة ـ ختم المبشّر.

ـ أنا رأيته أيضاً. مات أكثر من مليون شخص، والمجزرة مستمرّة وبقية العالم لا يعنيها الأمر كثيراً ـ أضافت أنجي.

ـ هنا في أفريقيا بدأت الحياة الإنسانية. جميعنا نتحدر من آدم وحواء، اللذين، حسب قول العلماء، كانا أفريقيين. هذه هي الجنّة الأرضية التي يذكرها الكتاب المقدّس. أراد الله أن تكون هذه جنّة تعيش فيها مخلوقاته بسلام ووفرة، لكن انظروا إلى ما حوّلتها الكراهية والحماقة البشرية... ـ أضاف المبشّر بنبرة واعظة.

ـ هل خرجت أنت هرباً من الحرب؟ ـ سألت كات.

ـ تلقيت أنا وأخوتي أمراً بإخلاء البعثة حين أحرق المتمرّدون

المدرسة، لكنّني لست واحداً من اللاجئين. الحقيقة أنّ أمامي مهمّة، عليّ أن أعثر على مُبَشِّرَين اختفيا.

ـ في رواندا؟ ـ سأل موشاحا.

ـ لا. إنّهما في قرية تُدعى نجُوبي. انظروا هنا...

فتح الرجلُ خريطةً ونشرها على الأرض كي يشير إلى النقطة التي اختفى فيها رفيقاه. اجتمع البقيّةُ حوله.

ـ هذه أعصى منطقة وأكثرها حرارة ووحشة في أفريقيا الاستوائية. فالحضارة لا تصل إلى هنا. لا توجد وسائل نقل غير زوارق الجذوع النهرية، ولا توجد هواتف أو لاسلكي ـ وضّح المُبَشِّرُ.

ـ كيف تتصلون بالمبشرين؟ ـ سأل أَلِكساندر.

ـ تستغرق الرسائل أشهراً كي تصل، لكنّهم يتدبّرون أمرهم كي يرسلوا إلينا الأخبار بين الحين والآخر. المنطقة يتحكّم بها شخص يُدعى موريس مْبِمْبِله، وهو مختلُ العقل، مجنون، شخص بهيمي، وأكثر من ذلك فهو متهم بأكل لحوم البشر. منذ عدّة أشهر ونحن لا نعرف شيئاً عن أخوينا. إنّنا مشغولون جدّاً عليهما.

راقب أَلِكساندر الخريطةَ التي كان الراهب فِرناندو ما يزال ينشرها على الأرض. لم يكن بمقدور تلك الورقة أن تُعطي أدنى فكرة عن اتساع القارة، ببلدانها الخمسة والأربعين وسكانها بملايينهم الستمئة. تعلّم خلال ذلك الأسبوع من السفاري من ميشيل موشاحا كثيراً، لكنّه كان يشعر بنفسه ضائعاً أمام تعقيدات أفريقيا، بمعتقداتها وأعراقها ولغاتها، بمختلف طقوسها ومناظرها وثقافاتها ومعتقداتها وأعراقها. المكان الذي كان يُشير إليه إصبعُ المبشّر لم يكن يعني بالنسبة إليه شيئاً، ولم يفهم غير أنّ نجوبي بقيت في بلد آخر.

ـ أنا بحاجة للوصول إلى هناك.

ـ كيف؟ ـ سألت أنجي.

ـ لا بدّ أنكِ أنجي نيندِرِرا، مالكة هذه الطائرة؟ أليس كذلك. سمعتهم يتكلّمون عنك كثيراً. قالوا لي إنك قادرة على الطيران إلى أيّ مكان...

ـ أيّ! إيّاكَ أن يخطر لكَ الطلب منّي بنقلك يا رجل! ـ هتفت أنجي رافعة كلتا يديها في وضعية دفاعية.

ـ ولماذا لا؟ الأمر يتعلّق بشيء مستعجل.

ـ لأنّ المكان الذي تريد الذهاب إليه منطقة غابات مستنقعية، لا يمكن الهبوط فيها. ولأنّه لا يمكن لأحد يملك جبيناً بعرض إصبعين أن يسير في تلك المناطق. ولأنّني متعاقدة مع مجلّة *الإنترناشيونال جيوغرافيك* لنقل هؤلاء الصحافيين سالمين معافين إلى العاصمة. وعليّ أن أعمل أشياء أخرى. وأخيراً لأنّني أرى أنك لا تستطيع أن تدفع لي أجرة الرحلة ـ ردّت أنجي.

ـ لا شكّ سيدفعها الربّ لك ـ قال المبشّر.

ـ اسمع، أعتقد أنّ ربك عنده الكثير مما عليه أن يدفعه.

وبينما كانا يتناقشان، أخذ ألِكساندر جدّته من ذراعها ومضى بها جانباً.

ـ علينا أن نساعِد هذا الرجل، يا كات ـ قال.

ـ ما الذي تُفكّر به؟ يا ألِكس، أعني، يا جغوار؟

ـ نستطيع أن نطلب من أنجي أن تقلّنا إلى نجوبي.

ـ ومن سيتحمّل النفقات؟ ـ تعلّلت كات.

ـ المجلّة، يا كات. تصوّري التحقيق الهائل الذي تستطيعين كتابته، إذا ما عثرنا على المبشّرَيْن الضائعين.

ـ وماذا لو لم نعثر عليهما؟

ـ هذا خبر أيضاً. ألا ترين ذلك؟

ـ عليّ أن أبحث الأمر مع جول ـ ردّت كات، التي بدأ نور الفضول يبرق في عينيها، وقد التقطه حفيدها على الفور.

لم تبدُ الفكرة سيئة بالنسبة إلى جول غونثالث، ما دام لايستطيع العودة إلى لندن، حيث يعيش، لأنّ تيموثي بروس ما يزال في المستشفى.

ـ هل هناك أفاع في تلك المناطق، يا كات؟

ـ أكثر من أيّة منطقة أخرى في العالم، يا جول.

ـ لكن هناك غوريلات أيضاً؟ ربّما استطعت تصويرها عن قرب. ستكون غلافاً رائعاً *للإنترناشيونال* جيوغرافيك... ـ أغراه ألِكساندر.

ـ حسناً، في هذه الحال سأذهب معكم ـ قرّر جول.

أقنعوا أنجي برزمة من الأوراق النقدية التي وضعتها كات أمام وجهها، عارفة أن الرحلة ستكون صعبة، هذا التحدّي الذي لاتستطيع الطيارة مقاومته. أخذت النقود بضربة مخلب، وأشعلت سيجارة اليوم الأولى وأمرت بوضع المعدات في الكابين بينما تتفقّد هي المستويات وتتأكّد من أن الصقر الخارق يعمل جيّداً.

ـ هل هذه الآلية آمنة؟ ـ سأل جول غونثالث الذي كان أسوأ ما يعاني منه في عمله هو الزواحف ثم الرحلات في الطائرات الصغيرة.

وكجواب وحيد قذفته أنجي بلعاب تبغها على قدميه. لكزه ألِكس لكزة تواطؤ: فهو أيضاً لم تكن تبدو له تلك الوسيلة في النقل آمنة، خاصة إذا ما أخذ بالاعتبار أنّ من يقودها امرأة غريبة الأطوار، تحمل عند قدميها صندوق بيرة وسيجاراً مشتعلاً بين أسنانها على مسافة قليلة من براميل البنزين الاحتياطية.

بعد عشرين دقيقة كانت السيزنا محمّلة والركاب في أماكنهم. لم يكن الجميع يملكون مقاعد، فألكس وناديا تدبرا أمرهما في

المؤخرة على الأكياس، وما من أحد يملك حزام أمان، لأنّ أنجي كانت تعتبرها احتياطاً غير مجدٍ؟

ـ الشيء الوحيد الذي تفيد فيه الأحزمة، عندما يقع حادث، هو أن لا تتشظّى الجثث ـ قالت.

أدارت المرأة المحرّكات، وابتسمت بالرقة الهائلة التي يحدثها عندها دائماً هذا الصوت. اهتزّت الطائرة مثل كلب مبلّل، عطست قليلاً، ثمّ بدأت بالتحرّك على المدرّج المرتجل. أطلقت أنجي صرخة انتصار هنديّ أحمر حين ارتفعت العجلات عن الأرض وبدأ صقرها المحبوب بالارتفاع.

ـ باسم الله ـ تمتم المُبشّر، راسماً شارة الصليب وقلّده جول غونثالث.

قدّم المنظر من الجو عيّنة صغيرة عن تنوّع وجمال المشهد الأفريقيّ. خلّفوا وراءهم المحميّةَ الطبيعيةَ، حيث قضوا الأسبوع، وسهولاً فسيحة حارّة وضاربة للحمرة تتخلّلها أشجار وحيوانات بريّة. طاروا فوق صحارى جافّة، غاباتٍ، جبالٍ وبحيرات وأنهار وقرى تفصل بينها مسافات كبيرة. وكلّما راحوا يتقدّمون باتجاه الأفق، كانوا يتراجعون في الزمن.

كان ضجيج المحرّكات عائقاً جدّياً أمام الحديث، لكن ألِكساندر ونادِيا أصرّا على الكلام بصوت عال. وكان الراهب فِرناندو يردّ على أسئلتهم التي لا تنقطع بالنبرة ذاتها. قال إنّهم يتجهون إلى منطقة قريبة من خط الاستواء. بعض المستكشفين النبهاء في القرن التاسع عشر والمستعمرون الفرنسيون والبلجيكيون في القرن العشرين توغّلوا فترةً قصيرةً في ذلك الجحيم الأخضر، لكنّ نسبة الموتى كانت عالية ـ ثمانية من كلّ عشرة رجال كانوا يقضون نحبهم بالحمى الاستوائية والجرائم والحوادث ـ مما اضطرّهم إلى التراجع. بعد الاستقلال وعندما انسحب

المستعمرون الأجانب من البلد مدّت حكوماتٌ متعاقبة مجساتها إلى أقصى القرى. أشادت بعض الطرق، أرسلت جنوداً، معلمين وأطباء وبيروقراطيين، لكنّ الأدغال والأمراض الرهيبة كانت توقف الحضارة. المُبشّرون المصرّون على نشر المسيحية بأيّ ثمن، هم الوحيدون الذين استمرّوا في إصرارهم على نشر جذورهم في تلك المنطقة الجهنّمية.

ـ هناك أقلّ من شخص في الكيلومتر المربّع الواحد، والسكان يتركّزون قرب الأنهار، ما تبقى مهجور ـ وضّح الراهب فِرناندو ـ ما من أحد يدخل المستنقعات. السكان الأصليون يؤكّدون أنّ الأرواح تعيش هناك وأنّه ما تزال توجد ديناصورات.

ـ يبدو مذهلاً! ـ قال ألِكساندر.

كان وصف المبشّر يشبه أفريقيا الأسطورية التي جسدها بصرياً حين أعلنت له جدّته عن الرحلة. وقد أصيب بخيبة حين وصل إلى نيروبي ووجد نفسه في مدينة حديثة ذات أبنية عالية وحركة مرور صاخبة وأقرب ما رآه ويشبه المحارِب كان قبيلة الماساي الرحُل التي وصلت مع الطفل المريض إلى معسكر موشاحا. حتى فيلة السفاري بدت له وديعة أكثر من اللازم وحين قال ذلك لناديا هزّت كتفيها دون أن تفهم لماذا شعر بالخيبة من انطباعه الأوّل عن أفريقيا. هي لم تنتظر شيئاً بعينه. ختم ألِكساندر قائلاً لو أنّ أفريقيا كانت مسكونة من قِبَل سكان الفضاء، لرأت ناديا ذلك طبيعياً جدّاً، لأنّها لا تستبق شيئاً. ربّما الآن، وفي المكان المعلّم على خريطة الراهب فِرناندو سيجد الأرض السحرية التي تخيّلها.

بعد ساعاتٍ من الطيران دون عوائق، غير التعب والعطش ودوخة الركاب، بدأت أنجي تهبط بين غيوم رقيقة. أشارت الطيارةُ إلى أرض من الخضرة لا نهاية لها في الأسفل، حيث يمكن أن يُمَيِّز

فيها خطُّ نهرٍ باهت. لم يكن يُلمح أيّ شيء يدل على الحياة البشرية، لكنّهم كانوا ما يزالون على ارتفاع عالٍ أكثر من اللازم كي يروا القرى في حال وجودها.

ـ إنها هناك، أنا واثق! ـ صرخ الراهب فِرناندو فجأة.

ـ حذّرتك، يا رجل، لا يوجد هناك مكان يمكن الهبوط فيه! ـ أجابته أنجي صارخة بدورها.

ـ اهبطي إلى الأرض، يا آنسة، والله المدبِّر ـ أكّد المُبشِّرُ.

ـ من الأفضل له أن يكون كذلك، لأنّ علينا أن نعبّئ بنزيناً!

بدأ *الصقر الخارق* يهبط راسماً دوائر كبيرة. وكلّما اقترب من الأرض كلّما تبيّن للركاب أنّ النهرَ أعرضُ مما يظهر عليه من الأعلى. وضّحت أنجي نينديرِرا أنّ باستطاعتهم أن يجدوا قرى في الجنوب، لكن الراهب فِرناندو أصرّ أنّ عليها أن تنحرف أكثر إلى الشمال الغربي، إلى المنطقة التي أقام رفيقاه فيها بعثتهما. حامت الطائرة عدّة مراتٍ وهي في كلّ مرّة أكثر قرباً من الأرض.

ـ نحن نهدر القليل من البنزين المتبقي لدينا! سأذهب نحو الجنوب ـ قرّرت أخيراً.

ـ هناك، يا أنجي! ـ أشارت كات فجاةً.

على جانبٍ من النهر ظهرت، كما لو بفعل السحر، قطعةُ من الشاطئ عارية.

ـ المدرج ضيق وقصير جداً، يا أنجي ـ حذّرتها كات.

ـ لا أحتاج إلاّ لمئتي متر، لكنّني أظنّ أننا لا نملكها ـ ردّت أنجي.

دارت دورةً على ارتفاع منخفض كي تقيس الشاطئ بالعين المجردة وتبحث عن أفضل زاوية للمناورة.

ـ لن تكون المرّة الأولى التي أهبط فيها في أقل من مئتي متر.

تمسّكوا جيّداً، أيّها الفتية، فسوف نخبُ! ـ أعلنت بصرخة أخرى من صرخات حربها.

كانت أنجي نيندِرِرا حتى تلك اللحظة قد قادت الطائرة مرتاحةً جدّاً، وبين ساقيها قنينة بيرة وفي يدها سيجار. الآن تبدّل موقفها، أطفأت السيجار في المنفضة المثبتة بورقٍ لاصق على الأرض، سوّت من وضع جسمها البشري الضخم في المقعد، وأمسكت بالمقود بيديها الاثنتين واستعدت لاتخاذ الوضعية، دون أن تنقطع عن اللعنات والعواء مثل هندي أحمر، مستدعية الحظّ السعيد الذي لم يخيّبها قط، فلهذا السبب هي تحمل وثنها في عنقها. ردّدت كات كلام كولد أنجي صارخة بأعلى صوتها، لأنّه لم تخطر لها طريقة أخرى كي تُخَفِّف من توتر أعصابها. أغمضت ناديا سانتوس عينيها وفكّرت بوالدها. فتح ألِكساندر عينيه جيّداً مستحضراً صديقه، اللاما تِنسينغ، الذي يمكن لقدرته العقلية أن تفيده جدّاً في تلك اللحظات، لكنّ تِنسينغ كان بعيداً جدّاً. وراح الراهب فِرناندو يصلّي بالإسبانية بصوت عالٍ يرافقه جول غونثالث. خلف الشاطئ كانت ترتفع نباتات الغابات العصيّة مثل سور الصين. لم يكن أمامهم إلاّ فرصة واحدة للهبوط. فإذا فشلوا لن يكون هناك مساحة كافية كي تعود وترتفع وستتحطّم على الأشجار.

هبط *الصقر الخارق* بقسوة ولامس بطنه الأغصان الأولى وما أن أصبح فوق المهبط المرتجل حتى بحثت أنجي عن الأرض متوسلة أن تكون أرضاً صلبة، لا يوجد فيها صخور. سقطت الطائرة جانحة مثل طائر جريح، بينما الفوضى تسود داخلها: راحت الأمتعةُ تقفز من جانب إلى آخر، والركابُ يرتطمون بالسقف، والبيرةُ تتدحرجُ وبراميلُ البنزين تتراقصُ، وأنجي المتشبثة بأدوات التحكّم تشدّ على الكوابح بقوة محاولة أن توقف الآليةَ، كي تتفادى تحطّم الأجنحة. كانت المحرّكات تجأر بقنوط ورائحة مطاط محروق تغزو غرفة القيادة. راحت الآلية ترتعش في محاولتها الوقوف، قاطعةً الأمتار الأخيرة في سحابة من الرمل والدخان.

ـ الأشجار! ـ صرخت كات حين كادوا يصبحون فوقها ـ لم تعلّق أنجي على ملاحظة زبونتها المجانية: فهي أيضاً كانت تراها. شعرت بذلك المزيج من الرعب المطلق والذهول الذي كان يغمرها حين تقامر بحياتها، وبشحنة من الأدرينالين التي تجعلها تشعر بتنميل جلدها وتسرّع قلبها. ذلك الخوف السعيد كان أفضل ما في عملها. انشدّت عضلاتها في جهدها الفظيع لإيقاف الآلية: فقد كانت تصارع الطائرة ملتحمة بها، مثل مصارع يجالد ثوراً شرساً. فجأة وحين أصبحت الأشجار على ارتفاع مترين والعصافير ظنّت أن ساعتها الأخيرة قد أزِفت، مضى *الصقر الخارق* إلى الأمام، اهتزّ اهتزازاً رهيباً وغاص منقارُه في الأرض.

ـ اللعنة ـ صاحت أنجي.

ـ لا تتكلّمي بهذه الطريقة، يا امرأة ـ قال الراهب فِرناندو بصوت مرتجف من أعماق المقصورة، حيث كان يرفس برجليه مطموراً تحت كامِيرات التصوير ـ ألا ترين أنّ الله قد زوّدنا بمدرج للهبوط؟

ـ قل له أن يرسل إلي ميكانيكياً أيضاً، لأنّ عندنا مشاكل! ـ زمجرت أنجي ملتفتة.

ـ علينا ألا نفقد صوابنا. قبل أيّ شيء علينا أن نتفحّص الأضرار ـ أمرت كات كولد مستعدّةً للهبوط، بينما البقيّة يتجرجرون زاحفين نحو المخرج. أوّل من قفز إلى الخارج كان بوروبا، الذي نادراً ما ذعر في حياته مثل تلك المرّة. رأى ألِكساندر أنّ وجه ناديا مغطّى بالدم.

ـ يا نسر! ـ هتف محاولاً أن يُخلّصها من بين الأمتعة والكاميرات والمقاعد المقتلعة من الأرضية المختلطة بعضها ببعض.

حين أصبحوا في الخارج واستطاعوا أن يُقدّروا أخيراً الوضع، تبيّنوا أنّه ما من أحدٍ كان جريحاً. أما بالنسبة إلى ناديا فقد أصابها رعاف. بالمقابل أُصيبت الطائرة بأضرار.

ـ تماماً كما كنتُ أخشى، لقد التوت المروحة ـ قالت أنجي.

ـ هل الأمر خطير؟ ـ سأل ألِكساندر.

ـ في الحالات العادية ليس خطيراً. إذا حصلت على مروحة أخرى، أستطيع أن أبدّلها بنفسي. لكن الحالة هنا ورطة. من أين سآتي ببديل؟

وقبل أن يتمكّن الراهب فِرناندو من أن يفتح فمَهُ واجهته أنجي، واضعة يديها على خصرها وهازة إيّاه.

ـ لا تقل لي إنّ ربّك سوف يتدبّر الأمر ما لم تكن تُريدني أن أغضب فعلاً.

لزم المُبشّر صمتاً حكيماً.

ـ أين نحن بالضبط؟ ـ سألت كات.

ـ ليس عندي أدنى فكرة ـ اعترفت أنجي.

راجع الأخ فِرناندو خريطته وخلص إلى أنّهم بالتاكيد ليسوا بعيدين عن نجوبي، القرية التي أقام فيها رفيقاه بعثتَهُما.

ـ نحن محاطون بالأدغال الأستوائية والمستنقعات وما من طريقة للخروج من هنا دون زورق ـ قالت أنجي.

ـ لنشعل النار إذاً. فكأس من الشاي وجرعة من الفودكا، لن يَضرّانا ـ اقترحت كات.

4

معزولون في الأدغال

عند حلول الليل قرّر رجالُ البعثة التخييم قرب الأشجار، حيث سيكونون أكثر حماية.

- هل يوجد أفاعي أصَلة في هذه المناطق؟ - سأل جول غونثالث، وهو يُفكّر في العناق القاتل للأناكوندا في الأمازون.

- أفاعي الأصَلة ليست مشكلة، لأنّها تُرى من بعيد، ويمكن قتلها بالرصاص. أسوأ منها هي أفاعي الغابون وأفعى الغابة. سمّهما يقتل خلال دقائق - قالت أنجي.

- وهل لدينا ترياق؟

- بالنسبة لهذه لا يوجد ترياق. تشغلني التماسيح أكثر، فهذه الحشرات(*) تلتهم كلّ شيء... - علّقت أنجي.

- لكنّها تبقى في النهر، أليس كذلك؟ - سأل ألِكساندر.

- هي ضارية على اليابسة أيضاً. ليست هذه ميتة لطيفة - وضّحت أنجي.

كانت المرأة تحمل مسدساً وبندقيّة، رغم أنّها لم تملك فرصة

(*) تعني التماسيح

لاستخدامهما. ونظراً لأنّ عليهم أن يقوموا بمناوبات للمراقبة ليلاً فقد شرحت للآخرين كيفية استخدامهما.

أطلقوا عدّة عيارات وتأكّدوا من أنَّ السلاحين في حالة جيّدة، لكنّ أحداً منهم لم يكن قادراً على إصابة الهدف عن بعد أمتارٍ منه. رفض الراهب فِرناندو المشاركة، لأنّ الأسلحة النارية، حسب قوله، يعبّئها الشيطان. فقد كوته تجربته في حرب رواندا.

- هذه هي حمايتي، وشاح - قال، مظهراً قطعةَ قماش كان يعلّقها برباط إلى عنقه.

- ماذا؟ - سألت كات، التي لم تسمع بهذه الكلمة قط.

- إنّه شيء مقدّس. مبارك من البابا - وضّح جول غونثالث مظهراً آخر مشابهاً على صدره.

كانت الطقوس الكاثوليكية تبدو بالنسبة إلى كات، التي تربت في حضن الكنيسة البروتستانتية الصارمة، غريبة غرابةَ طقوسِ شعوب أفريقيا الدينية.

- أنا أيضاً عندي تميمة، لكنّني لا أعتقد أنّها تُنقذني من فكيّ تمساح - قالت أنجي مظهرة كيساً جلديّاً صغيراً.

- لا تُقارني وثنك بالوشاح الكنسي! - ردّ الراهب فِرناندو، مهاناً.

- ما الفارق؟ - سأل ألِكساندر، باهتمام كبير.

- هذا يمثّل قوّة المسيح والآخر شعوذة وثنية.

- المعتقدات الذاتية تسمى ديناً ومعتقدات الآخرين تسمى شعوذة - علّقت كات.

كانت تُردّدُ هذه الجملة كلّما سنحت لها الفرصة بذلك، كي تجبره على احترام الثقافات الأخرى. من أقوالها الأخرى المفضّلة: «ما عندنا لغة وما يتكلّمه الآخرون لهجات»، «ما يفعله البيض فنّ

وما تفعله أعراق أخرى حِرف يدوية». كان ألِكساندر قد حاول أن يشرح أقوال جدّته هذه في دروس العلوم الاجتماعية، لكن ما من أحد التقط التهكّم الذي تنطوي عليه.

وعلى الفور قام نقاش حام حول الإيمان المسيحي وعبادة الأرواح الأفريقية، شاركت فيه المجموعة كلّها، باستثناء ألِكساندر، الذي يحمل تميمته الخاصة في عنقه وفضّل أن يلزم الصمت، وناديا التي كانت مشغولةً، تجوبُ باهتمام كبير الشاطئ الصغير من أوّله إلى آخره، يرافقها بوروبا. اجتمع ألِكساندر بهما.

ـ عمّ تبحثين، يا نسر؟ ـ سأل.

انحنت ناديا والتقطت قطع حَبْل.

ـ عثرت على عدد من هذه ـ قالت.

ـ لا بدّ أنّها نوع من المتسلقات.

ـ لا، اعتقد أنّها مشغولة باليد.

ـ ماذا يمكن أن تكون؟

ـ لا أدري، لكنّها تعني أنّ أحداً كان هنا منذ زمن قصير، وربّما يعود. لسنا إلى هذا الحدّ دون حماية كما تفترض أنجي ـ استنتجت ناديا.

ـ آمل ألاّ يكونوا أكلة لحوم بشرية.

ـ سيكون هذا حظّاً في غاية السوء ـ قالت ناديا، مفكّرةً بما سمعته من المُبشّر عن المجنون الذي يسيطر على المنطقة.

ـ لا أرى آثاراً في أيّ مكان ـ علّق ألِكساندر.

ـ أيضاً لا تظهر آثار الحيوانات. الأرض طرية والمطر يمحوها.

كان المطر القويّ ينهمر عدّة مراتٍ في اليوم، يُبلّلهم كأنّه حمام

رذاذ. وكان ينقطع بالسرعة التي بدأ بها. كانت هذه الهطولات تبقي عليهم مُبلَّلين، لكنها لا تُخفِّف من الحرّ، بل على العكس، فالرطوبة تجعله لا يُطاق أبداً. نصبوا خيمة أنجي، التي يجب أن يتكدّس فيها خمسة من الرحالة بينما السادس يراقب. وباقتراح من الراهب فِرناندو بحثوا عن روث حيوانات لإشعال النار، الطريقة الوحيدة لإبقاء البعوض على الحدّ وللتغطية على رائحة البشر، التي يمكن أن تشدُّ الضواري الموجودة حولهم. حذّرهم المُبَشِّر من البقّ، الذي يَبيض بين اللحم والظفر فتلتهب الجروح وتضطرّهم إلى رفع الأظافر بالسكين لاقتلاع اليرقات، هذه العملية التي تُشبه التعذيب الصيني. ولتفادي ذلك فركوا أيديهم وأقدامهم بالبنزين. كما حذّرهم من ترك الأطعمة في العراء، لأنّها تشدّ النمل، الذي يمكن أن يكون أخطر من التماسيح. إنّ غزو الأرضات شيء مرعب. حين تمرّ تختفي الحياة فلا تبقى غير الأرض المحروقة. كان ألِكساندر ونادِيا قد سمعا بها في الأمازون، لكنّهم علموا بأنّ الأفريقيّة أكثر نهماً. وصلت عند المساء سحابة من النحل الدقيق، الموبّاني المريع، غزت المعسكر وغطّتهم حتى أهدابهم رغم الدخان.

ـ إنّها لا تلدغ، فقط تمتصّ العرق. من الأفضل عدم محاولة إبعادها، سوف تعتادون عليها ـ قال المُبشِّر.

ـ انظروا! ـ أشار جول غونثالث.

على الشاطئ كانت تتقدّم سلحفاة معمّرة يتجاوز قطرُ درعها المتر.

ـ يجب أن تكون قد تجاوزت المئة سنة ـ قدّر الراهب فِرناندو.

ـ أنا أعرف تحضير حساء سلحفاة لذيذ! ـ صاحت أنجي، شاهرة مدية ـ علينا أن نستغلّ اللحظةَ التي تُطلّ فيها برأسها كي...

ـ أنتِ لا تفكّرين بقتلها... ـ قاطعها ألِكساندر.

ـ درعها يساوي مالاً كثيراً ـ قالت أنجي.

ـ لدينا سردين معلَّب للعشاء ـ ذكَّرتهم ناديا، المعارِضة بدورها لفكرة أن يأكلوا السلحفاة المسالمة المسكينة.

ـ من غير المناسب قتلها. رائحتها قويّة، يمكن أن تشدّ حيوانات خطيرة ـ تعلَّل الراهب فِرناندو.

ابتعد الحيوان المئوي بخطواتٍ هادئة باتجاه الطرف الآخر من الشاطئ، دون أن يدري كم كان قريباً من الانتهاء إلى القِدر.

هبطت الشمسُ وتطاولت ظلالُ الأشجار القريبة وترطَّب الجوّ على الشاطئ.

ـ لا تلتفت بعينيك إلى هذا الجانب، أيّها الراهب فِرناندو، لأنّني سوف أبربط في الماء ولا أريد أن أغويك ـ ضحكت أنجي نيندرِرا.

ـ لا أنصحكِ بالاقتراب من النهر، يا آنسة. لا أحد يعرف ما يمكن أن يوجد في الماء ـ ردّ المُبشِّر بجفاف، دون أن ينظر إليها.

لكنّها كانت قد خلعت بنطلونها وقميصها وراحت تجري بثيابها الداخلية نحو الضفَة. لم ترتكب حماقة الدخول في الماء إلى أكثر مما يغمر ركبتيها، بقيت متحفِّزةً، جاهزة للخروج مثل الطير في حال الخطر. راحت تسكب الماء على رأسها بمتعة جلية بطاسة الصفيح ذاتها التي تستخدمها للقهوة. قلّدها الآخرون باستثناء المُبشِّر، الذي بقي وظهره إلى النهرِ مكرساً نفسه لتحضير الطعام البائس من البقول والسردين المعلَّب، وبوروبا الذي كان يكره الماء.

كانت ناديا أوّل من رأى أفراس البحر، التي تتنكَّر في ظلّ المساء بلون الماء البني ولم ينتبهوا إلى وجودها إلا حين أصبحت على مقربة منهم. كان هناك فرسان بالغان، أصغر من أفراس محميّة ميشيل موشاحا، يتبلَّلان على بعد أمتار من المكان الذي كانوا يستحمون فيه. الثالث كان صغيراً، رأوه يُطلّ برأسه من بين مؤخّرتي أبويه الهائلتين. خرج الأصدقاء من النهر بحذرٍ كيلا

يثيروها وانسحبوا باتجاه المعسكر. لم تُظهر الحيوانات الثقيلة أيَّ فضولٍ تجاه الكائنات البشرية، تابعت استحمامها هادئة فترة طويلة، إلى أن هبط الليل واختفت في العتمة. كانت رمادية وسميكة الجلد، مثل الفيلة، عميقة الطيات، صغيرة ودائرية الآذان، برّاقة العيون، لها لون القهوة والمُغنة. كيسان يتدليان من أحناكها، يحميان أنيابها القادرة على سحق الحديد.

- تسير أزواجاً وهي أكثر وفاء من غالبية البشر. تملك صغيراً، ترعاه لسنوات - وضّح الراهب فِرناندو.

ما إن غابت الشمس حتى هبط الليل سريعاً ورأت المجموعة البشرية نفسها محاطة بظلمة الغابة العصية على النفوذ. فقط في المنطقة الصغيرة المكشوفة، من الضفة حيث هبطوا بالطائرة كان من الممكن أن يُرى القمر في السماء. كانت الوحشة مطلقة. نظّموا أنفسهم كي يناموا دورياً، فيقوم واحد منهم بالحراسة والإبقاء على النار مشتعلةً. ناديا، التي استبعدوها من هذه المهمّة لأنّها الأكثر فتوة، أصرّت على مرافقة أَلِكساندر في مناوبته. مرّت خلال الليل حيوانات مختلفة، وردت النهر كي تشرب، أربكها الدخان والنار ورائحة الكائنات البشرية. الأكثر خوفاً تراجعت خائفة، بينما الأخرى راحت تشمّ الهواء، تتردّد ثم تقترب وقد غلبها العطش أخيراً. تعليمات الراهب فِرناندو، الذي درس حيوانات ونباتات أفريقيا خلال ثلاثين سنة، هي ألا يزعجوها. هي عادةً لا تُهاجم البشر، قال، إلاّ إذا كانت جائعة، أو تمّ الاعتداء عليها.

- هذا نظرياً. أمّا عملياً فلا يمكن التكهن وقد تهاجم في أيّة لحظة - دحضته أنجي.

- ستبقي عليها النارُ بعيدةً. أظنّ أنّنا في هذا الشاطئ في مأمنٍ. الخطر في الغابة أكبر... - قال الراهب فِرناندو.

- نعم، لكنّنا لن ندخل إلى الغابة - قاطعته أنجي.

ـ وهل تفكّرين بالبقاء على الشاطئ للأبد؟ ـ سأل المُبشِّر.

ـ لا نستطيع أن نخرج من هنا عبر الغابة. الطريق الوحيد هو النهر.

ـ سباحةً؟ ـ ألحّ الراهب فِرناندو.

ـ نستطيع أن نصنع عبّارة ـ اقترح ألِكساندر.

ـ لقد قرأتَ روايات مغامرات أكثر من اللازم، أيّها الصغير ـ ردّ المُبشِّر.

ـ غداً نتخذ قراراً. أمّا الآن فإنّنا سنرتاح ـ أمرت كات.

جاء دور ألِكساندر ونادیا في الساعة الثالثة فجراً. حالفهما الحظّ مع بوروبا أن يريا شروق الشمس. جلسا ظَهراً إلى ظَهْر يتسامران همساً، وسلاحاهما على ركبهما. كانا يبقيان على اتصالٍ حين ينفصلان، وأيضاً حين يلتقيان يملكان آلاف الأشياء كي يحكياها. كانت صداقتهما عميقة، ويُقدّران أنّها ستدوم بقيَةَ حياتهما. الصداقة الحقيقية، كانا يُفكّران، تُقاوِم مرور الزمن، فهي غير مصلحية وكريمة، لا تطلب بالمقابل شيئاً، غير الوفاء. راحا يُدافعان عن هذا الشعور الرقيق من الفضول الغريب دون أن يتفقا. كان يحبّ الواحدُ منهما الآخرَ بوقار وصمت ودون تبجحاتٍ كبيرة، كانا يتقاسمان الأحلامَ والأفكارَ والعواطفَ والأسرارَ بالبريد الإلكتروني؛ يعرفُ أحدهما الأخر إلى حدّ أنّهما لم يكونا بحاجة لأن يقولا كلاماً كثيراً، تكفي أحياناً كلمةٌ كي يتفاهما.

في أكثر من مناسبة سألت الأمُ ألِكساندر عما إذا كانت ناديا «فتاته» وكان يُنكر دائماً بعنفٍ أكثرَ من اللازم. لم تكن «فتاته» بالمعنى العامّي للكلمة. مجرّد السؤال كان يهينه. فعلاقته بناديا لايمكن أن تُقارنَ بالغراميات التي تُبَدِّل مزاجَ أصدقائه، أو بتخيلاته ذاتها مع ثِثيليا بورنز، الفتاة التي كان يُفكّر، منذ دخوله المدرسة، بالزواج منها. الودّ الموجود بين ناديا وبينه كان فريداً، رائعاً لايُمس. كان يُدرك أن علاقةً بمثل تلك القوّة والنقاء ليست مألوفة

بين زوجين من المراهقين من جنسين مختلفين؛ لذلك لم يكن يُكلّم احداً عنها، لأنّ أحداً لن يفهمها.

بعد ساعة اختفت النجوم الواحد بعد الآخر وبدأت السماء تظهر، في البداية مثل بهاء ناعم ثم وبسرعة مثل حريق رائع يضيء المشهدَ بانعكاسات برتقالية. امتلأت السماء بالطيور المختلفة وأيقظت جوقة من التغريد المجموعةَ. شرعوا بالعمل على الفور، بعضهم يُصلي النارَ، ويجهّز شيئاً للإفطار، وآخرون يُساعدون أنجي نيندرِرا على فكّ المروحة بهدف إصلاحها.

كان عليهم أن يتسلحوا بالعصي كي يبعدوا القردةَ، التي راحت تنقضُ على المعسكر بهدف سرقة الطعام. أنهكتهم المعركة. انسحبت القردةُ إلى عمق الشاطئ وراحت تراقب من هناك، منتظرةً أيّة غفلة كي تهجم من جديد. كان الحرّ والرطوبة غير محتَمَلَين وثيابهم ملتصقة بأجسادهم وشعرهم مبللاً وتصدر عن الغابة رائحة مواد عضوية متفسّخة ثقيلة تختلطُ بنتن الروث الذي استخدموه في النار. كان العطش يضيّق عليهم الخناق وعليهم أن يقتصدوا باحتياطيّ الماء المعبّأ الذي يحملونه في الطائرة. اقترح الراهب فِرناندو مياه النهر، لكنّ كات قالت إنّها ستسبّب لهم التيفوس أو الكوليرا.

ـ نستطيع أن نغليها، لكن ما من طريقة لتبريدها في هذا الحرّ، وسنضطر لشربها ساخنةً ـ أضافت أنجي.

ـ إذن لنصنع شاياً ـ خلصت كات.

استخدم المُبشّرُ القدرَ الذي كان يعلقه إلى حقيبة ظهره لاستخراج الماء من النهر وغليه. كان ذا لون صدئ وطعم معدني ورائحة حلوة غريبة، مثيراً قليلاً للغثيان.

كان بوروبا الوحيد الذي يدخل الغابةَ في غارات سريعة، بينما يخاف الباقون الضياعَ في الغابة الكثيفة. لاحظت ناديا أنّه يذهب

ويعود كلّ برهة بموقف كان في البداية فضولاً وبدا على الفور يائساً. نادت ألِكساندر، وانطلق الاثنان خلف القرد.

ـ لا تبتعدا، أيّها الصغيران ـ نبّهتهما كات.

ـ سنعود حالاً ـ ردّ حفيدُها.

قادهما بوروبا دون تردّدٍ بين الأشجار. وبينما هو يقفز من غصن إلى غصن راح ألِكساندر وناديا يتقدّمانِ بصعوبة شاقَّيْنِ طريقاً بين السراخس المتشابكة، متوسّلين الله ألاّ يدوسا فوق أفعى أو يلقيا فهداً وجهاً لوجه.

توغّل الفتيان في الغابة دون أن يرفعا نظرهما عن بوروبا. بدا لهما أنّهما يمضيان في دربٍ لا يكاد يكون مرسوماً في الغابة، ربّما كان طريقاً قديماً، غطّته النباتات، تقطعه الحيوانات في ذهابها للشرب من النهر. كانا مغطيين بالحشرات من أسفل أقدامهما وحتى رأسيهما، وأمام استحالة التخلّص منها أذعنا لتحمّلها. كان من الأفضل عدم التفكير بالأمراض التي تنقلها الحشرات، بدءاً من الملاريا وحتى السبات القاتل الذي تنقله ذبابة تسِتسي، التي يغرق ضحاياها في سبات عميق، حتى يموتوا محاصرين في متاهة كوابيسهم. كان عليهما أن يمزقا في بعض الأماكن أنسجة العنكبوت الهائلة التي تسدّ عليهما الطريق ضرباً بأيديهما، وفي أماكن أخرى يغوصان حتى ركبهما في الوحل الدبق.

سرعان ما ميّزا في ضجيج الغابة المستمر شيئاً يشبه الأنين البشري، جمّدهما. راح بوروبا يقفزُ متلهفاً، يشير عليهما بمتابعة الطريق. بعد أمتار إلى الأمام تبيّنا الأمر. أوشك ألِكساندر، الذي كان هو من يشقّ الطريق، على السقوط في فجوةٍ، مثل جرفٍ، ظهرت أمام قدميه. كان الأنين يصدر من عمق الحفرة عن هيئة غامضة، تبدو للوهلة الأولى كلباً كبيراً.

ـ من؟ ـ تمتم ألِكساندر، متراجعاً، دون أن يجرؤ على رفع صوته.

تكثّف زعيق بوروبا، تحرّك الكائن في الحفرة فانتبها إلى أنّه قرد. كان مشتبكاً بشبكة كبّلته تماماً. رفع الحيوان نظره وحين رآهما راح يزعق ويكشر عن أسنانه.

ـ إنّه غوريلا. لا يستطيع أن يخرج... ـ قالت ناديا.

ـ يبدو هذا فخّاً.

ـ يجب إخراجه ـ اقترحت ناديا.

ـ كيف؟ يمكن أن يعضّنا...

انحنت ناديا على مستوى الحيوان المشتبك بالحبال وراحت تُكلّمه، كما كانت تُكلم بوروبا.

ـ ماذا تقولين له؟ ـ سألها ألِكساندر.

ـ لا أدري ما إذا كان يفهم عليّ. ليست كلّ القردة تتكلّم اللغة ذاتها، يا جغوار. في المحميّة استطعتُ التواصلَ مع الشمبانزي، ولم أستطع ذلك مع القردوحات.

ـ تلك القردوحات كانت قاسية القلب، يا نسر. ما كانت لتعيرك اهتماماً حتى ولو فهمت عليك.

ـ لا أعرف لغةَ الغوريلات، لكنّني أتصوّر أنّها شبيهة بلغة القرود الأخرى.

ـ قولي له أن يبقى هادئاً وسنرى ما إذا كنّا سنستطيع فكّه من الشبكة.

وشيئاً فشيئاً استطاع صوتُ ناديا أن يهدّئ الحيوان الأسير، لكنّهما إذا ما حاولا الاقتراب منه عاد وكشّر عن أسنانه وزمجر.

ـ عندها رضيع ـ أشار ألِكساندر.

كان ضئيلاً لا يتجاوز عمرُهُ بضعة أسابيع ويلتصق بقنوط بشعرِ أمّه الغليظ.

ـ هيّا بنا نبحث عن مساعدة. إنّنا بحاجة لقصّ الشبكة ـ قرّرت ناديا.

عادا إلى الشاطئ بالسرعة التي سمحت بها الأرض وحكيا للآخرين ما وجداه.

ـ يمكن لهذا الحيوان أن يُهاجمكما. الغوريلات مسالمة، لكنّ أنثى مع مولودها خطيرة دائماً ـ حذّرهما الراهب فِرناندو.

لكنّ ناديا كانت قد أخذت سكيناً وانطلقت تتبعها بقيّة المجموعة. لم يكد جول غونثالث يصدّق حظّه الحسن: سيصوّر غوريلا، بعد كلّ شيء. تسلّح الراهب فِرناندو بمديته وعصاً طويلة. بينما حملت أنجي مسدّسها وبندقيّتها. قادهم بوروبا مباشرةً إلى الفخ، حيث الغوريلا، التي جنّ جنونها حين رأت نفسها محاطة بالوجوه البشرية.

ـ يناسبنا الآن جيّداً مخدّرُ ميشيل موشاحا ـ علّقت أنجي.

ـ إنّها خائفة جدّاً. سأحاول الاقتراب. انتظروا أنتم في الخلف ـ اقترحت ناديا.

تراجع البقيّةُ عدّة أمتار وقرفصوا بين السرخس، بينما راحت ناديا وألِكساندر يقتربان سنتيمتراً بسنتيمتر، متوقّفَيْن ومترقّبين. تابعَ صوتُ ناديا مناجاتَه الطويلة لتهدئة الحيوان المسكين العالق. وهكذا مرّت عدّة دقائق، إلى أن انقطعت الزمجرة.

ـ انظر، يا جغوار إلى الأعلى ـ همست ناديا في أذن صديقها.

رفع ألِكساندر عينيه، ورأى في رأس الشجرة المشار إليها وجهاً أسود ولامعاً ذا عينين متقاربتين جدّاً وأنف أفطس، يُراقبه بكلّ اهتمام.

ـ إنّه غوريلا آخر. وهو أكبر بكثير! ـ ردّ ألِكساندر هامساً بدوره.

ـ لا تنظر إلى عينيه، فهذا تهديد بالنسبة إليها ويمكن أن ينزعج ـ نصحته.

أيضاً رأته بقيّةُ المجموعة، لكنّ أحداً لم يتحرّك. كانت يدا جول غونثالث تحكّانه كي يوجّه كاميرته، لكنّ كات منعته بنظرة صارمة. إن فرصة أن يكون على مسافة بهذه القصر من ذينك القردين الكبيرين كانت من الندرة بحيث لا يستطيعون أن يدمروها بحركة مزيفة. مرّت نصف ساعة ولم يحدث شيء، فالغوريلا بقي في مكان مراقبته على الشجرة هادئاً والهيئة المنكمشةُ في الأسفل تحت الشبكة ملتزمة الصمت. وحده نَفَسها المضطرب والطريقة التي تشدّ بها صغيرها إليها تشي بضيقها.

راحت ناديا تزحف نحو الفخ، تراقبها الأنثى المذعورة من الأرض والذكر من الأعلى. تبعها ألِكساندر والسكين بين أسنانه، ينتابه شعور غامض بالتفاهة، كما لو أنّه في فيلم من أفلام طرزان. حين مدّت ناديا يدها لتلمس الحيوان تحت الشبكة اهتزّت أغصان الشجرة التي كان عليها الغوريلا الآخر.

ـ إذا هاجم حفيدي تقتلينه في مكانه ـ همست كات لأنجي.

لم تُجب أنجي. كانت تخشى أن لا تكون قادرة على رميه برصاصة حتى ولو كان على مسافة متر منها: كانت البندقية ترتعش بين يديها.

تابعت الأنثى حركةَ الشابين متحفّزةً، لكنّها بدت أكثر هدوءاً، كأنّها فهمت التوضيح، الذي ردّدته ناديا مرّةً بعد أخرى، وهو أنّ هذه الكائنات البشرية لم تكن هي نفسها التي نصبت الفخّ.

ـ اهدئي، اهدئي، سوف نحرّرك ـ همست ناديا كما لو في حلم.

أخيراً لامست يدُ الفتاة شعرَ القردة الأسود، التي انكمشت مع

اللمس وكشَّرت عن أسنانها. لم تسحب ناديا يدها وشيئاً فشيئاً هدأ الحيوان. وبإشارة من ناديا راح ألِكساندر يزحف بحكمة كي يجتمع بها. وببطء شديدٍ، كيلا يخيفها، داعب بدوره ظهر الغوريلا، إلى أن ألِفت حضورهما. تنفَّس مِلءَ رئتيه، فرك التميمة التي كان يحملها على صدره كي يتشجَّع، وسحب السكين كي يقطع الحبل. وكان ردّ فعل الحيوان وهو يرى حدّ المعدن على مستوى جلده أن انكمش مثل كُرَة، حامياً الصغيرَ بجسمه. كان صوت ناديا يصله من بعيد متوغّلاً في عقله المرعوب، مهدّئاً إياه، بينما هو يشعر باحتكاك السكين وشدّ الشبكة على ظهره. جاء تقطيع الشبكة أطول مما كان مفترضاً، لكنّ ألِكساندر تمكّن أخيراً من فتح ثغرة لتحرير السجين. أشار إلى ناديا إشارة فتراجع الاثنان عدّة خطوات.

ـ إلى الخارج! صار باستطاعتك الخروج! ـ أمرت الشابة.

اقترب الراهب فِرناندو زاحفاً وحكيماً ومرّر عصاه إلى ألِكساندر، الذي استخدمها كي ينخس الكتلة المتقوقعة تحت الشبكة. وقد أعطى هذا النتيجة المنتظرة، رفعت الغوريلا رأسها، شمّت الهواء وراقبت ما حولها بفضول. تأخّرت قليلاً في إدراك أنّ باستطاعتها أن تتحرّك وحينئذٍ انتصبت، نافضة الشبكة عنها. رأتها ناديا وألِكساندر منتصبة على قدميها وابنها على صدرها، واضطرّا أن يغطيا فميهما كيلا يصرخا من التأثّر. لم يتحرّكا، انحنت الغوريلا ساندة ابنها إلى صدرها بيدها، وبقيت تنظر إلى الشابين بتعبير مركّز.

ارتعش ألِكساندر. أدرك كم كان الحيوان قريباً منه. شعر بحرارته ووجهه الأسود والمجعّد على بعد عشرة سنتيمترات عن وجهه. أغمض عينيه، متصبّباً عرَقاً. وحين عاد وفتحهما رأى بشكل زائغ مخطماً وردياً، مليئاً بالأسنان الصفراء؛ كانت عدستا نظارته مغبّشتين لكنّه لم يجروْ على رفعها. نفس الغوريلا أصابه كاملاً في أنفه، كانت له رائحة لطيفة لعشبٍ حصد للتو. فجأة أخذته يدُ الصغير الفضولية من شعره وشدّته منه. ألِكساندر الذي خنقته

السعادةُ مدَّ إصبعاً فتشبّث بها القردُ الصغير كما يفعل الطفلُ الرضيع. لم يعجب هذا البرهان عن الثقة الأمَّ، فكرَمت أَلِكساندر بدفعةٍ طرحته أرضاً، لكن دون عدوانية. أطلقت زعقةً معبرة بنبرةِ من يسأل، وابتعدت بقفزتين باتجاه الشجرة التي ينتظر فوقها الذكرُ وضاعا بين الأغصان المتشابكة. ساعدت ناديا صديقها على النهوض.

ـ هل رأيتم؟ لقد لمستني! ـ صاح أَلِكساندر وهو يقفز حماساً.

ـ حسناً فعلتما، أيّها الصبيان ـ أقرّ الراهب فِرناندو.

ـ من تراه نصب هذه الشبكة؟ ـ سألت ناديا، وهي تفكّر أنّها من المادة ذاتها التي عثرت عليها على الشاطئ.

5

الغابة المسحورة

عند العودة إلى المعسكر ارتجل جول غونثالث قصبةً صيد من عود خيزران وسلكٍ ملتوٍ، وجلس على الضفَّة بأمل أن يمسك بشيء يؤكل، بينما الآخرون يناقشون المغامرة الحديثة. كان الراهب فِرناندو متفقاً مع نظرية ناديا: هناك أمل بأن يأتي أحدٌ ما ليُنقذهم، لأنَّ الشبكة تدلّ على وجود بشري. ستأتي لحظة يعود فيها الصيادون بحثاً عن الغنيمة.

ـ لماذا يصيدون الغوريلات؟ فلحمها سيئ وجلدها قبيح ـ أراد أَلِكساندر أن يعرف.

ـ لحمها مقبول، إذا لم يكن هناك شيء آخر يؤكل. وأعضاؤها تُستخدم في السحر، ومن جلودها وجماجمها تُصنع الأقنعةُ ويبيعون أيديها صحونَ سجائر. إنّها تسحر السياح ـ وضّح المُبشِّر.

ـ يا للهول!

ـ في بعثة رواندا كان عندنا غوريلا عمرها عامان، هي الوحيدة التي استطعنا أن ننقذها. كانوا يقتلون الأمهات ويأتوننا أحياناً بصغارها المسكينة، التي تبقى مهجورة. إنّها حساسة جدّاً، تموت حزناً، إذا لم تمت قبل ذلك جوعاً.

ـ بالمناسبة، ألستم جائعين ـ سأل أَلِكساندر.

ـ تَرْكُ السلحفاة تفلت منا كان فكرة سيئة، كان باستطاعتنا أن ننعمَ بعشاءٍ رائعٍ ـ قالت أنجي.

لزم المسؤولون الصمتَ. كانت أنجي على حق: في مثل هذه الظروف لا يستطيعون أن يسمحوا لأنفسهم بترف أن يكونوا عاطفيين، فالأساس هو البقاء على قيد الحياة.

ـ ماذا جرى براديو الطائرة ـ سألت كاث.

ـ أرسلتُ عدّة رسائل، طالبة النجدة، لكنّني لا أعتقد أنّها استُقْبِلَت. نحن بعيدون جداً. سأستمرُّ بمحاولة الاتصال بميشيل موشاحا. وعدته أن أتصل به مرتين يومياً. بالتاكيد سيستغرب أنه لا يتلقى أخبارنا ـ ردّت أنجي.

ـ ستأتي لحظة يتنكّرنا فيها أحد ما، وسيخرج للبحث عنّا ـ واستهم كاث.

ـ نحن في ورطة: طائرتي مفكّكة، نحن ضائعون وجائعون ـ دمدمت أنجي.

ـ لكن، كم أنتِ متشائمة، يا امرأة! فالله يضغطُ لكنّه لا يخنق. سترين أنّه لن ينقصنا شيء ـ ردّ الراهب فِرناندو.

أمسكت أنجي المُبشِّر من ذراعيه ورفعته عدّة سنتيمترات عن الأرض كي تنظر إليه عيناً لعين.

ـ لو سمعت منّي لما كنّا في هذه الورطة! ـ صاحت والشرز يتطاير من عينيها.

ـ قرار المجيء إلى هنا، كان قراري، يا أنجي ـ تدخّلت كاث.

انتشر أعضاءُ المجموعة على الشاطئ، كلٌّ مشغول بما لديه. استطاعت أنجي أن تفكّ المروحة بمساعدة ألِكساندر وناديا. وتأكّدت، بعد أن تفحّصتها بعمقٍ، مما توقّعته: لن يستطيعوا إصلاحها بالوسائل المتوافرة لديهم. كانوا محاصرين.

لم يكن جول غونثالث يثق بأنّ شيئاً سيعلق بصنارته البدائية، لذلك أوشك أن يسقط على ظهره من المفاجأة حين شعر بالخيط يُشَدّ. هُرع البقية لمساعدته وأخرجوا أخيراً بعد جهدٍ طويلٍ سمكةَ كارب جيّدة الحجم. بقيت السمكة تتخبّط محتضرةً على الرمل دقائقَ طويلة. كانت بالنسبة إلى ناديا عذاباً أبدياً، لأنّها لم تكن تستطيع تحمّل عذاب الحيوانات.

ـ هكذا هي الطبيعة، يا صغيرتي. بعضها يموت كي يتمكّن آخر من العيش ـ واساها الراهب فِرناندو.

لم يبغِ أن يُضيف بأنّ اللهَ هو الذي أرسل إليهم سمكةَ الكارب، كما كان يفكّر حقيقةً كيلا يستمرّ في إثارة أنجي نيندرِرا. نظّفوا السمكةَ، لفّوها بالأوراق وشووها. لم يُجرّبوا قط شيئاً بمثل تلك اللذة. كان الشاطئ في تلك الساعة يشتعل مثل الجحيم. ارتجلوا ظلالاً بنصب الخيش على العصي واستلقوا يرتاحون، تراقبهم القردةُ وبعض الضببة الضخمة، الخضراء، التي خرجت تتشمّسُ.

•

كانت المجموعة تنام متصبّبة عرقاً تحت ظل الخيش المقلقل حين انبثق على الطرف الآخر من الشاطئ مضخة حقيقيّة رافعة سحائب من الرمل. ظنوها في البداية وحيد قرن، وأحدث وصوله هرجاً ومرجاً كبيرين، لكنّهم سرعان ما رأوا أنّ الأمر يتعلّق بخنزير برّي كبير، شعره خشن ونابانه مهدّدان. هاجم الحيوان، الذي فقد الصواب، المعسكرَ، دون أن يتيح لهم الفرصة كي يشهروا أسلحتهم، التي وضعوها جانباً خلال القيلولة. بصعوبة استطاعوا أن يبتعدوا عن طريقه حين هاجمهم، منفجراً على العصي التي تسند الخيش ورماها أرضاً. راقبهم، من بين خرائب المظلة، شخر بعينين تشيان بالضغينة.

ركضت أنجي نيندرِرا تبحث عن مسدّسها فلفتت حركاتها نظرَ الحيوان الذي انطلق يهاجم من جديد. نكش بظلفي ساقيه الأماميّتين

الشاطئ، خفض رأسه وراح يجري باتجاه أنجي، التي شكّل جسمها الضخم هدفاً دقيقاً له.

حين بدت نهايةُ أنجي حتميّة، تدخّل الراهب فِرناندو بينها وبين الخنزيرِ البرّي هازّاً قطعة من الخيش في الهواء. توقّف الحيوان جامداً، دار نصف دورة وانطلق نحوه، لكنّ المبشّر أزاح في لحظة الاصطدام جسدَه بخطوة راقص. اتخذ الخنزير المشتاط غيظاً مسافة وعاد للهجوم فاحتبل بالخيش من جديد دون أن يمسّ الرجلَ. في هذه الأثناء كانت أنجي قد شهرت مسدّسها، لكنّها لم تجرؤْ على إطلاق النار لأنّ الحيوان كان يحوم حول الراهب فِرناندو، الذي كان من القرب منه بحيث أنّه بدا كأنه يختلط به.

أدركت المجموعةُ أنّها تحضر أكثر مصارعات الثيران غرابةً. استخدم المبشّرُ قطعةَ الخيشِ كدثار، راحوا يحمسونه بكلمة أوليه! يا ثور! كان يخدعه، يقف أمامه، يفقده صوابه. استنفد بعد برهةٍ قواهُ، فكاد ينهار، وراح لعابه يسيل وأرجله ترتجف. عندئذٍ أدار له الرجلُ ظهرَهُ وسار عدّة خطواتٍ مجرجراً قطعة الخيش، بينما الخنزير يجهد نفسه كي يبقى واقفاً على أرجله. استغلّت أنجي هذه اللحظةَ كي تقتله بطلقتين على رأسه. جوقة من التصفيق وصيحات الفرح حيّت شجاعة الراهب فِرناندو المتهورة.

- كم سَعِدتُ! فأنا لم أصارع ثيراناً منذ خمس وثلاثين سنة! - صاح.

ابتسم لأوّل مرّة منذ أن عرفوه وحكى لهم أنّ حلمَ شبابه كان أن يتبعِ خطوات أبيه، مصارع الثيران الشهير، لكنّ الله كان قد اختار له سبلاً أخرى: أصابته حمّى مرعبة بعمىً شبهِ تامّ، ولم يستطع الاستمرار بالمصارعة. كان يسأل نفسه ماذا سيفعل بحياته حين علم من خوري القرية أنّ الكنيسة تجمع مبشّرين لأفريقيا. وهرع لتلبية النداء فقط من يأسه لأنّه لم يعد يستطيع المصارعة، لكنّه سرعان ما اكتشف أنّه يملكُ هواية. فلكي يصبح المرء مبشّراً يحتاج

إلى ميّزاتِ مصارعةِ الثيران الضرورية: الشجاعة والمقاومة والإيمان لمواجهة الصعوبات.

ـ مصارعة الثيران سهلة. خدمةُ المسيح أكثر تعقيداً بكثير ـ خلص الراهب فِرناندو.

ـ بالحكم من خلال ما برهنتَ عنه لنا يبدو أنّه لا حاجة للعيون السليمة لأيٍّ من الأمرين ـ قالت أنجي، متأثّرة لأنّه أنقذ حياتها.

ـ صار عندنا لحم لعدّة أيّام. علينا طبخها كي تدوم أكثر قليلاً ـ قال الراهب فِرناندو.

ـ هل صوّرت المصارعة؟ ـ سألت كاث جول غونثالِث.

كان على الرجل أن يعترف أنّه في لحظة الذهول نسي واجبه تماماً.

ـ أنا صوّرتها! ـ قال ألِكساندر، وهو يهزّ الكاميرا الآلية الدقيقة، التي يحملها دائماً معه.

الوحيد الذي استطاع نزع جلدِ الخنزير البرّي وأحشائه كان بالنتيجة الراهب فِرناندو، لأنّه رآهم في قريته مرّاتٍ كثيرةً يذبحون الخنازير. خلع قميصه وشرع يعمل. لم تكن لديه سكاكين مخصّصة ولذلك جاء العمل بطيئاً ووسخاً. وبينما كان يعمل كان ألِكساندر وجول غونثالث، المسلّحَيْن بالعصي يُبعدان النسور التي راحت تحوم فوق رؤوسهم. بعد ساعة كان اللحمُ الذي من الممكن الاستفادة منه جاهزاً. ألقوا ما تبقى في النهر كي يتفادوا الذباب والحيوانات اللاحمة، التي لا شكّ ستصل تشدّها رائحة الدم. أخرج المبشّر نابي الخنزير البرّي بالسكين، ثم أعطاهما، بعد أن نظّفهما بالرمل، إلى ألِكساندر ونادیا.

ـ كي تحملاهما ذكرى إلى الولايات المتحدة ـ قال.

ـ هذا إذا خرجنا أحياءً من هنا ـ أضافت أنجي.

خلال قسم طويل من الليل هطلت زخات قصيرة، جعلت الحفاظ

على النار مشتعلة أمراً صعباً. حموها بنشر قطعة خيش فوقها، لكنّها كثيراً ما كانت تنطفئ، حتى استسلموا أخيراً وتركوها تموت. خلال نوبة أنجي وقع الحادث الوحيد، الذي وصفت النجاة منه فيما بعد بأنها «معجزة». تمساح خائب لأنّه لم يستطع أن يمسك بفريسته على ضفّة النهر، تجرّأ واقترب من وهج الجمر وضوء مصباح النفط. أنجي التي كانت تجلس القرفصاء تحت قطعة من البلاستيك لكي لا تبتلّ لم تسمعه. انتبهت إلى وجوده حين أصبح على مقربة كبيرة منها بحيث رأت فكّيه مفتوحين على بعد أقل من متر من ساقيها. وفي جزء من الثانية مرّ في ذهنها تحذير ما بانفِسة، عرّافة السوق، فظنّت أنّ ساعتها الأخيرة قد أزفت ولم تحضرها الهمّة كي تستخدم البندقيّة التي كانت ترتاح بجانبها. فالغريزة والخوف جعلاها تتراجع قفزاً وتطلق عواءً محموماً أيقظ أصدقاءها. تردّد التمساح ثوانٍ وعاد ليهجم من جديد. راحت أنجي تجري، تعثّرت وسقطت وهي تتدحرج جانبيّاً كي تتملّص من الحيوان.

أوّل من هرع على صراخ أنجي كان ألِكساندر، الذي خرج للتو من كيس نومه، لأنّ دوره في الحراسة قد حان. أمسك، دون أن يُفكّر فيما يفعل، بأوّل شيءٍ وقع أمامه ووجّه بكلّ ما أوتي من قوّة ضربةَ عصى إلى مخطم البهيمة. كان الفتى يصرخ أكثر من أنجي ويوزّع الضربات والرفسات على غير هدى، فذهب نصفها دون أن يصيب التمساح. وعلى الفور هرع البقيّة لنجدته ونجدة أنجي، التي خرجت من المفاجأة وراحت تطلق النار من سلاحها دون تسديد. رصاصتان أصابتا الهدف، لكنّهما لم تخترقا حراشف التمساح. أخيراً جعلته ضربات ألِكساندر والصخب يتخلّى عن عشائه فانطلق منزعجاً وهو يخبط بذيله باتجاه النهر.

ـ كان تمساحاً! ـ صاح ألِكساندر متلعثماً ومرتعداً، غير قادر على أن يُصدّق أنّه قاتل واحداً من تلك المسوخ.

ـ تعالَ، أقبّلك، يا بُني، لقد أنقذتَ حياتي ـ نادته وهصرته على صدرها العريض.

شعر ألِكساندر بعظامه تُطقطِق وبأنّ خليطاً من رائحة الخوف وعطر الغاردينيا يخنقه، بينما أنجي تُغطّيه بقبلٍ رنّانةٍ وهي تضحك وتبكي بعصبية.

اقترب جول غونثالث ليتفحّص السلاح الذي استخدمه ألِكساندر.

ـ إنّها كاميرتي! ـ صاح.

كانت هي فعلاً وكان الغطاء الجلدي الأسود ممزّقاً لكنّ الكاميرا الألمانية الثقيلة قاومت المواجهة القاسية مع التمساح، دونما ضرر ظاهر.

ـ اعذرني، يا جول، ففي المرّة القادمة سأستخدم كاميرتي ـ قال ألِكساندر مشيراً إلى كاميرا الجيب الصغيرة.

انقطع المطرُ صباحاً فاستغلوا الطقس لغسل ثيابهم بصابون الكريولين القويّ الذي كانت أنجي تحمله بين معداتها، ونشروها لتجفّ تحت الشمس. أفطروا لحماً مشوياً وبسكويتاً وشاياً. كانوا يخططون الطريقة التي سيبنون بها عبّارة، تماماً كما سبق أن اقترح ألِكساندر في اليوم الأول، كي يبحروا إلى أسفل النهر نحو أقرب قرية، حين ظهر زورقان كانا يقتربان في النهر. جاء الفرج والفرح مدوّياً، إذ جرى الجميع وراحوا يطلقون صيحات الفرح، فرح الغرقى. عندما شاهدهم الملاحون من الزورقين أوقفوهما على مسافة وراحوا يجذفون بالاتجاه المعاكس ويبتعدون. كان على متن كلّ زورق شخصان، يرتدون البنطلونات القصيرة والقمصان الداخلية. حيّتهم أنجي صارخة بالإنكليزية ولغات أخرى محلّية استطاعت تذكّرها، راجية إيّاهم أن يعودوا، لأنّهم مستعدّون لأن يدفعوا لهم إذا ما ساعدوهم. تشاور الرجال فيما بينهم وانتصر أخيراً الفضول أو الجشع وبدؤوا يجذفون مقتربين من الضفّةِ بحذرٍ. تأكّدوا من وجود امرأة ممتلئة وجدّة غريبة، ومراهقين وشخص

نحيل يضع نظارة سميكة العدستين ورجال آخرين لا يبدون بدورهم مخيفين. كانوا بالأحرى يشكلون مجموعة مضحكة. وما إن اقتنعوا بأنّ هؤلاء الناس لا يشكلون خطراً عليهم، بالرغم من السلاح الذي في يد المرأة البدينة، حتى أومؤوا مُحيّين ونزلوا.

قدّم الواصلون الجدد أنفسهم على أنّهم قادمون من قرية على بعد أميال قليلة باتجاه الجنوب. كانوا أقوياء، مكتنزين، يكادون يكونون مربعي الشكل، بشرتهم شديدة السواد، ومسلحين بالمدى. كانوا حسب الراهب فِرناندو من عرق البانتو.

كانت الفرنسية، نتيجة الاستعمار، اللغةَ الثانية في المنطقة. وأمام دهشة حفيدها، راحت كات تتكلّمها بشكلٍ مقبول، واستطاعت أن تتبادل مع الصيّادين بعضَ الجمل. كان الراهب فِرناندو وأنجي يعرفان عدّة لغات أفريقية، ونقلوا ما لم يستطع أن يعبّر عنه الآخرون بالفرنسية. وضّحوا الحادث، أروهم الطائرة المعطّلة وطلبوا مساعدتهم للخروج من هناك. شرب البانتوويون البيرة، التي قدّموها إليهم، ساخنةً. والتهموا قطعاً من لحم الخنزير، لكنّهم لم يلينوا حتى اتفقوا على سعرٍ ووزّعت عليهم أنجي سجائرَ، استطاعت أن ترخي أعصابهم.

وفي هذه الأثناء ألقى ألِكساندر نظرة على الزورقين، وبما أنّه لم يجد أيّة أداة صيد، خلص إلى أنّ أولئك الأشخاص يكذبون وليسوا أهلاً للثقة. بقيّة المجموعة لم تكن مرتاحة أيضاً.

بينما راح رجال الزورقين يأكلان ويشربان ويُدخّنان، ابتعدت مجموعة الأصدقاء كي تُناقش الوضع. نصحتهم أنجي بألاّ يغفلوا، لأنّ باستطاعتهم أن يقتلوهم كي يسرقوهم، رغم أنّ الراهب فِرناندو صدّق أنّهم في مهمّتهم مرسلون من السماء.

ـ سيحملنا هؤلاء الرجال صاعدين النهر إلى نجوبي. حسب الخريطة... ـ قال.

ـ كيف يخطر لك ذلك ـ قاطعته أنجي ـ سنذهب إلى الجنوب، إلى ضيعة هؤلاء الرجال. لا بدّ أن تكون هناك وسيلة اتصال. عليّ أن أحصل على مروحة أخرى وأعود في طلب الطائرة.

ـ نحن على مقربة كبيرة من نجوبي، ولا أستطيع أن أترك رفيقيّ، فمن يدري أيّ بؤس يعانيان ـ أضاف الراهب فِرناندو.

ـ ألا ترى أنّه صار عندنا ما يكفي من المشاكل؟ ـ ردّت الطيارة.

ـ أنتِ لا تحترمين عمل المُبشّرين! ـ صاح الراهبُ فِرناندو.

ـ وهل تحترم أنت الديانات الأفريقية؟ لماذا تُحاول أن تفرض علينا معتقداتك ـ ردّت أنجي.

ـ على رسلكما، فعندنا مسائل أكثر إلحاحاً علينا أن نحلّها ـ استعجلتهما كات.

ـ أقترح أن ننفصل. من يرغب يذهب معك إلى الجنوب ومن يرد مرافقتي يذهب في الزورق الثاني إلى نجوبي ـ اقترح الراهب فِرناندو.

ـ ولا بشكلٍ من الأشكال! فنحن معاً أكثر أماناً ـ قاطعتها كات.

ـ لماذا لا نُخضع العملية للتصويت؟ ـ اقترح أَلِكساندر.

ـ لأنّ الديمقراطية لا تُطبّق في مثل هذه الحالة، أيّها الشاب ـ حكم المُبشّرُ.

ـ إذن لنترك الله يقرّر ـ قال أَلِكساندر.

ـ كيف؟

ـ لنرمِ قطعة نقديّة في الهواء: الطرّة للذهاب إلى الجنوب والنقش إلى الشمال. فهذا في يد الله أو الحظّ، كما تُفضّلون ـ وضّح الشاب مخرجاً قطعة نقدية من جيبه.

تردّدت أنجي نيندرِرا والراهب فِرناندو لثوان وراحا على الفور يضحكان. بدت لهما الفكرة مضحكة بشكل لا يُقاوَم.

ـ اتفقنا ـ صرخا بصوت واحد.

وافق الآخرون بدورهم. مرّر ألِكساندر القطعة النقدية إلى ناديا، التي قذفت بها في الهواء. قطعت المجموعة أنفاسها إلى أن سقطت على الرمل.

ـ نقش! سنذهب إلى الشمال ـ صرخ الراهب فِرناندو بانتصار.

ـ سأمنحك ما مجموعه ثلاثة أيّام. فإذا لم تعثر في هذه المهلة على أصدقائك سنعود. مفهوم؟ ـ زمجرت أنجي.

ـ بل خمسة أيّام.

ـ أربعة.

ـ حسناً أربعة أيّام ولا دقيقة أقل ـ وافق المبشّر مُكرهاً.

إقناع الصيادين المفترضين بحملهم إلى المكان المشار إليه على الخريطة جاء معقّداً أكثر من المُتَوَقّع. وضّح الرجال أنّه ما من أحد يُغامِر في تلك النواحي دون إذن من الملك كوسونغو، الذي لم يكن يستلطف الأجانب.

ـ ملك؟ في هذا البلد لا يوجد ملوك، هناك رئيس ومجلس نوّاب، يفترض أنها ديمقراطية... ـ قالت كات.

وضّحت لهم أنجي أنّ هناك، إضافةً إلى الحكومة الوطنية، عشائر وقبائل لها ملوك بل وبعض الملكات. دورهم رمزي أكثر مما هو سياسي، مثل بعض الملوك الذين ما زالوا موجودين في أوروبا.

ـ ذكر المُبشّران في رسائلهما ملكاً يُدعى كوسونغو، لكنّهما كان يشيران أكثر إلى القائد موريس مبِمبِلة. يبدو أنّ العسكريّ هو الذي يحكم ـ قال الراهب فِرناندو.

ـ ربّما لا يتعلّق الأمر بالقرية ذاتها ـ أبدت أنجي.

ـ لا شكّ عندي أنّها هي ذاتها.

- لا يبدو لي أنَّ من الحكمة أن ندخل في فم الذئب - علّقت أنجي.

- علينا أن نتحقّق مما جرى للمبشّرَيْن - قالت كاث.

- ماذا تعرف عن كوسونغو، أيّها الراهب فِرناندو؟ - سأل ألِكساندر.

- ليس كثيراً. يبدو أنّ كوسونغو مُغتَصِب، وضعه مْبِمبِلِهْ على العرش. قبله كان هناك ملكة، لكنّها اختفت. يُظنّ أنّهم قتلوها، لم يرها أحد منذ عدّة سنوات.

- وماذا حكى المُبشّران عن مْبِمبِلِهْ؟ - أصرّ ألِكساندر.

- درس عدّةَ سنواتٍ في فرنسا، التي طردته منها الشرطة - وضّح الراهب فِرناندو.

أضاف أنّ موريس مْبِمبِلِهْ دخل إلى الجيش بعد عودته إلى بلده، لكنّه هناك أيضاً أثار المشاكل بسبب مزاجه العنيف وغير المهذّب. اتُّهم بأنّه وضع نهايةً لتمرّدٍ قاتلاً عدداً من الطلاب وحارقاً بعض البيوت. وقد قبر قادته المشكلة في أرضها منعاً لظهورها في الصحافة. وتخلّصوا من القائد بأن أرسلوه إلى أكثر نقطةٍ مجهولة على الخريطة، آملين أن تتمكّن حمّيات المستنقعات ولسعات البعوض من أن تشفيه من سوء مزاجه أو تقضي عليه. هناك ضاع مْبِمبِلِهْ في كثافة الأدغال ومعه بعض الرجال الأوفياء له وظهر بعد فترة قصيرة في نجوبي. وحسب ما رواه المُبشّران في رسائلهما، عسكَرَ مبِمْبِلِهْ في القرية وراح يتحكّم من هناك بالمنطقة. كان قاسياً، يفرض على الناس أقسى العقوبات. قالوا إنّه في أكثر من مناسبة أكل كبدَ أو قلب ضحاياه.

- هذا أكل لحومِ بشرٍ طقسي، يظنون أنّهم بذلك يكسبون شجاعةَ وقوّةَ العدوّ المهزوم - وضّحت كاث.

- عيدي أمين، ديكتاتور أوغندة، اعتاد أن يقدّم وزراءه مشويين بالفرن للعشاء - أضافت أنجي.

ـ أكل لحوم البشر ليس نادراً كما نعتقد، فأنا رأيته في بورنيو منذ بضع سنوات ـ وضّحت كات.

ـ هل حقيقة حضرت عملية أكل لحوم بشر، يا كات...؟ ـ سأل ألِكساندر.

ـ حدث هذا في بورنيو، حين كنتُ أكتب تحقيقاً. لم أر كيف كان الناس يُطبَخون، إذا كنت تقصد ذلك، يا بُني، لكنّني عرفت ذلك مباشرة. وتفادياً لم آكل غير البقول المعلّبة ـ أجابته جدّته.

ـ أعتقد أنّني سأصبح نباتياً ـ خلص ألِكساندر مشمئزّاً.

حكى لهم الراهب فِرناندو أنّ المقدّم مبِمبِلِهْ لم يكن ينظر بعين حسنة إلى المبشّرين المسيحيين في بلاده. كان واثقاً من أنّهما لن يدوما كثيراً: فهما إن لم يموتا بمرض استوائيّ أو بحادث مناسب، سيهزمهما التعب والخيبة. سمح لهما ببناء مدرسة صغيرة ومستوصفاً بالأدوية التي حملاها معهم، لكنّه لم يسمح للأطفال أن يذهبوا إلى المدرسة، ولا للمرضى أن يقتربوا من البعثة. وقد كرّس الراهبان نفسيهما لتوعية النساء الصحية لكنّه منع حتى هذا. كانا يعيشان منعزلين تحت التهديد المتواصل، تحت رحمة نزوات الملك والمقدّم.

كان الراهب فِرناندو يشكّ من خلال الأخبار القليلة التي استطاع المبشّران أن يرسلاها إليه بأن كوسونغو ومبِمبِلِهْ يموّلان مملكة الرعب من خلال التهريب. ثمّ إنّ هناك يورانيوم لم يُستَغلّ بعد.

ـ والسلطات ألا تفعل شيئاً؟ ـ سألت كات.

ـ أين تظنين نفسك، يا سيّدة؟ يبدو أنك لا تعرفين كيف تُدار الأمور في هذه المناطق ـ ردّ الراهب فِرناندو.

قَبِل البانتوَّيين أن يحملوهم إلى أرض كوسونغو مقابل مبلغ من المال والبيرة والتبغ بالإضافة إلى سكينين. وبقية المؤن وضعت

في أكياس؛ خبّؤوا في أسفلها الكحول والتبغ، التي كانت أثمن عندهم من المال، ويمكن أن تُدفَع مقابل الخدمات والرشوات. ومعلبات السردين، وعصير الدراق، والكبريت، والسكر، والحليب المجفّف، والصابون، كلّها كانت قيمتها عالية أيضاً.

ـ لن يلمس فودكايَ أحد ـ دمدمت كات كولد.

ـ أكثر ما نحتاجه هو المضادات الحيوية وحبوب الملاريا والمصل ضدً لسعات الأفاعي ـ قالت أنجي، وهي تحزم صيدلية إسعاف الطائرة، التي كانت تحتوي أيضاً على حقن المخدر الذي أعطاه لها ميشيل موشاحا كعيّنة.

ـ قلب البانتوويون الزوارق ورفعوهما بعصا كي يرتجلوا سقفين ارتاحوا تحتهما، بعد أن شربوا وغنّوا بأعلى أصواتهم حتى ساعة متأخرة. ظاهرياً لم يكونوا يخافون من البيض والحيوانات. بالمقابل لم يكن البقيّة يشعرون بالأمان، فقد بقوا متشبّثين بأسلحتهم وأمتعتهم ولم تغمض لهم عين لمراقبة الصيادين، الذين كانوا ينامون ملء جفونهم. أشرقت الشمس بعد الخامسة بقليل. بدا المشهد الملفوف بضباب غامض لوحة مائية رقيقة. وبينما راح الأجانب المنهكون يجهزون أنفسهم للسفر كان البانتوويون يجرون على الرمل ويشوطون كرة من الخرق في لعبة كرة قدم محتدمة.

أقام الراهب فرناندو مذبحاً صغيراً يعلوه صليب من عودين ودعاهم للصلاة. اقترب البانتوويون فضولاً والبقية مجاملة، لكنّ الوقار الذي منحه للعملية أثّر في الجميع، بمن فيهم كات، التي رأت في أسفارها طقوساً هي من التنوع ما جعلها لا تُدهَش من أيّ منها.

حمّلوا الزورقين النحيلين، مُوَزِّعين وزن المسافرين والأمتعة بأفضل ما أمكن، وتركوا في الطائرة ما لم يستطيعوا حمله.

ـ آمل ألاّ يأتي أحد في غيابنا ـ قالت أنجي وهي تربّت ربتة وداع *للصقر الخارق*.

رأسمالها الوحيد في هذا العالم، الذي تخشى أن يسرقوه حتى

آخر برغي. «أربعة أيام ليست كثيرة» همست لنفسها، لكنّ قلبها انقبض ممتلئاً بالأفكار السيئة. أربعة أيّام في هذه الأدغال أبدية.

انطلقوا قرابةَ الساعة الثامنة صباحاً. علّقوا الخيش مظلاتٍ في الزورقين كي يحموا أنفسهم من الشمس، الذي كان يضطرم أوارها فوق رؤوسهم بلا رحمة حين راحوا يمخرون وسط النهر. وبينما كان الأجانب يعانون من العطش والحرّ يُحاصرهم النحل والذباب راح البانتوويون يجذفون بعكس التيار دون جهد، يُشجِّع بعضهم بعضاً بالمزاح والجرعات الطويلة من نبيذ النخيل، الذي يحملونه معهم في علب بلاستيكية. كانوا يحصلون عليه بأبسط الطرق: يجرحون الجذعَ على شكل حرف «V» في قاعدة جذع النخلة، يعلقون تحته قرعة وينتظرون حتى تمتلئ بنسغ الشجرة، ويتركونه بعدها ليتخمّر.

كان هناك صخب طيور في الجو واحتفال لعدد من الأسماك في الماء؛ شاهدوا أفراس نهر، ربّما العائلة ذاتها التي وجدوها على الضفّة في الليلة الأولى، ونوعين من التماسيح، نوع رمادي وآخر بنيّ محروق أصغر. أنجي التي أصبحت بمنجاة في الزورق استغلت الوضع وغطّتها بالسباب. أراد البانتوويون أن يصطادوا واحداً من أكبرها، يستطيعون أن يبيعوا جلده بسعر جيّد، لكنّ أنجي جنّ جنونها كما لم يقبل الآخرون أن يشاطرهم الحيوانُ مساحة المركب الضيّقة، مهما ربطوا مخطمه وأرجله: فقد ملكوا فرصة ليقدّروا صفَّي أسنانه المتجدّدة وقوّة ضربات ذيله.

أفعى داكنة مرّت ملامسةً أحد الزورقين، سرعان ما انتفخت وتحوّلت إلى طائر مخطّط الجناحين الأبيضين والذيل الأسود، ارتفعت واختفت في الغابة. بعد ذلك حلّق فوق رؤوسهم ظلّ كبير، فصرخت ناديا صرخة العارف: إنّه نسر متوّج. روت أنجي أنّها رأت واحداً منها يرفع بمخالبه غزالاً. أزهار نيلوفر بيضاء بين أوراق شحمية كبيرة تشكّل جزراً عليهم أن يتجنبوها بحذرٍ تفادياً لاشتباك الزوارق بجذورها. كانت النباتات ملتفّةً على الضفتين، تتدلى منها

اللبالبُ الاستوائية والسراخس والجذور والأغصان. ومن حين لآخر تظهر نقاط ملونة في خضرة الطبيعة الموحّدة: سحلبيات بنفسجية وحمراء وصفراء ووردية.

أبحروا قسماً كبيراً من النهار باتجاه الشمال. لم يُبَدّل المجذّفون، الذين لا يتعبون، إيقاعَ حركاتهم ولا حتى في أكثر الساعات قيظاً، في الوقت الذي يكادُ يُغمى فيه على الآخرين. لم يتوقّفوا ليأكلوا، اضطرّوا لأنّ يكتفوا بالبسكويت والماء المعبّأ وبحفنة من السكّر. ما من أحد منهم أراد سردينا، كانت رائحته وحدها تقلب معداتهم.

عند العصر والشمس ما تزال مرتفعة، بينما الحرّ انخفض قليلاً أشار أحد البانتوويين إلى الضفّة. توقّف الزورقان. كان النهر يتفرّع إلى ذراع عريض يتابع نحو الشمال وقنال ضيقة نحيلة تتوغّل في الغابة الكثيفة إلى اليسار. عند مدخل القنال شاهدوا شيئاً على الأرض اليابسة بدا فزّاعة طيور. كان تمثالاً خشبياً بحجم الإنسان، له رأس غوريلا، فمه مفتوح كما لو أنّه يصرخ صرخة رعب. في محجر العينين حجران كريمان معشقان ويرتدي الرافيا والريش وشرائط الجلد. كان الجذع مليئاً بالمسامير، والرأس متوّج بعجلة دراجة غير لائقة على شكل قبّعة. علّقوا إليها عظاماً وأيدٍ مقدّدة، ربما كانت أيدي قردة. كانت تُحيط به عدّة دمى، مريعة بدورها، وجماجم حيوانات.

ـ إنها دمى سحرٍ شيطانية! ـ صاح الراهب فِرناندو وهو يرسم إشارة الصليب.

ـ إنّها أبشع قليلاً من قديسي الكنيسة الكاثوليكية ـ أجابته كات بنبرةٍ سخرية لاذعة.

ركّزَ جول غونثالِث وألِكساندر بوْرتي كاميرتيهما.

أعلنَ البانتوويون مذعورين أنّهم سيصلون إلى هناك فقط،

وعلى الرغم من أنّ كات أغرتهم بالمال والسجائر فقد رفضوا المتابعة. وضّحوا أن ذلك المذبح المروّع يشير إلى حدود أراضي كوسونغو. من هناك وما بعده مناطق نفوذه، ولا أحد يستطيع أن يتوغّل فيها دون إذنه. وأضافوا أنّ باستطاعتهم أن يصلوا إلى القرية قبل حلول الليل باتباع أثر في الغابة. لم تكن بعيدة، قالوا، ساعة أو ساعتان من المسير. عليهم أن يهتدوا بالأشجار المُعلَّمة بضربات الحراب. أرسى المجذّفون مركبيهما الهشّين على الضفة وراحوا يرمون بالأمتعة إلى اليابسة دون أن ينتظروا التعليمات.

دفعت لهم كاتْ جزءاً من المبلغ واستطاعت بفرنسيتها السيّئة ومساعدة الراهب فِرناندو أبلاغهم بأنّ عليهم أن يعودوا في طلبهم إلى تلك النقطة ذاتها خلال أربعة أيّام، وعندها يستلموا بقية المبلغ الموعود ومكافأة من السجائر ومعلبات عصير الدراق. قبل البانتوويون بابتسامات زائفة، تراجعوا متعثرين وتسلقوا زورقيهما، وابتعدوا كأنّ الشياطين تُلاحقهم.

ـ يالهم من غريبي الأطوار! ـ علّقت كات.

ـ أخشى ألا نراهم ثانية ـ أضافت أنجي مشغولةً.

ـ الأفضل أن نشرع بالمسير قبل أن تعتم ـ قال الراهب فِرناندو وهو يضع الحقيبة على ظهره ويأخذ صرّتين.

6

الأقزام

الأثر الذي بشّر به البانتوويين لم يكن مرئيّاً. حَدَثَ أنّ الأرض موحلة مزروعة بالجذور والأغصان، وكثيراً ما تغوص الأقدامُ في قشدة طرية من الحشرات والعلق والديدان. جرذان بدينة وكبيرة كالكلاب تنزلق عند مرورهم، ومن حسن الحظّ أنّهم كانوا ينتعلون جزمات تصل إلى نصف سيقانهم، تحميهم على الأقل من الأفاعي. وبلغت الرطوبة حدّاً جعل ألِكساندر وكات يخلعان نظارتيهما المغبشتين، بينما كان على الراهب فِرناندو الذي كان لا يكاد يرى بدونها أن ينظفها كلّ خمس دقائق. لم يكن من السهل اكتشاف الأشجار المعلّمة بالسواطير في تلك الأدغال الكثيفة.

ومرّة أخرى تأكّد ألِكساندر أنّ الطقس الاستوائي يُنهك الجسد ويحدث لامبالاة ثقيلة في النفس. اشتاق للبرودة النظيفة والمنعشة للجبال المثلجة، التي يتسلّقها عادةً مع أبيه، ويُجِبّها كثيراً. فكّر أنّه إذا كان هو يشعر بالاختناق فلا بدّ أنّ جدّته على حافّة أن تصاب بنوبة قلبية، لكنّ كات نادراً ما كانت تشكو. فالكاتبة لم تكن مستعدة لأن تسمح للشيخوخة بأن تهزمها. كانت تقول إنّ الشيخوخة تظهر حين يحني المرء ظهره وتصدر عنه أصوات، وسعال ونحنحة وطقطقة عظام وأنين. لذلك كانت تسير منتصبةَ القامة دون أن تحدث جلبة. كانت المجموعة تمضي متلمسة طريقها بينما القردة ترميهم

بقذائفها من فوق الأشجار. كان لدى الأصدقاء فكرة عامّة عن الاتجاه الذي عليهم أن يتبعوه، لكنهم لا يقدرون المسافة التي تفصلهم عن القرية، وأقل من ذلك نوع الاستقبال الذي ينتظرهم.

ساروا أكثر من ساعة، لكنّهم لم يتقدّموا إلاّ قليلاً. كان من المحال تسريع الخطو في تلك الأرض، واضطروا أن يجتازوا عدّة مستنقعات يصل فيها الماء حتى الخصر. خطت أنجي نيندِررا في أحدها خطوة ناقصة فأطلقت صرخة حين أدركت أنّها تغوص في طين متحرّك وأن جهودها للإفلات غير مجدية. أمسك الراهب فِرناندو وجول غونثالِث بطرف البندقية وتشبّثت هي بالطرف الآخر بكلتا يديها وهكذا سحباها إلى اليابسة. أفلتت أنجي خلال العملية الصرة التي كانت تحملها.

ـ فقدت كيسي ـ صاحت حين رأت أنّه يغوص في الوحل دون أية إمكانية لانتشاله.

ـ لا يهمّ، يا آنسة، المهم هو أنّنا استطعنا أن نُخرجك ـ ردّ الراهب فِرناندو.

ـ كيف لا يهمّ؟ فيه سجائري وقلم حمرتي!

تنفّست كات الصعداء: على الأقل لن تشمّ رائحة تبغ أنجي الرائعة، فالإغواء كان أكبر من اللازم.

استغلوا بركة ماء ليغتسلوا قليلاً، لكنّهم اضطروا أن يذعنوا للطين الداخل في جزماتهم. كان ينتابهم إحساس مزعج بأنّهم مراقَبون من الأدغال.

ـ أظنّ أنّهم يتجسّسون علينا ـ قالت كات أخيراً، غير قادرة على تحمّل التوتر زمناً أطولَ.

جلسوا في حلقة، مُسلّحين بترسانتهم المحدودة: مسدس وبندقية أنجي وحربة وزوج من السكاكين.

ـ حمانا الله ـ تمتم الراهب فِرناندو، الدعاء الذي كان يفلت من شفتيه في كلّ مرّة أكثر ـ انبثقت بعد دقائق قليلة من الأدغال هيئاتٌ إنسانية صغيرة كالأطفال، لا يدرك أطولهم المتر والنصف. كانت بشرتهم بلون القهوة الضاربة للصفرة، سيقانهم قصيرة وأذرعهم وجذوعهم طويلة وعيونهم متباعدة جداً، وأنوفهم مفلطحة وشعرهم مجمّع في خصل.

ـ لا بدّ أنّهم أقزام الغابة المشهورون ـ قالت أنجي وهي تُحيّيهم بحركة.

لا يكاد يستر عورتهم مئزر، بعضهم يرتدي قميصاً ممزّقاً يصل إلى أسفل ركبتيه. كانوا مسلّحين برماح، لكنّهم لا يُلوِّحون بها مُهدّدين، بل يستخدمونها كعكّازات. اثنان منهم يحملان شبكةً ملفوفة على عصا. انتبهت ناديا إلى أنّها مماثلة لتلك التي وقعت فيها الغوريلا في المكان الذي هبطوا فيه بالطائرة على بعد أميال كثيرة من هناك. ردّ الأقزام على تحيّة أنجي بابتسامة واثقة وببعض الكلمات الفرنسية، ثمّ انطلقوا في ثرثرة لا تنقطع بلغتهم التي لم يفهمها أحد.

ـ هل تستطيعون أن تأخذونا إلى نجوبي ـ قاطعهم الراهب فِرناندو.

ـ نجوبي؟ لا...لا... ـ صاح الأقزام.

ـ يجب أن نذهب إلى نجوبي ـ أصرّ المُبشّر.

تبيّن أن صاحب القميص هو أفضل من يستطيع التواصل معهم، فقد كان يعرف، إضافة إلى المفردات الفرنسية المحدودة، عدداً من الكلمات الإنكليزية. عرّف بنفسه أنّه بيَيه ـ دوكو. أشار إليه آخر على أنّه *توما* العشيرة، أي أفضل صيّاد. أخرسه بيَيه ـ دوكو بدفعة مودّة، لكنه بدا من تعبير الرضا على وجهه فخوراً بلقبه. راح البقيّةُ يضحكون مقهقهين، ساخرين منه بأعلى أصواتهم. أيّ أثر للغرور كان يُنظر إليه بين الأقزام نظرة سوء كبيرة. غاص بيَيه ـ دوكو

برأسه بين كتفيه خجلاً. بصعوبة قليلة استطاع أن يوضّح لكات أنّ عليهم ألاّ يقتربوا من القرية، لأنّها مكان في غاية الخطورة، وأن عليهم أن يبتعدوا قدر استطاعتهم من هذا المكان.

ـ كوسونغو، مبمبِلِهْ، سومبِ، جنود... ـ كان يُردّد ويقوم بحركات رعب.

عندما أبلغوه أنّ عليهم أن يذهبوا إلى نجوبي مهما كلّف الثمن، وأنّ الزورقين لن يعودا في طلبهم إلاّ بعد أربعة أيّام، بدا مشغولاً جداً. تشاور مع رفاقه طويلاً، وأخيراً عرض عليهم أن يقودهم عبر طريق سرّي في الغابة عائداً بهم إلى المكان الذي تركوا فيه الطائرة.

ـ يجب أن يكونوا هم من وضع الشبكة التي وقعت فيه الغوريلا ـ علّقت ناديا، مراقبة تلك التي كان يحملها اثنان من الأقزام.

ـ يبدو أنّ فكرة الذهاب إلى نجوبي لا تبدو لهم مقنعة تماماً ـ علّق ألِكساندر.

ـ سمعتُ أنّهم الكائنات البشرية الوحيدة القادرة على العيش في أدغال المستنقعات. يستطيعون أن يتنقّلوا في الغابة ويهتدوا بالغريزة. من الأفضل لنا أن نذهب معهم، قبل أن يصبح الوقت متأخّراً جدّاً ـ قالت أنجي.

ـ ها نحن هنا وسنتابع إلى قرية نجوبي. أليس هذا هو ماتفقنا عليه؟ ـ قالت كات.

ـ إلى نجوبي ـ كرّر الراهب فِرناندو

عبّر الأقزام بإيماءات بليغة عن التهور الذي يعنيه ذلك برأيهم، لكنّهم قبلوا أخيراً أن يقودوهم. تركوا الشبكة تحت شجرة ونزعوا الصرر والحقائب من الأجانب، دون أيّة إجراءات أخرى، وضعوها على ظهورهم وراحوا يختبّون بين السراخس بسرعة جعلت من الصعب عليهم أن يلحقوا بهم. كانوا أقوياء ورشيقين جداً، يحمل كلّ واحدٍ منهم أكثر من ثلاثين كيلوغراماً، لكنّ هذا لم يكن يزعجهم

فعضلات أرجلهم وأذرعهم كانت من إسمنت مسلح. وبينما رجال البعثة يلهثون، يكادُ يُغشى عليهم من الإنهاك والحرّ، كان الأقزام يجرون بخطوات قصيرة وأقدامهم إلى الخارج مثل البطّ، دون أدنى جهد ودون أن يتوقّفوا عن الكلام.

حكى لهم بِيَية ـ دوكو عن الشخصيات الثلاث المذكورة سابقاً، الملك كوسونغو والقائد مبِمْبِلِة وسومبٍ، الذي وصفه بأنه ساحر رهيب.

وضّح لهم أنّ الملك كوسونغو لا يطأ أبداً الأرضَ بقدميه، لأنّه لو فعل لاهتزّت. قال إنهّ يُغطي وجهَه كيلا يرى أحد عينيه، فهما من القوّة بحيث أنّ نظرةً واحدة منهما يمكن أن تقتل عن بُعد. لم يكن كوسونغو يُوَجّه كلامَه لأحد، لأنّ صوته مثل الرعد: يصمّ الناس ويرعب الحيوانات. الملك كان يتكلّم فقط عبر الفم الملكي، وهو شخصية من أهل البلاط مدرّب على تحمّل قوّة الصوت الجبارة، وكان يقوم أيضاً بمهمّة تجريب طعامه تفادياً لتسميمه أو إيذائه بالسحر الأسود من خلال الطعام. ونبّههم إلى أن يُبقوا على رؤوسهم أخفض من رأس الملك. الصحيح هو أن يسقطوا على وجوههم ويزحفوا في حضرته.

وصف رجلُ القميص الأصفر الصغير مبِمبِلِة وهو يسدّد بسلاح خفيّ، يطلق النار ويسقط على الأرض كأنّه ميت، ويضرب أيضاً بالرمح، يقطع أيدٍ وأقداماً بساطور أو فأس. لم يكن بمقدور الإيماء أن يكون أكثر وضوحاً. وأضاف أنّ عليهم ألاّ يُعارضوه أبداً. لكن كان واضحاً أنّ أكثر من يخشاه هو سومبٍ. فمجرّد اسم الساحر يُدخل الأقزام في حالة من الرعب.

كان الدربُ خفيّاً لكنّ أدلّتهم الصغار جابوه مرّاتٍ كثيرةً ولا يحتاجون للتقدم فيه العودة إلى العلامات على الأشجار. مرّوا أمام منطقة مكشوفة في الأدغال الكثيفة، توجد فيها دمى أخرى تشبه تلك

التي رأوها من قبل، لكنّ لون هذه ضارب للحمرة، يُشبِه الصدأ. حين اقتربوا تبيّنوا أنّه دم جاف. حولهم كانت تنتشر أجران قمامة وجثث حيوانات وثمار متفسخة وقطع منيهوت وقرعات فيها سوائل متنوعة، قد تكون نبيذ نخيل ومشروبات روحية أخرى. كانت الرائحة لا تُطاق. رسم الراهب فِرناندو إشارة الصليب؛ وذكّرت كات جول غونثالِث المرعوب أنّه هناك كي يلتقط صوراً:

ـ آمل ألاّ يكون دماً بشرياً، بل دم حيوانات مضحى بها ـ تمتم المصوّر.

ـ قرية الأسلاف ـ قال بِيّيهْ ـ دوكو، مشيراً إلى الدرب الضيق الذي يبدأ من الدمية ويضيع في الغابة.

وضّح أنّ عليهم أن يدوروا كي يصلوا إلى نجوبي، لأنّه لا يمكن المرور في أملاك الأسلاف، حيث تهيم أرواحُ الموتى. تلك كانت قاعدة أمن أساسية: وحده الأبله أو المعتوه من يُغامر في هذه المنطقة.

ـ لمن هؤلاء الأسلاف؟ ـ استقصت ناديا.

وجد بِيّيهْ ـ دوكو صعوبةً قليلةً في فهم السؤال، لكنّه التقطه أخيراً بمساعدة الراهب فِرناندو.

ـ إنّهم أسلافنا ـ وضّح مشيراً إلى رفاقه، وموميّاً كي يدل على أنّهم كانوا قصيري القامة.

ـ هل كوسونغو ومبمبِلِهْ لا يقتربان أيضاً من قرية أشباح الأقزام؟ ـ ألحّت ناديا.

ـ لا أحد يقترب، فالأرواح إن أُزعِجت انتقمت، دخلت أجسامَ الأحياء وسيطرت على إرادتهم وأوقعت أمراضاً ومعاناةً وموتاً أيضاً ـ أجاب بِيّيهْ ـ دوكو.

أشار الأقزام إلى أنّ على الغرباء أن يستعجلوا، لأنّ أرواح الحيوانات تخرج بدورها ليلاً لتصطاد.

ـ كيف تعرفون أنّها روح حيوان أو روح عامّة وعادية؟ ـ سألت ناديا.

ـ لأنّ الطيف ليست له رائحة الحيوان. فالفهد الذي له رائحة ظبي، أو الأفعى التي لها رائحة فيل، طيف ـ وضّحوا لها.

ـ يجب أن يتمتع المرء بحاسّة شم جيّدة ويقترب كثيراً كي يميّزها ـ سخر ألِكساندر.

حكى بِيَية ـ دوكو لهم أنهم لم يكونوا يخافون الليلَ أو أرواحَ الحيوانات في السابق، ويخافون فقط من الأسلاف، لأنّ إيبِمْبا ـ أفوَا كان يحميهم. أرادت كات أن تعرف ما إذا كان الأمر يتعلّق بآلهة ما، لكنّه أخرجها من خطئها: كان تميمة مقدّسة تملكها قبيلته منذ أزمنة غابرة. ومن التوضيحات التي استطاعوا أن يفهموها، وجدوا أنّ الأمر يتعلق بعظم بشري يحتوي على مسحوق أبديًّ، يشفي من أمراضٍ كثيرة. وقد استخدموا هذا المسحوق مرّات لا تُحصى عبر أجيالٍ كثيرة دون أن ينضب. في كلّ مرّة كانوا يفتحون فيها العظمَ يجدونه ممتلئاً بذلك المنتوج السحري. إيبِمبا ـ أفوَا كان يمثل روح شعبهم، قالوا، كان مصدر صحتهم وقوّتهم وحسن حظّهم في الصيد.

ـ وأين هو؟ ـ سأل ألِكساندر.

أخبرهم والدمع في عينيه أنّ مبِمبِلِة سطا على إيبمبا ـ أفوَا، وهو الآن تحت سيطرة كوسونغو. وطالما أنّ الملك يملك التميمة سيبقون تحت رحمته بلا روح.

دخلوا نجوبي مع آخر أنوار المساء، حين بدأ سكانها يُشعلون المشاعل والصلاءات لينيروا القرية. مرّوا قبل ذلك بمزارع منيهوت وقهوة وموز هزيلة وزريبتين خشبيّين عاليتين ـ ربّما للحيوانات ـ وصفّ من أكواخ بلا نوافذ، جدرانها ملتوية وأسقفها مهدّمة. بعض الأبقار طويلة القرون تمضغ عشب الأرض، وفي كلّ مكان تجري دجاجات نصف منتوفة الريش وكلاب جائعة وقرود بريّة. على بعد

أمتار ينشق شارع عريض أو ساحة مركزية واسعة أكثر لياقة، محاطة بالمساكن وبأكواخ ذات أسقف من التوتياء المتوّج أو القشّ.

أحدث وصولُ الغرباء بلبلةً وهرع أهل القرية خلال دقائق قليلة ليروا ما الذي يحدث. كانوا يبدون من مظهرهم بانتوويّين، مثل أصحاب الزورقين، الذين حملوهم إلى تفرّع النهر. نساء في أسمال وأطفال عراة يشكلون كتلة صماء بجانب الفناء، الذي شقّوا طريقهم فيه، بين السكان، وأطولُ أربعة كانوا لا شكّ من سلالة أخرى. كانوا يرتدون بنطلونات عسكرية موحّدة وممزّقة، ومسلحين ببنادق قديمة وأحزمة رصاص. بينهم واحد يضع قبّعة مستكشف مع بعض الريش ويرتدي قميصاً داخلياً، وينتعل صندلاً بلاستيكيّاً. كان الآخرون عراةَ الجذوع وحفاة، ويتزينون بشرائط من جلد الفهد، مربوطة إلى عضلاتهم أو حول رؤوسهم، وعلى خدودهم وأذرعهم آثار جروح طقسية. كانت خطوطاً مُخبخبة كما لو أنّ هناك تحت الجلد حصى أو خرز مُعَشّق.

تبدّل موقفُ الأقزام مع ظهور الجنود، واختفت فرحة الرفقة والأمان التي أظهروها في الغابة فجأةً، رموا بحمولتهم على الأرض، طأطؤوا رؤوسهم، وانسحبوا مثل كلاب مضروبة. بِيَيهْ ـ دوكو كان الوحيد الذي تجرّأ على القيام بإيماءة وداع خفيفة للغرباء.

سدّد الجنود أسلحتهم على الواصلين الجدد ونبحوا ببعض الكلمات بالفرنسية.

ـ مساء الخير ـ حيّت كات، التي كانت على رأس الصف، بالإنكليزية ولم يخطر لها شيء آخر تقوله.

تجاهل الجنودُ يدها الممدودة، أحاطوا بهم ودفعوهم بسبطانات الأسلحة ووجوههم إلى جدار كوخ أمام أعين الناظرين.

ـ كوسونغو، مبِمبِلِهْ، سومبِ... ـ صاحت كات.

تردّد الرجالُ أمام رهبة هذه الأسماء وبدؤوا يتناقشون بلغتهم.

تركوا المجموعةَ تنتظر زمناً بدا سرمدياً، بينما ذهب واحد منهم بحثاً عن تعليمات.

انتبه أَلِكساندر إلى أنّ بعضَ الأشخاص تنقصه يدٌ أو أذنان. كما رأى أنّ في وجوهِ بعض الأطفال، الذين يراقبون المشهد عن مسافة، تقرحات رهيبة. وضّح له الراهب فِرناندو أنّ سببها فيروس ينقله الذباب، فهو رأى الشيءَ ذاته في معسكرات اللاجئين في رواندا.

ـ تُشفى بالماء والصابون، لكن، يبدو أنّه حتى هذا غير متوافر هنا ـ أضاف.

ـ ألم تقل إنّ المبشِّرَين يملكان مستشفى؟ ـ سأل أَلِكساندر.

ـ هذه التقرحات علامة في غاية السوء يا بُني، وتعني أنّ رفيقيَّ ليسا هنا، وإلاّ لكانا شفياها ـ ردّ المُبشِّر مشغولاً.

عاد الساعي بعد برهة طويلةٍ، بعد أن أطبق الليلُ، بأمرِ حملِهم إلى شجرة الكلمات، حيث تُقرّر شؤون الحكومة. أشاروا إليهم أن يأخذوا أمتعتهم ويتبعوهم.

ابتعد الحشدُ مُفسِحاً الطريق وعبرت المجموعةُ الفناءَ أو الساحة التي تشطر القرية. رأوا في الوسط أنّ شجرة رائعة ترتفع وتُغطي بأغصانها عرضَ الفناء وطولَه، مثل مظلّة. كان قطر الجذعِ يُقارب ثلاثة أمتار والجذور الغليظة المعرضة للهواء تسقط مثل مجسات طويلة من الأعلى وتغوص في الأرض. هناك كان ينتظر كوسونغو الرهيب.

كان الملك على منصّة، يجلس على كرسيّ من القماش الأحمر المزأبر والخشب المذهب والقوائم الملتوية، من الطراز الفرنسي القديم. على الجانبين ينتصب نابا فيل موضوعان عمودياً والأرض يُغطِّيها عدد من جلود الفهود. والعرش تُحيط به سلسلة من التماثيل

الخشبية ذات التعابير المرعبة والدمى السحرية. ثلاثة موسيقيين بسترات عسكرية موحدة زرقاء، لكن بلا بنطلونات وحفاة يضربون ببعض العصي. مشاعل يصدر عنها دخان وصلاءات نار تُضيء الليل، مضفية على المشهد جوّاً مسرحياً.

كان كوسونغو مزدهياً بمعطف موشّى بالكامل بالأصداف والريش وأشياء أخرى غير متوقّعة، مثل سدّادات القناني وبكرات الأفلام والطلقات. لا بدّ أن المعطف يزن قرابة الأربعين كيلوغراماً. ثمّ إنّه كان يضع قبّعة هائلة بارتفاع متر، مزيّنة بأربعة قرون ذهبية، رمز القوّة والشجاعة. وكان يزدهي بأطواق من أنياب الأسود، وعدد من التمائم ويلفّ خصره بجلدٍ أفعى أصلةٍ. ستارة من الخرز الزجاجي والذهبي تُغطي وجهَهُ. عكازٌ من الذهب الخالص ينتهي برأس قرد محنط في المقبض، يستخدمه صولجاناً أو عصا. يتدلى من العكاز عظمٌ منقوش برسوم دقيقة، يبدو من حجمه أنّه قصبة ساق إنسان. استخلص الغرباء أنّه يمكن أن يكون إيبمبا - أفوا، التميمة التي وصفها لهم الأقزام. كان الملكُ يستعمل في أصابعه خواتم ذهبية كبيرة الحجم، على شكل حيوانات وأساور سميكة، من المعدن ذاته، تُغطّي ذراعيه حتى المرفقين. كان منظره مثيراً مثل منظر الملوك الإنكليز يوم تتويجهم وإن كان بأسلوب آخر.

في نصف الدائرة حول العرش حرّاس الملك ومساعدوه. كانوا يبدون بانتوويّين، مثل بقيّة سكان القرية، بينما الملك ظاهريّاً من سلالة الجنود ذاتها. وبما أنّه كان جالساً يصعب تقدير حجمه، لكنّه يبدو هائلاً، على الرغمِ من أن هذا قد يكون بتأثير المعطف والقبّعة. لم يظهر القائد موريس مبِمبِلِهْ والساحر سومبِ في أيّ مكان.

لم تكن النسوة والأقزام يشكلون جزءاً من الحاشية الملكية، لكن كان هناك خلف الستارة الذكرية قرابة عشرين امرأة يافعة يتميزن عن بقية سكان نجوبي بأنّهن يرتدين ملابس بهية الألوان، ومزينات بمجوهرات ذهبية. راح المعدن الأصفر يلمع على الجلد الداكن تحت

نور المشاعل المتذبذب. بعضهنّ يحملن بين أذرعهنّ أطفالاً، وحولهن عدد آخر من الأطفال يلعبون. استنتجوا أنّها يمكن أن تكون العائلة الملكية. لفت انتباههم أن النسوة يظهرن مذعنات مثلهن مثل الأقزام، ولا يشعرن بالفخار بمكانتهنّ الإجتماعية، بل بالخوف.

أعلمهم الراهب فِرناندو أنّ تعدّد الزوجات أمرٌ شائع في أفريقيا، وفي كثير من الأحيان يدلّ عددُ الزوجات والأبناء على القوة الاقتصادية والمكانة. في حالة الملك، كلّما زاد عدد أبنائه كلّما ازدهرت أمّته أكثر. من هذه الناحية كما من نواح أخرى مثيرة لم يغيّر التأثير المسيحي والثقافة الغربية كثيراً في العادات. غامر المبشّرُ بالقول أن من المحتمل أنّ نساء كوسونغو لم يخترن قدرهنّ بل أُجبرن على الزواج.

دفع الجنودُ الأربعة الطوال الأجانبَ مشيرين إلى أنّ عليهم أن يركعوا أمام الملك. حين حاولت كات أنْ ترفع نظرها أجبرتها ضربةٌ على رأسها على التراجع فوراً. وهكذا بقوا دقائقَ، طويلة ومزعجة، بالعينَ غبار الساحة، مذلّين، مرتعدين إلى أن توقّف ضرب عصي الموسيقيين ووضع صوتٌ معدني حدّاً للانتظار. تجرّأ الأسرى على النظر إلى العرش: كان العاهِل الغريب يهزّ بيده جرساً ذهبياً.

وحين تلاشى رجعُ الجرس، تقدّم أحدُ المُستشارين وهمس الملكُ شيئاً في أذنه. توجّه الرجلُ إلى الأجانب بخليطٍ من الفرنسية والإنكليزية والبانتوية ليُعلن بنوع من التمهيد أنّ كوسونغو قد تمّ تعيينه من الله وأن مهمّته في الحكم إلهية. عاد الأجانب ليطمروا أنوفهم في الغبار، دون همّة للشك بهذا التأكيد. أدركوا أنّ الأمر يتعلّق بالفم الملكيّ، كما وضّح لهم بِيَيِة ـ دوكو. وسرعان ما سأل الناطِقُ عن الهدف من تلك الزيارة إلى أملاك الملك العظيم كوسونغو. نبرته المتوعّدة لم تترك مجالاً للشكِ بما كان يُفكّر حول المسألة. مامن أحدٍ أجاب. الوحيدان اللذان فهما سؤاله هما كات والراهب

فِرناندو، لكنّهما كانا مختنقين ويجهلان البروتوكول ولا يريدان المجازفة بارتكاب حماقة؛ ربّما كان السؤال مجرد بيان والملك لاينتظر جواباً عليه.

انتظر الملكُ ثوانٍ وسط صمتٍ مُطبق ثمّ هزّ من جديد جرَسَه وهو ما فهم الشعب أنّه أمر. بدأ أهلُ القرية كلّهم، باستثناء الأقزام، يصرخون ويُهدّدون بقبضاتهم مُغلقين الدائرة حول مجموعة الزائرين. من الغريب أنّها لم تبد تمرّداً شعبياً بل مشهداً مسرحياً يقوم به ممثلون سيّئون؛ لم يكن في الهياج أدنى حماس، بل إنّ بعضهم كان يضحك مواربا. الجنود الذين كان بحوزتهم أسلحة نارية توّجوا المظاهرةَ الجماعية برشقةٍ من النيران في الهواء أحدثت إجفالاً في الساحة. كبار وصغار، قردة وكلاب ودجاج، راحوا يجرون بحثاً عن ملاذ في أبعد مكان ممكن، الوحيدون الذين بقوا تحت الشجرة هم الملك ورجال بلاطه المحدودون والحريم من نسائه المذعورات، والأسرى المنبطحون على الأرض، يغطون رؤوسهم بأذرعهم واثقين من أنّ ساعتهم الأخيرة قد حانت.

عاد الهدوء بعد قليل إلى البلدة الفقيرة الصغيرة. وما إن انتهت الرشقة وانجلت الجلبةُ حتى كرّرَ الفمُ الملكيّ السؤالَ. وهنا نهضت كات كولد على ركبتيها وتوجّهت بالقليل من الكرامة التي تسمح لها بها عظامها الهرمة، محافظة على أن تكون تحت مستوى المزاج الملكي كما كان قد وجّههم بِيبِهْ ـ دوكو، إلى الوسيط بثبات، لكنّها محاولة ألاّ تُثيره.

ـ نحن صحفيون ومصوِّرون ـ قالت مشيرة بشكلٍ مُبهم إلى رفاقها.

دمدم الملكُ بشيء إلى مساعده، فكرّر هذا كلماته.

ـ جميعاً؟

ـ لا، يا صاحب الجلالة والوقار، هذه السيّدة هي صاحبة

الطائرة التي جاءت بنا إلى هنا، والسيد صاحب النظارة مُبشّر. وأضافت قبل أن يسألها عن ألِكساندر وناديا ـ: لقد جئنا من مكان بعيد جداً كي نُقابل جلالتكم المفعمة بالأصالة، لأنّ شهرتكم تخطّت الحدود وعمّت العالم.

كوسونغو، الذي يبدو أنّه يعرف الفرنسية أكثر بكثير من الفم الملكيّ، أمعن النظر بالكاتبة بما ينمّ عن اهتمامٍ عميق، وعن ارتياب أيضاً.

ـ ماذا تريدين أن تقولي، أيّتها المرأة العجوز؟ ـ سأل عبر الرجل الآخر.

ـ هناك اهتمام كبير بشخصكم في الخارج، يا صاحب الجلالة العالية.

ـ كيف هذا؟ ـ قال الفم الملكي.

ـ لقد استطعتم أن تفرضوا السلامَ والازدهارَ والنظامَ في هذه المنطقة. جلالتكم مُطلقةٌ وسرمدية. لقد وصلت أخبار عن أنّكم محارب شجاع، معروفة سلطتكم ومعرفتكم وثراؤكم. يقولون إنّكم بقوّة الملك القديم سليمان.

تابعت كات خطابها، محتبلةً بالكلمات، لأنّها لم تمارس الفرنسية منذ عشرين سنة وممتلئة بالأفكار، لأنّها لم تكن واثقة تماماً من خطّتها. كانت في غرّة القرن الحادي والعشرين: لم يعد يوجد في العالم من ملوك الأفلام السيّئة المريعين المتوحشين هؤلاء، الذين يرتعبون من كسوف شمس مناسب. فكّرت أنّ كوسونغو قد مضت موضته قليلاً، لكنّه لم يكن غبياً أبداً، ولا يكفي كسوف شمس لإقناعه. ومع ذلك خطر لها أنّه يجب أن يكون قابلاً للتملق، مثل معظم الرجال من أصحاب السلطة. لم يكن من طبيعتها أن تلقي بالأزهار على أحد، لكنّها خبرت من خلال حياتها الطويلة أنه يمكن أن يُقال للرجل المداهنة الأكثر سخرية ويُصدّقها بشكلٍ عامّ. كان أملُها الوحيد أن يبتلع كوسونغو ذلك الطعم الخشن.

انجلت شكوكها على الفور، لأنّ تكتيك إكالة المديح للملك أعطى أُكله المتوقعة. كان كوسونغو مقتنعاً بأصله الإلهي. سنوات مضت لم يشك فيها أحد بسلطته؛ فحياة وموت رعاياه طوع نزواته. اعتبر أنّ من الطبيعي أن تقطع مجموعة من الصحفيين نصف العالم لمقابلته؛ والغريب أنّهم لم يفعلوا ذلك من قبل. فقرّر أن يستقبلهم كما يستحقّون.

تساءلت كات كولد من أين يأتي بكلّ ذلك الذهب، لأنّ القرية كانت من أفقر القرى التي رأتها. ما الثروات الأخرى التي كانت في يد الملك؟ ما العلاقة بين كوسونغو والقائد مبِمبِلِة؟ من المحتمل أن يكون الاثنان يخططان للانسحاب للتمتع بثرواتهما في مكان أكثر جاذبية من هذه المتاهة من المستنقعات والأدغال. وفي هذه الأثناء كان سكان نجوبي يعيشون في البؤس منقطعين عن العالم الخارجي، بلا كهرباء ولا مياه نظيفة ولا تربية ولا أدوية.

7

سجناء كوسونغو

قرع كوسونغو الجرسَ الذهبيّ بيدٍ وأمر بالأخرى سكان القرية، الذين كانوا ما يزالون مختبئين خلف الأكواخ والأشجار، أن يقتربوا. تبدّل موقف الجنود، حتى أنّهم انحنوا ليساعدوا الغرباء على النهوض وأحضروا بعض المقاعد ثلاثية الأرجل وضعوها تحت تصرّفهم. اقترب السكانُ بحذرٍ.

ـ احتفال! موسيقى! طعام! ـ أمر كوسونغو من خلال الفم الملكي، مشيراً إلى مجموعة الأجانب المذعورين بأن باستطاعتهم أن يجلسوا على المقاعد.

التفت وجهُ الملك المغطى بالخرز إلى أنجي. والتي جهدت، حين شعرت أنّه يتفحّصها، في أن تختفي خلفَ رفاقها، لكن في الحقيقة كان من المحال إخفاء حجمها.

ـ أظنّ أنّه ينظر إليّ. عيناه تقتلاني، كما يقولون، لكنّني أشعر أنّهما تعرّياني ـ همست لكات.

ـ ربّما أراد أن يضمُكِ إلى حريمه ـ ردّت هذه مازحةً.

ـ ولا حتى ميّتة!

اعترفت كات في أعماقها أنّ أنجي يمكن أن تُنافس بجمالها

أيّ واحدة من زوجات كوسونغو، رغم أنّها لم تعد شابّة تماماً. فالصغيرات هناك يتزوّجن في سن المراهقة، والطيارة يمكن أن تُعتبر في أفريقيا ناضجة، لكنّها بهيئتها الطويلة والبدينة وأسنانها ناصعة البياض وبشرتها البراقة كانت جذابة جدّاً. أخرجت الكاتبةُ من حقيبة ظهرها إحدى زجاجات فودكاها الرائعة ووضعتها عند قدمي الملك، لكنّ هذا لم يبدُ مدهوشاً. أذِنَ كوسونغو لرعاياه بإيماءة ازدراء أن يتمتعوا بالهدية المتواضعة. ومرّت الزجاجة من يد جنديّ إلى يد آخر. وسرعان ما أخرج الملكُ علبة سجائر من بين طيات معطفه ووزّعها على الجنود سيجارة للرأس الواحد من رجال القرية. النساء اللواتي لم يكنّ يُعتبرن من نوع الرجال نفسه تمّ تجاهلهنّ. كما لم يقدّموها للأجانب رغم تلهف أنجي اليائس، التي بدأت تُعاني من تأثير نقصان النيكوتين.

لم تكن نساء الملك يتلقين معاملة أحسن من بقيّة سكان نجوبي الإناث. عجوز جهم كان يقوم بمهمة الحفاظ على النظام بينهنّ، يحمل معه لهذه الغاية قصبة نحيلةً من الخيزران لا يتردّد في استخدامها لضربهنّ على سيقانهنّ عندما يحلو له. ظاهرياً لم يبدُ أنّ معاملة الملكات السيئة في العلن أمراً مستهجَناً.

تجرّأ الراهب فِرناندو على السؤال عن المُبشّرَين الغائبين وردّ عليه الفمُ الملكيُ أنّه لم يوجَد قط مبشرون في نجوبي. وأضاف أنّه منذ سنوات لم يأتِ أجانب إلى القرية، باستثناء عالم أنثروبولوجيا جاء ليقيس حجمَ رؤوس الأقزام وولّى الأدبار بعد أيّام قليلة، لأنّه لم يتحمّل الطقس ولا البعوض.

ـ يجب أن يكون هذا لودوفيك لبلانك ـ تنهّدت كات.

تذكّرت أنّ لبلانك، عدوّها اللدود وشريكها في مؤسّسة ماس، كان قد أعطاها مقالته حول أقزام الغابة الاستوائية، المنشور في مجلّة علمية. الأقزام، حسب رأي لبلانك، هم أكثر المجتمعات التي عرفها حرّيةً ومساواةً. رجال ونساء يعيشون رفاقية حميمة،

الأزواج يصطادون ويشاطرونهن بالتساوي رعاية الأطفال. لم يكن بينهم تراتبية. المناصب التشريفية الوحيدة هي «الزعيم»، «الطبيب الشعبي» و «الصياد الأفضل»، لكنّ هذه المناصب لا تتأتى عنها امتيازات بل واجبات فقط. لم يكن هناك فوارق بين الرجال والنساء أو الشيوخ والشباب. والأطفال ليسوا مطالبين بالطاعة لآبائهم. والعنف بين أعضاء العشيرة مجهول. كانوا يعيشون في مجموعاتٍ عائليّة، لا أحد يملك أكثر من الآخر، كما لا ينتجون أكثر مما هو ضروريّ للاستهلاك اليومي. لم يكن هناك دوافع لمراكمة الأملاك، لأنه ما إن يحصل أحد على شيء حتى يكون من حقّ عائلته انتزاعه منه. فهم يتقاسمون كلّ شيء. كانوا شعباً مستقلاً بضراوة لم يخضع لنيرٍ، ولا حتى لنير المستعمرين الأوروبيين، وفي الأزمنة الحديثة استعبد البانتوويّون الكثيرين منهم.

لم تكن كات واثقة قط بمدى الحقيقة التي تنطوي عليها أعمال ليلانك الأكاديمية، لكنّها لاحظت بحدسها أنّه يمكن للأستاذ المتبجّح أن يكون محقّاً بالنسبة للأقزام. لأوّل مرّة اشتاقت كات إليه. كانت المناكفة مع ليلانك ملح حياتها، فهو يبقي عليها في حالة حرب، لم يكن يناسبها أن تقضي زمناً طويلاً بعيدةً عنه، لأنّ مزاجها يمكن أن يلين. لا شيء كان يُخيف الكاتبةَ العجوز أكثر من أن تتحوّل إلى جدّة لا حول لها ولا قوّة.

كان الراهب فِرناندو واثقاً من أنّ الفم الملكي يكذب فيما يتعلّق بالمُبشّرَين المفقودين، وأصرّ على أسئلته إلى أن ذكّرته أنجي وكات بالبروتوكول. كان واضحاً أنّ الموضوع يُزعج الملك كوسونغو، الذي يبدو قنبلة موقوتة جاهزة للانفجار، وهم في وضعٍ حرجٍ جدّاً.

ولكي يحتفلوا بالزوار قدّموا لهم نبيذ نخيل، أوراقاً لها مظهر السبانخ وحلوى منيهوت، وكذلك سلّة مليئة بالجرذان التي شووها على الصلاءات وتبلوها بدفقات من الزيت برتقالي اللون، المنتج من

بذور النخيل. أغمض ألِكساندر عينيه، مفكّراً بشوق بعلبِ السردين التي كانت في حقيبة ظهره، لكنّ رفسة من جدّته أعادته إلى الواقع. لم يكن من الحكمة رفض عشاء الملك.

ـ إنّها جرذان، يا كات ـ صاح محاولاً التحكّمَ بغثيانه.

ـ لا تكن مزعجاً، لها طعم الفروج ـ ردّت الجدّة.

ـ هذا ما قلتِهِ عن أفعى الأمازون ولم يكن صحيحاً ـ ذكّرها حفيدها.

كان نبيذ النخيل بالنتيجة مشروباً حلواً مرعباً، ومثيراً للغثيان. ذاقته مجموعة الأصدقاء أدباً، لكنّهم لم يستطيعوا ابتلاعه. أمّا الجنود وبقية رجال القرية فقد شربوه بجرعات كبيرة، حتى لم يبق أحد منهم معتدلاً. لانت الحراسة، لكن لم يكن عند الأسرى مكان يذهبون إليه فهم محاطون بالأدغال وجو المستنقعات الخانق وخطر الحيوانات الضارية. كانت الفئران المشوية والأوراق مقبولة أكثر مما يفترضه شكلها، بينما كان لحلوى المنيهوت طعم خبز منقوع بماء صابون، لكنّهم كانوا جائعين فابتلعوا الطعام دون أن يظهروا إفراطاً في الحساسية. اقتصرت ناديا على تناول السبانخ المرّة، لكنّ ألِكساندر تفاجأ وهو يمتصّ عظام ساق جرذٍ بمتعةٍ شديدة. كانت جدّته على حقّ: لها طعم فروج فعلاً. أو بالأحرى فروج مُدخّن.

فجأة عاد كوسونغو ليقرع جرسه الذهبيّ.

ـ الآن أريد أقزامي! ـ صرخ الفم الملكيّ بالجنود وأضاف لفائدة الزوار ـ: عندي أقزام كثيرون، إنّهم عبيدي. ليسوا بشراً، فهم يعيشون في الغابة مثل القردة.

حملوا إلى الساحة عدداً من الطبول من مختلف الأحجام، بعضها من الكبر بحيث وجب حملها بين رجلين، وبعضها مصنوع

من جلود مشدودة على قرعات أو غالونات بنزين معفنة. وبأمرٍ إلى الجنود دُفِع بمجموعة الأقزام، نفسها التي قادت الأجانب إلى نجوبي، باتجاه الآلات. اصطف الرجال مطأطئي الرؤوس، متحفّظين لا يجرؤون على الاعتراض.

ـ عليهم أن يعزفوا موسيقى ويرقصوا كي يقود أسلافهم فيلاً إلى الشباك. فغداً يخرجون إلى الصيد ولا يستطيعون أن يعودوا خالِي الوفاض ـ وضّح كوسونغو مستخبِماً الفمَ الملكيّ.

ضرب بِيَيهُ ـ دوكو عدّة ضربات داعمة، كما لو ليثبت النغمة ويُحمّي نفسه وسرعان ما انضمّ إليه الآخرون. تبدّلت تعابير وجوههم، بدوا مُتجلّين، عيونهم تلمع وأجسادهم تتحرّك على إيقاع أيديهم، بينما راح حجم صوت الموسيقى يزداد ارتفاعاً وإيقاعها يتسارع. بدوا لا يستطيعون مقاومة إغواء الموسيقى التي يُبدعونها بأنفسهم. راحت أصواتهم ترتفع بغناء خارق يتلوى مثل أفعى ويتوقّف فجاةً ليفسح المجال إلى الطبّال. وراحت الطبول تكتسب حيويةً، متنافسةً فيما بينها، مجتمعةً، نابضةً، مانحةً الليلَ حيوية. ظنَّ ألكساندِر أنَّ ستة من جوقة الإيقاع مع مكبرات الصوت لا تستطيع أن تساوي تلك. كان الأقزام يعيدون إنتاج أصوات الطبيعة بآلاتهم الخشنة، بعضها ناحل مثل الماء بين الحجارة أو مثل قفز غزلان، وأخرى عميقة مثل مشي الفيلة، رعود أو خببِ جواميس، وبعضها الآخر يُشبه بتركيزه وسرعته تأوهاتِ حبٍّ، تُدركُ الأوج كي تعود وتخفّ لتتحول إلى تنهيدةٍ لا تكاد تُسمع. هكذا راحت تتكرّر الأدوار، دون أن تكون ذاتها، كلّ واحدٌ رائع، مفعم باللطف والتأثر، مما لا يستطيع غير أفضل عازفي الجاز أن يُجاريه.

وبإشارة أخرى من كوسونغو جاؤوا بالنساء، اللواتي لم يراهنَّ الأجانبُ حتى تلك اللحظة. كانوا قد وضعوهنّ في زرائب الحيوانات الموجودة في مدخل القرية. كُنَّ من سلالة الأقزام، وجميعهنّ شابّات، لا يرتدين غير تنورات الرافيا. تقدّمن يُجرجرن أقدامهنّ، بوضعية ذليلة، بينما الحرّاس يعطونهنّ أوامرَ صارخين

بهنّ ومهدِّدين. وعند رؤيتهنّ حدث ردّ فعل يشبه الشلل بين الموسيقيين، وتوقّفت الطبول فجأة؛ وحده صداها تردّد في الغابة خلال لحظات.

رفع الحرّاس عصيّهم فانكمشت النسوةُ متعانقات فيما بينهن كي يحمين أنفسهنّ. وعلى الفور عادت الآلات لتدوّي بحماس جديد. عندئذٍ حدث أمام نظرةِ الزوارِ العاجزة حوار أخرس بينهنّ وبين الموسيقيين. بينما راح الرجالُ يسوطون الطبول معبّرين عن كتلة العواطف البشرية مجتمعةً بدءاً من الغضب والألم وحتى الحبّ والحنين، راحت النساء يرقصن في حلقة هازاتٍ تنورات الرافيا، رافعاتٍ أذرعنّ، خابطاتٍ الأرض بأقدامهنّ الحافية، رادّاتٍ بحركاتهنّ وغنائهنّ على نداء رفاقهنّ. كان للمشهد تركيز بدائي ومؤلم لا يُحتمل.

خبّأت ناديا وجهها بين يديها؛ عانقها ألِكساندر بقوّةٍ، سانداً إيّاها، لأنّه خاف أن تقفز صديقته إلى وسط الفناء كي تضع حدّاً لتلك الرقصة المخزية. اقتربت كاث منهما لتُحذّرهما كيلا يقوما بأيّة حركة ناقصة، لأنّها يمكن أن تكون شؤماً عليهم. كانت تكفي رؤية كوسونغو لفهم دوافعه: بدا، وهو جالس دائماً على الكرسيّ الفرنسي الكبير، الذي يستخدمه كعرش، ممسوساً؛ يهتزّ على إيقاع الطبول، كما لو أنّ تيّاراً كهربائياً يهزّه. زخارف المعطف والقبّعة كانت ترنّ وقدماه تعطيان إيقاع الطبول، وذراعاه تهتزان محدثتين أصواتاً بالأساور الذهبية. عدد من أعضاء بلاطه الثملين راحوا يرقصون أيضاً؛ تبعهن بقية أهل القرية. بعد برهة كان هناك مرج ناس يتمايلون ويقفزون.

انقطع الجنون الجماعي كما بدأ فجأة. أمام إشارة وحدهم من التقطها، كفّ الموسيقيون عن قرع الطبول وتوقّف رقص رفيقاتهم المحزن. تجمّعت النساء وانسحبن باتجاه الزرائب. ومع صمت

الطبول جمد كوسونغو على الفور وتبع بقية السكانِ مثاله. وحده العرق الذي كان يسيل على ذراعيه العاريين كان يُذكِّر برقصته في العرش. وعندئذ انتبه الأجانب إلى أنّه يزدان بالجراح المحبحبة الشعائرية ذاتها الموجودة عند الجنود الأربعة، وأنّه كان مثلهم يملك أساور من جلد الفهد في عضلتي ذراعيه. سارع رجال بلاطه ليسوُّوا له المعطف الثقيل على كتفيه والقبعة التي مالت.

وضّح الفم الملكيّ للأجانب أنّهم إذا لم يُغادروا بسرعة فسيكون من نصيبهم أن يروا /زنجي. «رقصة الموتى» التي تُمارس في الجنازات والإعدامات. وكذلك كان /زنجي اسم الروح العظمى. لم يقع هذا الخبر على المجموعة، كما كان منتظراً، وقعاً حسناً. وقبل أن يتجرّأ أحدٌ على طلب التفاصيل أبلغتْهم الشخصيةُ نفسها باسم الملك أنّهم سيُقادون إلى «حجرة».

رفع أربعة رجال المنصّة التي كان عليها الكرسي الملكيّ وحملوا كوسونغو على محفّة إلى مسكنه، تتبعه نساؤه، اللواتي يحملن نابي الفيل يقدن أبناءهنّ. كان الحمّالون قد بلغَ بهم الشرب حدّ أنّ العرش راح يترنّح بشكلٍ خطير.

أخذت كات وأصدقاؤها أمتعتهم وتبعوا البانتوويينِ المزوّدين بالمشاعل، الذين قادوهم مضيئين لهم الطريق. كان يقوم على حراستهم جنديّ مزود ببندقية ويضع سواراً من جلد الفهد. كان تأثير نبيذ النخيل والرقصة المحمومة قد حسّنت مزاجهم، إذ راحوا يضحكون ويمزحون ويربت بعضهم لبعض ربتات وديّة، لكنّ هذا لم يطمئن الأصدقاء، لأنّه كان واضحاً أنّهم يأخذونهم سجناء.

كان ما سُمّيَ بـ «الحجرات» بالنتيجة بناءً طينياً مستطيلاً سقفه من القش، وهو أكبر من بقية المساكن، على الجانب الآخر من القرية، عند طرف الأدغال ذاتها. فيها فجوتان في الجدار على شكل نافذتين ومدخل دون باب. أضاء رجال المشاعلِ داخلها وظهر أمام

أعين من كانوا سيمضون ليلتهم هناك آلاف الصراصير راحت تجري على الأرض باتجاه الزوايا.

ـ أنّها أقدم الحشرات في العالم، فهي موجودة منذ ثلاثمئة مليون سنة ـ قال ألِكساندر.

ـ هذا لا يجعلها أكثرها لطفاً ـ أشارت أنجي.

ـ الصراصير ليست عدوانية ـ أضاف ألِكساندر، رغم أنّه لم يكن متأكّداً من أنّها كذلك.

ـ هل توجد أفاعٍ هنا؟ ـ سأل جول غونثالِث.

ـ الأصلات لا تُهاجِمُ ليلاً ـ سخرت كات.

ـ ما هذه الرائحة المريعة؟ ـ سأل ألِكساندر.

ـ يمكن أن يكون بول جرذان أو روث خفافيش ـ وضّح الراهب فِرناندو دون أن يتبدل فيه شيء، لأنّه مرَّ بتجارب مماثلة في رواندا.

ـ السفر معك ممتعٌ دائماً، يا جدّتي ـ ضحك ألِكساندر.

ـ لا تُنادِني جدّة. إذا لم تُعجبك المُنشآت، هيا اذهب إلى الشيراتون.

ـ أموت من أجل أن أدخّن ـ أنّت أنجي.

ـ هذه هي فرصتك كي تتركي هذه الرذيلة ـ ردّت كات، دون قناعة كبيرة، لأنّها أيضاً كانت مشتاقة لغليونها القديم.

أشعل أحد البانتوويين مشاعل أخرى، موضوعة على الجدران. وأمرهم الجندي ألاّ يخرجوا حتى اليوم التالي. وإذا كان هناك شكّ بكلماته، فحركته المهدِّدة بالسلاح ذهبت به.

أراد الراهب فِرناندو أن يتحقّق مما إذا كان هناك مرحاض فضحك الجنديّ، لقد بدت له الفكرة ظريفة جداً. أصرّ المُبشِّرُ ففقد الآخرُ صبرَه ودفعه بعقب البندقية، ورماه أرضاً. تدخّلت كاث، المُعتادة على أن تفرض احترامها بعزم كبير، منتصبةً أمام المُعتدي

وقبل أن يكمل هذا عليها وضعت في يده علبة عصير دراق. أخذ الرجلُ الرشوةَ وخرج، وعاد بعد دقائق قليلة، يحمل سطلاً بلاستيكياً سلّمه إلى كات دون مزيد من التوضيحات. كان هذا الماعون المنشأة الصحية الوحيدة.

- ماذا تعني هذه الأربطة من جلد الفهد وندبُ الأذرع؟ فالجنود الأربعة عندهم الشيء ذاته - علّق ألِكساندر.

- من المؤسف أننا لا نستطيع أن نتصل بلبلانك، بالتأكيد يستطيع أن يقدم لنا تفسيراً - قالت كات.

- أعتقد أنّ هؤلاء الرجال ينتمون إلى أخوّة الفهد. إنّها أخويّة سريّة، موجودة في عددٍ من البلدان الأفريقية - قالت أنجي - يجندونهم في سن المراهقة، ويُعلّمونهم بهذه الندب وبذلك يستطيعون أن يعرفوا بعضهم بعضاً في أيّ مكان. إنّهم محاربون مرتزقة، يُقاتلون ويقتلون بالمال. مشهورون بوحشيتهم. يُقسِمون على أن يتساعدوا طوال حياتهم ويقتلوا الأعداء المتبادلين. ليس لهم عائلات ولا أيّ نوع من الضوابط، غير الوحدة مع أخوتهم في الفهد.

- تضامن سلبي. وهذا يعني أنّ أيّ عمل مرتكَب من جماعتنا يُبرَّر، ولا يهم كم هو مريع - وضّح الراهب فِرناندو - على العكس من التضامن الإيجابي، الذي يُوحّد الناس للبناء والزراعة والتغذية وحماية الضعفاء، وتحسين ظروف المعيشة. التضامن السلبي هو تضامن الحرب، العنف، الجريمة.

- أرى أنّنا في أيدٍ ممتازة... - تنهّدت كات، وهي في غاية الإنهاك.

استعدّت المجموعة لقضاء ليلة سيئة، يراقبهم حارسان بانتويان مسلحان بالسواطير في الباب. انسحب الجنديّ. ولم يكادوا يستريحون على الأرضِ، مستخدمين الصررَ وسائدَ، حتى عادت الصراصير لتتنزّه فوقهم. اضطرّوا لأن يُذعنوا للأرجل الصغيرة التي راحت تدخل في آذانهم، تحكّ لهم أجفانهم وتبحث

بفضول تحت ثيابهم. أنجي ونـاديا، اللتان كانتا طويلتي الشعر، لفتاه بمنديلٍ كي تتفاديا أن تُعشّش في رأسيهما.

ـ في المكان الذي توجد فيه صراصير لا توجد أفاعٍ ـ قالت ناديا.

كانت الفكرة قد خطرت لها للتو وأعطت مفعولها المنتظَر: فجول غونثالث، الذي أصبح كتلة أعصاب، هدأ كما لو بالسحر، سعيداً بأن تكون الصراصير رفيقته.

في الليلة السابقة، قرّرت ناديا حين غلب النوم رفاقَها أن تبدأ العمل. كان التعب قد وصل بالبقيّة حدّ أنّهم استطاعوا أن يناموا على الأقل عدّةَ ساعات، رغم الجرذان والصراصير وقرب رجال كوسونغو المهدِّد. لكنّ ناديا أقلقها مشهد الأقزام وقرّرت أن تتحقّق مما كان يحدث في تلك الزرائب، حيث رأت النساء يختفين بعد الرقص. خلعت جزمتها واستعانت بالمصباح الكهربائي. الحارسان الجالسان جانباً في الخارج ويضعان ساطوريهما على ركبهما لم يشكلا عائقاً بالنسبة إليها، لأنّه مضى عليها ثلاث سنوات وهي تمارس فنّ الاختفاء، الذي تعلّمته من هنود الأمازون الحمر. فـ«أهل الضباب» كانوا يختفون متموّهين في الطبيعة، بأجسادهم المدهونة، صامتين، متحرّكين بخفّةٍ وتركيز عقليّ هو من العمق بحيث لا يمكن أن يستمرّ إلاّ لزمن محدود. هذا الاختفاء أفاد ناديا للخروج من الشّدة في أكثر من مناسبة، لذلك مارسته كثيراً. كانت تدخل إلى الصف وتخرج منه دون أن ينتبه زملاؤها أو مدرّسوها، وبعدها لا يعود أحد منهم يتذكّر ما إذا حضرت في ذلك اليوم إلى المدرسة. كانت تطوف في مترو نيويورك المزدحم بالناس دون أن تُرى، ولكي تتأكّد تقف على بعد سنتيمتراتٍ قليلة من راكب آخر، وتنظر إلى وجهه، دون أن يُظهر المتأثّر أيَّ ردّ فعلٍ. كات كولد التي تعيش مع ناديا، كانت الضحية الرئيسية لهذا التدريب العنيد، لأنّها لم تستطع قط أن تتأكّد مما إذا كانت الفتاة موجودة أم أنّها حلمت بها.

أمرت الشابّة بوروبا أن يمكث هادئاً في الكوخ، لأنّها لاتستطيع أن تحمله معها، وعلى الفور تنفّست عميقاً عدّة مرّاتٍ، حتى هدّأت روعها تماماً، وركّزت على الاختفاء. وحين أصبحت جاهزة تحرّك جسدها فيما يُشبه التنويم المغناطيسي. مرّت فوق أجساد أصدقائها النائمين دون أن تلمسهم، وانزلقت نحو المخرج. في الخارج كان الحارسان الضجران والمسمّمان بنبيذ النخيل قد قرّرا أن يتناوبا على الحراسة. كان واحد منهم يشخر مستلقياً باتجاه الجدار والآخر يتفحّص سواد الغابة خائفاً قليلاً، لأنّه يخشى أشباح الغابة. أطلّت ناديا من العتبة، التفت الرجلُ إليها وتقاطعت عيونهما للحظة. بدا للحارس أنّه بحضور أحدٍ ما، لكن سرعان ما امّحى هذا الانطباع عنده، وأجبره الوسن الغالب على التثاؤب. بقي في مكانه يُصارع النعاس وقد هجر الساطور على الأرض، بينما راح خيال الشابّة الناحل يبتعد.

اجتازت ناديا القرية بالحالة الأثيرية ذاتها، دون أن تلفت انتباه الأشخاص القليلين الذين كانوا ما يزالوا مستيقظين. مرّت بجانب المشاعل التي كانت تُضيء أبنية الحظار الملكي الترابيّة. قرد أرق قفز من شجرة وسقط عند قدميها، مما جعلها تعود إلى جسدها لثوانٍ، لكنّها ركّزت على الفور وتابعت تقدّمها. لم تكن تشعر بخطوها، بدا لها أنّها تمضي طافيةً. هكذا وصلت إلى الزرائب، التي كانت عبارة عن مستطيلين مصنوعين من جذوع مغروسة في الأرض ومربوطة باللبلاب وشرائط الجلد. جزء من كلّ زريبة كان مسقوفاً وجزء مفتوح على السماء. كان الباب يُغلَقُ بوساطة عارضة ثقيلة، لا يمكن فتحها إلا من الخارج. كانت ناديا تُراقب.

سارت الفتاة حول الزريبتين متلمّسةً السياجَ بيديها، دون أن تجرؤ على إشعال المصباح. كان سياجاً راسخاً وقوياً، لكنّ شخصاً مُصَمِّماً يستطيع أن يستغلّ نتوءات الخشبِ وعقدَ الحبال كي يتسلّقه. تساءلت لماذا لا تهرب القزمات. تأكّدت، بعد أن دارت عدّة دورات، من أنّه لا يوجد أحد حول المكان، قرّرت أن ترفع عارضة أحد

الأبواب. كان باستطاعتها أن تتحرّك في اختفائيتها بحذرٍ شديد، لكنّها لا تستطيع أن تعمل كما كانت تفعل عادةً، وعليها أن تخرج من وضعها كي تعالج الباب.

كانت أصوات الغابة تملأ الليل: أصوات حيوانات وطيور، وشوشة بين الأشجار وزفرات في الأرض. فكّرت ناديا أنّ الناس على حقّ حين لا يخرجون من القرية ليلاً: كان من السهل عزو تلك الأصوات لأسباب فوق الطبيعة. لم تفلح جهودها في فتح الباب بصمت، لأنّ الخشب يصرُّ. اقتربت كلاب نابحة، لكنّ ناديا كلّمتها بلغتها الكلبية، فسكتت على الفور. تهيّأ لها أنّها تسمع نحيبَ طفل، لكنّه توقّف بعد لحظات قليلة؛ فعادت لتضع كتفها تحت العارضة، التي كانت أثقل مما هو متصوَّر. أخيراً استطاعت أن ترفع عارضة الدعائم، شقّت الباب وانزلقت إلى الداخل.

كانت عيناها قد اعتادتا على الليل، واستطاعت أن تنتبه إلى أنّها في نوعٍ من الفناء. تقدّمت صامتة باتجاه القسم المسقوف بالقشّ، دون أن تعرف ما ستجده هناك، حاسبة حساب تراجعها في حال الخطر. قرّرت أنّها لا تستطيع المغامرة في الظلمة، ثم وبعد تردّدٍ قصيرٍ أشعلت مصباحها فأنار نوره مشهداً كان من عدم التوقّع بحيث أنّه أفلتت منها صرخةٌ، وكادت ترمي المصباح. اثنتا عشرة أو خمس عشرة هيئة صغيرة جدّاً في عمق الغرفة، وظهورهن إلى الحاجز. ظنّت أنّهن طفلات، لكن سرعان ما انتبهت إلى أنّهنّ النساء أنفسهنّ اللواتي رقصن لكوسونغو. بَدَونَ مذعورات، مثلها تماماً، لكنّهن لم يُصدرن أدنى صوت؛ واقتصرن على النظر إلى الدخيلة بعيون جاحظة.

ـ هس... ـ قالت ناديا واضعةً إصبعاً على شفتيها ـ لن أُوذيكنّ، أنا صديقة... ـ أضافت بالبرازيلية، لغتها الطبيعية، ثمّ كرّرت بكلّ اللغات التي كانت تعرفها.

لم تفهم السجينات كلّ كلماتها، لكنّهنّ تكهّنّ بمقاصدها. تقدّمت واحدة منهنّ خطوةً، وإن بقيت منكمشةً، مخفيةَ الوجه، ومدّت ذراعاً متلمسةً. اقتربت ناديا ولمستها. تراجعت الأخرى، خائفة، لكنّها تجرّأت وألقت نظرة من طرف عينها فبدا أنّها ارتاحت لوجه الشابة الغريبة، لأنّها ابتسمت. مدّت ناديا يدها من جديد ففعلت المرأة الشيءَ ذاته. تشابكت أصابعهما فظهر أنّ ذلك الاحتكاك هو أكثر أشكال التواصل شفافيةً.

ـ ناديا، ناديا ـ قدّمت الفتاةُ نفسها لامسة صدرها.

ـ خِنا ـ ردّت الأخرى.

سرعان ما أحاطت الأخريات بناديا، ورحن يلمسنها بفضول، بينما هنّ يدمدمن ويضحكن. وما إن اكتشفن لغةَ المداعباتِ المشتركة والإيماءِ حتى صار ما عداهما سهلاً. وضّحت القزمات أنّهنّ فُصِلن عن رفاقِهنّ، الذين كان كوسونغو يُجبرهم على اصطياد الفيلة، ليس من أجل لحمها بل من أجل أنيابها، التي كان يبيعها للمهرِّبين. وكان للملك تابع آخر يستغلّ منجم ماسٍ يقعُ إلى الشمال قليلاً. هكذا حصل على ثروته. مكافأة الصيادين كانت بعض السجائر وبعض الطعامِ والحق برؤية أسرهم لبرهة. وعندما لا يكون العاج والماس كافياً يتدخّل القائد مبمْبِلهْ. كان هناك عقوبات كثيرة، أكثرها تحمّلاً الموت، وأفظعها فقدان الأولاد، الذين يُباعون عبيداً للمُهرِّبين. أضافت خِنا أنّه لم يبق في الغابة غير القليل من الفيلة. وعلى الأقزام أن يبحثوا عنها بعيداً وبعيداً جدّاً. الرجال لم يكونوا كُثراً وهنّ لا يستطِعن مساعدتهم، كما فعلن دائماً. إذ مع ندرة الفيلة صار مصير الأطفال مقلقلاً.

لم تكن ناديا متأكّدةً من أنّها فهمت جيّداً. كانت تفترض أن العبودية قد انتهت منذ زمن، لكنّ إيماءات النسوة كانت واضحة. وستؤكّد كاث لها فيما بعد أنّ العبودية ما زالت قائمة في بعض

البلدان. كان الأقزام يُعتَبرون كائنات غريبة ويشترونهم للقيام بأعمالٍ مهينة، أو إذا حالفهم الحظّ ليسلوا الأغنياء أو للسيرك.

حكت السجينات أنّهنّ يقمن بالأعمال الشاقّة في نجوبي، كالتشتيل، ونقل الماء، وتنظيف الأكواخ بل وبنائها. الشيء الوحيد الذي كنّ يرغبن به هو لقاء أسرهنّ، والعودة إلى الغابة، حيث عاش شعبهنّ آلاف السنين بحرّية. برهنت لهنّ ناديا أنّ باستطاعتهنّ أن يتسلقن الحاجز ويهربن، لكنّهن رددن بأنّ الأطفالَ محبوسون في الزريبة الأخرى برعاية جنّتين وهنّ لا يستطعن الهرب من دونهم.

- أين أزواجكنّ؟ - سألت ناديا.

أشارت جِنا إلى أنّهم يعيشون في الغابة وأنّهم لا يُؤذن لهم بزيارة القرية إلاّ حين يُحضِرون لحماً وجلوداً أو عاجاً. وقُلن إنّ الموسيقيين الذين قرعوا الطبول أثناء حفلة كوسونغو هم أزواجهن.

8

التميمة المقدسة

عادت ناديا إلى كوخها كما خرجت تماماً، مستخدمة التخفّي، بعد أن ودّعت القزمات ووعدَتْهُنّ بأنّها ستساعدهنّ. عند وصولها تبينُ لها أنّه لم يكن هناك غير حارس واحد وأنّ الآخر ذهب، وأنّ الذي بقي يشخر مثل طفل، بفضل نبيذ النخيل وهو ما منحها ميّزة غير منتظرة. انزلقتِ الفتاةُ مثل سنجاب إلى جانب ألِكساندر. أيقظته مغلقة فمه بيدها وحكت له بكلماتٍ قليلة ما حدث لها في زريبة العبدات.

ـ شيء رهيب، يا جغوار، علينا أن نفعل شيئاً.

ـ ماذا مثلاً؟

ـ لا أدري. قبل ذلك كان الأقزام يعيشون في الغابة وكانت لهم علاقات عادية مع أهل القرية. في تلك المرحلة كان هناك ملكة تُدعى نانا ـ أسانتِ، تنتمي إلى قبيلة أخرى وتأتي من بعيد جدّاً، وكان الناس يعتقدون أنّها مرسلة من الآلهة. كانت طبيبة شعبية وتعرف استخدام الأعشاب الطبية والتعويذات. قلن لي إنّه كان يوجد في السابق طرق عريضة، شقّتها أرجل مئاتِ الفيلة والآن لم يعد يوجد منها إلاّ القليل النادر، فالغابة ابتلعت الطرقات. وتحوّل الأقزامُ إلى عبيد حين انتزعوا منهم التميمة السحرية، كما قال بِيّية ـ دوكو.

ـ وهل تعرفين أين هي؟

ـ إنّه العظم المنقوش الذي رأيناه في صولجان كوسونغو ـ وضَحت ناديا.

تناقشا برهةً طويلة مقترحين أفكاراً مختلفة وكلّ واحدة منها أخطر من الأخرى. أخيراً اتفقا، كخطوة أولى، على أن يستعيدا التميمةَ ويأخذاها إلى القبيلة كي يعيدا إليها ثقتها بنفسها وشجاعتها. ربّما خطرت لأقزام بهذا الشكلِ طريقة لتحرير نسائهم وأطفالهم.

ـ إذا حصلنا على التميمة، سأذهب بنفسي للبحث عن بِيبِهْ ـ دوكو في الغابة ـ قال ألِكساندر.

ـ ستضيع.

ـ حيواني الطوطمي سيُساعِدني. الجغوار يستطيع أن يحدّدَ موقعَهُ في أيّ مكان كان، ويرى في الظلمة ـ ردّ ألِكساندر.

ـ سأذهب معك.

ـ إنّها مخاطرة غير مجدية، يا نسر. وحدي سأكون أكثر قدرة على الحركة.

ـ لا نستطيع أن ننفصل. تذكّر ما قالته ما بانغِيسِه في السوق. إذا انفصلنا متنا.

ـ وأنت هل تُصدّقينها؟

ـ نعم. الرؤيا التي رأيناها نذير: في مكان ما يتربّص بنا مسخ بثلاثة رؤوس.

ـ لا يوجد مسوخ بثلاثة رؤوس، يا نسر.

ـ كما يمكن أن يقول الشامان واليماي: يمكن ولا يمكن ـ ردّت هي.

ـ كيف سنحصل على التميمة؟

ـ أنا وبوروبا سنفعل ذلك ـ قالت ناديا بكثير من الثقة، كما لو أنّه من أبسط الأمور في العالم.

كان القرد ذا مهارة مذهلة في السرقة، وهو ما تحوّل إلى مشكلة في نيويورك. كانت ناديا تعيش مقلّبة الأشياء الغريبة التي يهديها إليها الحيوان الصغير، لكنّ هذه العادة السيّئة في هذه الحالة يمكن أم تكون رحمةً. فبوروبا صغير، صموت وماهر في استخدام يديه. أصعب ما في الأمر هو التحقّق من المكان الذي تُخبّأ فيه التميمة واختراق المراقبة. حِنا، إحدى القزمات كانت قد قالت لناديا إنّها في سكن الملك، رأتها حين كانت تذهب للقيام بأعمال النظافة. كان السكان في تلك الليلة سكارى والمراقبةُ في حدودها الدنيا. لم يروا إلاّ عدداً قليلاً من جنود أخوية الفهد يحملون أسلحةً نارية، لكن يمكن أن يكون هناك آخرون. لم يكونا يعرفان عددَ رجال مبِمبلِهْ، لكن قد يعني عدم ظهور القائد في احتفالِ مساءِ أمسِ أنّه خارج نجوبي. قرّرا أنّ عليهما أن يبدآ العمل فوراً.

ـ لن يُعجِب هذا كات أبداً، يا جغوار. تتذكّر أنّنا وعدناها ألاّ نزجّ أنفسنا في ورطات ـ قالت ناديا.

ـ أصبحنا في ورطة خطيرة كفايةً. سأترك لها ملاحظة كي تعرف إلى أين نحن ذاهبان. هل أنتِ خائفة؟ ـ سأل الفتى.

ـ أخاف الذهابَ معك، لكنّني أخاف البقاء هنا أكثر.

ـ انتعلي الجزمة، يا نسر. نحتاج لمصباح كهربائي، ومدخرات احتياطية، وسكينٍ على الأقل. فالغابة مليئة بالأفاعي، أعتقد أنّنا بحاجة إلى عبوة ترياقٍ مضاد للسم. هل تعتقدين أنّ باستطاعتنا أن نستعير مسدّس أنجي؟ ـ سأل ألكساندر.

ـ هل تفكّر بقتل أحدٍ، يا جغوار؟

ـ طبعاً لا!

ـ إذن؟

ـ تماماً، يا نسر. سنذهب دون أسلحة ـ تنهّد ألِكساندر مُذعناً.

أخذ الصديقان ما هو ضروري، متحرّكين بحذرٍ بين حقائب ظهر رفاقهم وصررهم. وعند البحث عن الترياق في صيدلية إسعاف أنجي رأيا مخدّرَ الحيوانات فوضعه ألِكساندر بحركةٍ تلقائية في جيبه.

ـ لماذا تريد هذا؟ ـ سألت ناديا.

ـ لا أدري، لكنّه يمكن أن يُفيدنا ـ ردّ ألِكساندر.

خرجت ناديا أوّلاً، عبرتْ المسافةَ القصيرةَ المضاءة بمشعلِ الباب واختبأت في الظلمة، دون أن تُرى، كي تفسح المجال لألكساندر ليتبعها، لكنّها رأت أنّ الحارسَ الوحيد ما يزال نائماً، والآخر لم يعد. كان سهلاً جدّاً على ألِكساندر وبوروبا أن يجتمعا بها.

كان سكن الملك حظاراً من الطين والقشّ، مؤلّفاً من عدد من الأكواخ، يوحي بأنّه مؤقّت. بدا القصرُ، بالنسبةِ إلى ملكٍ مثل كوسونغو، مسربلٍ بالذهب من قدميه وحتى رأسه، وعنده ذلك العدد الكبير من الحريم ويتمتع بقوى إلهية مفترضة، ذا تواضع مشكوك به. استنتج ألِكساندر وناديا أنّ الملكَ لا يُفكّر بأن يشيخ في نجوبي، لذلك لم يبنِ شيئاً أكثر أناقة وراحة. ما أن ينتهي العاجُ والماس حتى يذهب إلى أبعد مكانٍ ليتمتع بثروته.

كان قطاعُ الحريم محاطاً بسياجٍ وُضِعت فوقه مشاعلُ، تفصل بينها مسافةُ عشرة أمتار تقريباً، مما يعني أنّه كان حسن الإضاءة. وكانت المشاعل عصيّاً وخرقاً من القماش مشبعة بالراتنج تصدر دخاناً أسودَ ورائحة نافذة. أمام الحوش بناء أكبر، مزيّن برسوم هندسيةٍ سوداء ومزود بباب أعرض وأطول من الآخر. افترضَ الشابّان أنّه يؤوي الملك كوسونغو، لأنّ حجم الباب يسمحُ بمرور حاملي المنصّة التي يتنقّل عليها. بالتأكيد أنّ منع وطئه الأرض لم

يكن يُطبّق داخل بيته؛ ففي الحياة الحميمة لا بدّ أنّ كوسونغو يسير على قدميه ويكشف عن وجهه ويتكلّم مثل أيّ شخصٍ عاديٍّ، دون الحاجة للوسيط. على مسافة أخرى كان هناك بناء آخر بلا نوافذ، مستطيل، طويل وأفطس، متصل بالمسكن الملكي بواسطة ممرّ مسقوف بالقشّ، من المحتمل أنّه مهجع الجنود.

حارسان من أصل بانتوي، مسلحان بالبنادق، يسيران حول الحظار. راقبهما ألِكساندر ونادِيا عن بعدٍ، برهةً طويلة، وتوصّلا إلى أنّ كوسونغو لا يخشى أن يُهاجَم، لأنّ الحراسة مزحة. الجنديان اللذان ما يزالان تحت تأثير نبيذ النخيل يقومان بحراستهما مترنّحين، يتوقّفان ليدخنا حين يخطر لهما ذلك، وحين يتقاطعان يتوقّفان ليتحدّثا. بل رأياهما يشربان من زجاجة من المحتمل أنّها تحتوي على مشروب كحولي. لم يريا أيّاً من جنود أخوية الفهد، الأمر الذي طمأنهما قليلاً، لأنّهم يبدون مخيفين أكثر من البانتوويين. في جميع الأحوال فكرة الدخول إلى المبنى، دون أن يعلما ما سيلاقيانه في الداخل كانت أمراً مخيفاً.

ـ أنتَ تنتظرني هنا، يا جغوار، أنا سأذهب أوّلاً. سأخبرك بصوت بومة حين تحين لحظة إرسال بوروبا ـ قرّرت نادِيا.

لم تُعجِب الخطّةُ ألِكساندر، لكنّ لم يكن عنده أخرى أفضل. كانت نادِيا تعرف كيف تتنقّل دون أن تُرى، وبوروبا لا يلفت انتباهَ أحد، لأنّ القرية مليئة بالقردة. ودّع صديقته التي اختفت على الفور وقلبه في يده. جَهِد كي يراها واستطاع ذلك، رغم أنّها لم تكد تبدو وشاحاً يطفو في الليل. وعلى الرغم من توتّر اللحظة لم يستطع ألِكساندر إلاّ أن يبتسم حين رأى كم كان فعالاً فنّ الاختفاء.

استغلّت نادِيا أنّ الحارسين يُدخّنان كي تقترب من إحدى نوافذ الإقامة الملكية. تسلّقت العتبة دون أيّ جهد، وألقت من هناك نظرةً على الداخل. كان معتماً، لكنّ شيئاً من نور المشاعل والقمر يدخل

عبر النوافذ، التي لم تكن سوى فتحات بلا زجاج ولا ستائر. وحين تأكّدت من أنّه لا يوجد أحد انزلقت إلى الداخل.

أنهى الجنديان سجائرهما ودارا دورة أخرى كاملة حول الحظار. أخيراً كسر صوت بومة توتّر ألِكساندر المريع. أفلت الشابُّ بوروبا فانطلق هذا مثل الرصاص باتجاه النافذة التي رأى فيها صاحبته لآخر مرّة. خلال دقائق، طويلة كأيام، لم يحدث شيء. وفجأة ظهرت ناديا كالسحر بجانب صديقها.

- ماذا جرى؟ - سأل ألِكس، كابحاً نفسه كيلا يعانقها.

- سهل جدّاً. فبوروبا يعرف ما عليه فعله.

- هذا يعني أنك عثرت على التميمة.

- لا بدّ أن كوسونغو موجود في مكان آخر مع إحدى نسائه. كان هناك بعض الرجال النائمين على الأرض وآخرون يلعبون بالورق. العرش والمنصّة والمعطف والقبّعة والصولجان ونابا الفيل موجودة هناك. أيضاً رأيت بعض الصناديق التي أعتقد أنّه يُخبّئ فيها الزينة الذهبية - وضّحت ناديا.

- والتميمة؟

- كانت مع الصولجان، لكنّني لم أستطع أن أسحبها لأنّني لو فعلتُ لفقدتُ قدرتي على الاختفاء. هذا ما سيفعله بوروبا.

- كيف؟

أشارت ناديا إلى النافذة فرأى ألِكساندر أن دخاناً أسود بدأ يخرج منها.

- لقد أضرمتُ النار بالمعطف الملكي - قالت ناديا.

وعلى الفور تقريباً حدثت جلبة وصراخ والحراس الموجودون في الداخل خرجوا راكضين، وخرج عدد من الجنود من داخل المهجع، واستيقظت القرية فوراً وامتلأ المكان بناس يجرون

ويحملون دلاءً من الماء لإطفاء النار. استغلّ بوروبا الفوضى فسطا على التميمة وخرج من النافذة. بعد برهة التقى بناديا وألِكساندر وضاع الثلاثة باتجاه الغابة.

تحت قبّة الأشجار كانت تسود ظلمة تكاد تكون تامّة. وعلى الرغم من الرؤية الليلية للجغوار، الذي استحضره ألِكساندر كان من شبه المحال التقدّم. كانت تلك ساعة الأفاعي والحشرات السامّة والضواري الباحثة عن غذائها، لكنّ الخطر الأقرب كان أن يسقطا في مستنقع ويموتا مُبتلَعين من الوحل.

أشعل ألِكساندر المصباح وفتّش حوله. لم يكن يخاف أن يُرى من القرية، لأنّ النباتات الملتفّة تحيط به. لكن عليه أن يعتني بالمدخرات. توغّلا في الغابة الكثيفة متعاركين مع الجذور والمتسلقات، متفاديين الأغمار، ومتعثّرَين بعوائق غير مرئيّة، يلفّهما صوت الغابة المتواصل.

ـ والآن ماذا سنفعل؟ ـ سأل ألِكساندر.

ـ ننتظر طلوع الصبح يا جغوار، لا نستطيع أن نستمرّ في هذه الظلمة. كم الساعة الآن؟

ـ الرابعة تقريباً ـ أجاب الفتى ناظراً إلى ساعته.

ـ خلال وقت قصير سيكون هناك نور، وسنستطيع أن نتحرّك. أنا جائعة، لم أستطع أن آكل جرذان العشاء ـ قالت ناديا.

ـ لو كان الراهب فِرناندو هنا لقال إنّ الله يُدبِّر ـ ضحك ألِكساندر

ارتاحا بين السراخِس بأفضل ما استطاعا. كانت الرطوبة تبلّل ثيابهما والأشواك تخزهما، والحشرات تدبّ عليهما، يشعران بملامسة حيواناتٍ تنسلّ بجانبهما، وبأجنحة تخفق، وبالأرض

تتنفّس تنفساً ثقيلاً. لم يخرج ألِكساندر في رحلةٍ بعد مغامرته في الأمازون دون أن يحمل معه قدّاحة، لأنّه يعرف أنّ حكّ الحجارة ليس الطريقة الأسرع لإشعال النار. أرادا أن يشعلا صلاء صغيراً كي يجفّفا نفسيهما ويُخوّفا الضواري، لكنّهما لم يعثرا على عيدان جافّة فاضطُرّا، بعد عدّة محاولات، أن يتخلّيا عن الفكرة.

- هذا المكان مليء بالأرواح - قالت ناديا.

- وهل تؤمنين بذلك - سأل ألِكساندر.

- نعم، لكنّني لا أخاف منها. هل تتذكّر زوجة واليماي؟ كانت روحاً ودودةً.

- كان هذا في الأمازون، لا نعرف كيف هي هنا. لشيءٍ ما يخافها الناس - قال ألِكساندر.

- إذا كنت تُحاوِل أن تُخيفني، فلقد نجحت في ذلك - ردّت ناديا.

وضع ألِكساندر ذراعاً حول كتفي صديقته وقرّبها من صدره، مُحاولاً أن يمنحها دفئاً وأماناً. هذه الحركة التي كانت طبيعية جدّاً في السابق صارت الآن مشحونة بمعنى جديد.

- أخيراً اجتمع واليماي بزوجته - قالت ناديا.

- وهل مات؟

- نعم، الآن يعيشان في عالمٍ واحد.

- وما أدراكِ؟

- هل تتذكّر عندما سقطتُ في تلك الهوّة وكُسِر كتفي في المملكة المحرّمة؟ رافقني واليماي حتى وصلت أنتَ مع تِنسينغ وديل باهادور. حين ظهر الشامان بجانبي عرفت أنّه روح والآن يستطيع أن يتنقل في هذا العالم وفي العوالم الأخرى - وضّحت ناديا.

- كان صديقاً جيّداً، تستطيعين أن تصفري له صفرةً فيأتي دائماً - ذكّرها ألِكساندر.

ـ إذا احتجتُه فسيأتي، تماماً كما ذهب ليساعِدني في المملكة المحرّمة. الأرواح تُسافِر بعيداً ـ أكّدت له ناديا.

على الرغم من الخوف والوضع غير المريح سرعان ما راحا يهزّان رأسيهما، منهكَيْن لأنّه مضى عليهما أربع وعشرون ساعة دون نوم. ومرّا بانفعالات أكثر من اللازم منذ أن تعطّلت طائرة أنجي نيندِررا. لم يعرفا كم دقيقة ارتاحا، ولا كم من الأفاعي والحيوانات الأخرى مرّت ملامسة لهما. أفاقا مذعورين حين شدّهما بوروبا بيديه من شعرهما وهو يصيح مذعوراً. كان الوقت ما يزال مظلماً. أشعل ألِكساندر المصباح الكهربائيّ فوقع شعاعُ نوره على وجهٍ أسود، يكاد يكون فوق وجهه. كلاهما، هو والكائن أطلقا صرخةً في وقت واحد وتراجعا إلى الخلف. تدحرج المصباح على الأرض ومرّت عدّة ثوانٍ قبل أن يعثر عليه الشاب. خلال هذه الوقفة استطاعت ناديا أن تستجيب لردّ الفعلِ وتمسك ألِكساندر من ذراعه، هامسة له أن يلزم الهدوء. شعرا بيدٍ هائلة تتلمسهما في الظلمة، سرعان ما أخذت ألِكساندر من قميصه وهزّته بقوّة فائقة. عاد الفتى وأشعل المصباح، لكنّه لم يُصوّب النور على مهاجمه مباشرةً. في شبه الظلمة انتبهوا إلى أنّها غوريلا.

ـ *تِمبو كاتشي*، أسعدك الله...

كانت تحية المملكة المحرّمة أوّلَ وآخر ما خطر لألِكساندر، الخائف أكثر من اللازم، أن يقوله. بينما حيّتها ناديا بلغة القردة، لأنّها عرفتها قبل أن تراها من خلال الحرارة التي كانت تُصدر عنها ومن رائحة العشب، المحصود للتو في نَفَسها. إنّها الغوريلا التي أنقذوها من الفخ قبل عدّة أيّام، وكانت كما في تلك المرة تحمل صغيرها متدلياً من شعر بطنها القاسي، وتراقبهما بعينيها الذكيتين والفضوليتين. تساءلت ناديا كيف وصلت إلى هناك، يجب أن تكون

قد قطعت أميالاً كثيرة في الغابة، الأمر غير المعتاد كثيراً عند هذه الحيوانات.

أفلتت الغوريلا ألِكساندر ووضعت يدها على وجه ناديا، دافعة بها قليلاً، بنعومة، كأنها مداعبة. وبابتسامة ردّت هي التحية بدفعة مثلها، لم تستطع أن تُحَرّك الغوريلا ولا حتى نصف سنتيمتر، لكنّها أقامت معها نوعاً من الحوار. أدار الحيوان لهما ظهره وسار عدّة خطوات ثمّ عاد مُقرّباً منهما وجهه مرّةً أخرى وأصدر عدّة زمجرات وديعة، ثم ودون سابق إعلام عضّ ألِكساندر من أذنه عدّة عضات رقيقة.

ـ ماذا تريدُ؟ ـ سأل هذا مذعوراً.

ـ أن نتبعها، سترينا شيئاً.

لم يُضطرّا لأن يسيرا كثيراً. سرعان ما قفز الحيوان عدّة قفزات وتسلّق نوعاً من العشّ موجوداً بين أغصان شجرة. صوّب ألِكساندر مصباحه فردّت على حركته جوقة زعيق لم تكن مطمئنة إطلاقاً. فحرف النور على الفور.

ـ هناك عدّة غوريلات على الشجرة، يجب أن تكون عائلة ـ قالت ناديا.

ـ هذا يعني أنّ هناك ذكراً وعدداً من الإناث مع صغارها. الذكر يمكن أن يكون خطيراً.

ـ إذا كانت صديقتنا هي التي أحضرتنا إلى هنا، فهذا لأنّه مُرَحّب بنا.

ـ ماذا سنفعل؟ لا أعرف ما هي البروتوكولات بين البشر والغوريلات في هذه الحالة ـ مزح ألِكساندر وهو في غاية العصبية.

انتظرا تحت الشجرة الكبيرة لحظاتٍ طويلة، بلا حراك. توقّف الزعيق. أخيراً جلس الفتيان تعبين بين جذور الشجرة الهائلة وبوروبا متشبّث بصدر ناديا مرتعداً خوفاً.

ـ هنا نستطيعِ أن ننام مُطْمَئنَّيْنْ، فنحن محميان. الغوريلا تريد أن تردَ لنا الجميلَ الذي عملناه معها ـ أكّدت ناديا لألِكساندر.

ـ هل تعتقدين أنّ مثل هذه المشاعر موجودة عند الحيوانات، يانسر؟ ـ ارتاب.

ـ ولماذا لا؟ فالحيوانات تتبادل الكلام، تشكِّل عائلاتٍ، تُحبّ أبناءها، تتجمّع في مجتمعات، ولها ذاكرة. بوروبا أكثر ذكاءً من كثير من الأشخاص الذين أعرفهم ـ ردّت ناديا.

ـ بالمقابل كلبي بونتشو غبيّ كفايةً.

ـ ليس كلّ العالم له دماغ إنيشتاين، يا جغوار.

ـ بونتشو لا يملكه إطلاقاً ـ ابتسم ألِكساندر.

ـ لكنّ بونتشو هو أحد أفضل أصدقائك. بين الحيوانات توجَد صداقات أيضاً.

ناما بعمق كما لو في فراش من ريش، فقربُهم من القرود الكبيرة منحهما إحساساً بالأمان المُطلَق، لا يمكن أن يكونا في حماية أفضل.

استيقظا بعد ساعاتٍ، لا يدريان أين هما. نظر ألِكساندر إلى الساعة فلاحظ أنّهما ناما أكثر مما خطّطا بكثير، فالساعة تجاوزت السابعة صباحاً. كانت الشمس تُبخِّر رطوبة الأرض والغابةُ الملفوفة في الضباب الحار بدت حماماً تركيّاً. نهضا على أقدامهما بقفزة واحدة وألقيا نظرة حولهما. كانت شجرة الغوريلات فارغة فشكّا لبرهة بحقيقة ما جرى في الليلة الفائتة. ربّما كان مجرّد حلم، لكن هناك كانت الأعشاش بين الأغصان وبعض براعم الخيزران، غذاء الغوريلات المفضَّل، موضوعة جانباً كأنّها تقدمة. وإذا كان هذا لم يكفهما، فقد أدركا أنّ عدداً من العيون السوداء تراقبهما من بين الشجر الوارف. لقد كان حضور الغوريلات قريباً ومحسوساً بحيث أنّهما لا يحتاجان لرؤيتها كي يعرفا أنّها تراقبهما.

ـ تِمبو كاتشي ـ ودّعها ألِكساندر.

ـ شكراً ـ قالت ناديا بلغة بوروبا.

زمجرة طويلة وجشاء ردّت عليهما من بين خضرة الغابة المطبقة.

ـ أعتقد أنّ هذه الزمجرة علامة صداقة ـ ضحكت ناديا.

بزغ الفجر في قرية نجوبي على ضباب كثيف كالدخان نفذ عبر الباب والفتحات التي كانت تفيد كنوافِذ. رغم أنّ المسكن لم يكن مُريحاً فقد ناموا بعمقٍ ولم يعرفوا بوجود بادرة حريق في إحدى الغرف الملكية. لم يكن على كوسونغو أن يحزن كثيراً، لأنّ الحريق أطفئ على الفور. عند انقشاع الدخان تبيّن أنّ النار بدأت من المعطف الملكي، وهو ما فُسِّر على أنّه نذير شؤم وانتشرت لتطال جلود عدّة فهود، التي اشتعلت كالصوفان محدثة دخاناً كثيفاً. لم يعرف السجناء عن هذا شيئاً إلا بعد عدّة ساعات.

كانت أشعة الشمس الأولى تنفذ من خلال قشّ السقف. على نور الفجر استطاع الأصدقاء أن يتفحّصوا ما حولهم ويتأكّدوا من أنّهم في كوخ طويل وضيّق، بجدران طينيّةٍ سميكة وداكنة. على أحد الجدران كان هناك تقويم من السنة الماضية، محفور ظاهرياً برأس سكين. وفي آخره رأوا جملاً من العهد الجديد وصليباً خشبيّاً خشناً.

ـ هذه هي دار التبشير، أنا متأكّد ـ قال الراهب فِرناندو متأثّراً.

ـ وما أدراك؟ ـ سألت كات.

ـ لا شكّ عندي. انظروا هذا... ـ قال.

أخرج من حقيبة ظهره ورقة مطوية عدّة طياتٍ ونشرها بعناية. كان رسماً بالرصاص رسمه المبشّران المفقودان، تظهر فيه بوضوح ساحة القرية وشجرة الكلمات وعرش كوسونغو والأكواخ والزريبتان وبناء أكبر مُعلم على أنّه سكن الملك، وآخر مثله يُستخدم

مهجعاً للجنود. كان الرسم يشير إلى مقر البعثة، في النقطة التي كانوا فيها تماماً.

ـ هنا كان يجب أن يملك الراهبان المدرسة ويعتنيا بالمرضى. يجب أن يوجد هنا بئر وبستان قريب زرعاه بنفسهما.

ـ ولماذا كانا يريدان البئر، إذا كانت تمطر هنا كلّ دقيقتين؟ الماء يفيض في هذه النواحي ـ علّقت كات.

ـ البئر لم يحفراه هما، كان موجوداً، يشير الأخوان إلى البئر بين قوسين صغيرين، كما لو كان شيئاً خاصاً. دائماً بدا لي غريباً جدّاً.

ـ ترى ماذا سيكون قد حلّ بهما؟ ـ سألت كات.

ـ لن أذهب من هنا دون أن أتحقّق من ذلك. يجب أن أرى القائد مبِمبِلِهْ ـ عزم الراهب فِرناندو.

أحضر الحارسان لهما شمروخ موز وإبريق حليب مرشوش بالذباب على أنّه فطور، ثمّ عادا إلى مكانهما في المدخل، مُشيرين بذلك إلى أنه ليس مسموحاً للأجانب بالخروج. اقتلعت كات قرن موز والتفتت لتعطيه لبوروبا. هنا انتبهوا إلى أنّ ألِكساندر وناديا والقرد الصغير غير موجودين بينهم.

ذعرت كات كثيراً حين تأكّدت أنّ حفيدها وناديا غير موجودين مع بقية المجموعة في الكوخ، وأنّه ما من أحدٍ رآهما منذ الليلة الفائتة.

ـ ربّما راح الفتيان يقومان بجولة... ـ ارتأى الراهب فِرناندو، دون قناعة كبيرة.

خرجت كات كالممسوسة، قبل أن يتمكّن حارس الباب من إيقافها. في الخارج كانت القرية تستيقظ والأطفال وبعض النسوة يتجوّلون، لكن لا يُرى رجال، لأنّه ما من أحدٍ منهم يعمل. رأت من

بعيد القزمات اللواتي رقصن في الليلة الفائتة، بعضهنّ ذاهبات للبحث عن الماء من النهر وبعضهنّ يتوجّهن إلى الأكواخ أو إلى المزارع برفقة البانتوويين. جرت لتسألهنّ عن الشابين الغائبين، لكنّها لم تستطع التواصل معهنّ أو أنّهن رفضن الإجابة. طافت القرية صارخةً تنادي إلكساندر وناديا، لكنّها لم ترهما في أيّ مكان. لم تنجح إلاّ بإيقاظ الدجاج ولفت انتباه جنديَّين من جنود كوسونغو، بدآ في تلك اللحظة جولتهما. أخذاها من ذراعيها دون كبير اعتبار وحملاها بفظاظة باتجاه مجموع المساكن الملكية.

- إنّهم يأخذون كات - صرخت أنجي حين رأت المشهد من بعيد.

وضعت المسدّس في خصرها وأخذت بندقيّتها وأشارت إلى البقية بأن يتبعوها. عليهم ألاّ يتصرّفوا كأسرى، قالت، بل كضيوف. أبعدت المجموعة حارسي الباب دفعاً وجرت بالاتجاه الذي حملوا إليه الكاتبة.

في هذه الأثناء كان الجنديان قد وضعا كات على الأرض واستعدّا ليسحقاها ضرباً، لكنّهما لم يملكا الوقت لفعل ذلك، لأنّ أصدقاءها هجموا صارخين بالإسبانية والإنكليزية والفرنسية. موقف الأجانب الجريء أربك الجنديّين، إذ لم يعتادا أن يُعارضا. كان هناك قانون في نجوبي: لا يمكن لمس جنديّ من جنود مبمبِلِهْ. وإذا ما حدث هذا مصادفةً أو خطأً عوقب بالجلد؛ وأما إذا لم يكن كذلك عوقب بالموت.

- نريد أن نُقابل الملك! - طالبت أنجي، مدعومة من رفاقها.

ساعد الأخ فِرناندو كات على النهوض عن الأرض، وقد كانت تتلوى بألم حاد في أضلاعها. هي نفسها ضربت خصريها بقبضتيها عدّة مرات استعادت بها قدرتها على التنفّس.

كانوا في كوخ طينيّ كبير أرضه من التراب المدقوق بالأقدام، بلا أيّ نوع من الأثاث. رأوا على الجدرانِ رأسي فهدٍ مُحَنّطين، وفي

زاويةٍ مذبح مع أصنام الفودو. في زاوية أخرى، وفوق سجادة حمراء برّاد وتلفاز، رمزا الغنى والحداثة، لكنّهما غير مفيدين لأنّه لا يوجد في نجوبي كهرباء. كان للغرفة بابان وعدد من الفجوات يدخل منها قليل من النور.

في هذه الأثناء سمعوا بعض الأصوات وعلى الفور وقف الجنود باستعداد. التفت الغرباء نحو أحد الأبواب دخل منه رجل له مظهر مُجالِد. لم يداخلهم شكّ بأنّ الأمر يتعلّق بموريس مبِمبِلِهْ الشهير. كان طويلاً جداً، قويَّ البنية، له عضلات حامل أثقال، وعنق وكتفان هائلة ووجنتان بارزتان وشفتان غليظتان وأنف ملاكم مكسور ورأس حليق. لم يروا عينيه، لأنّه كان يستخدم نظارة شمسية بعدستين عاكستين تضفيان عليه مظهراً مشؤوماً. كان عاريَ الجذع يرتدي بنطلوناً عسكرياً وجزمة وحزاماً عريضاً من الجلد الأسود، ويتزين بندب أخوية الفهد وشرائط جلد الحيوان ذاته في ذراعيه. كان يرافقه جنديان بمثل طوله تقريباً.

حين رأت أنجي عضلات القائد الجبّارة فغر فاها إعجاباً؛ وبضربة ريشة ذهب غضبها وخجلت مثل طالبة مدرسة. أدركت كات كولد أنّها على وشك أن تخسرَ أفضلَ حليفة لها فتقدّمت خطوة.

ـ أيّها القائد مبِمبِلِهْ، أدعى ـ قالت.

لم يُجب الرجل، واقتصر على مراقبة مجموعة الغرباء بتعبير مُستَغلِق، كأنّه يضع قناعاً على وجهه.

ـ أيّها القائد، اثنان من مجموعتنا اختفيا ـ أعلنت كات.

تلقى العسكريُّ الخبر بصمت جليديّ.

ـ إنّهما الشابّان، حفيدي ألِكساندر وصديقته ناديا ـ أضافت كات.

ـ نريد أن نعرف أين هما ـ أضافت أنجي، حين استعادت نفسها من ضربة السهم المذهل الذي تركها خرساء مؤقّتاً.

ـ لا يمكنهما أن يكونا قد ذهبا بعيداً، يجب أن يكونا في القرية... ـ دمدمت كات.

انتاب الكاتبةَ إحساس بأنّها تغوص في موحلة؛ فقدت توازنها، وارتجف صوتها. صار الصمت لا يُطاق. بعد دقيقة كاملة بدت لانهائية سمعوا أخيراً صوتَ القائد القويّ.

ـ الحرّاس الذين أغفلوا عملهم سيُعاقَبون.

كان هذا كلّ شيء. استدار نصف دورة وذهب من حيث أتى، يتبعه مرافقاه والجنديان اللذان أساءا معاملة كات. راحوا يضحكون ويُعلّقون. التقط الراهب فِرناندو وأنجي بعضاً من النكتة: الفتيان الأبيضان اللذان هربا أبلهان فعلاً، سيموتان في الغابة ملتَهَمين من الضواري أو الأشباح.

نظراً لأنّ أحداً لا يُراقبهم أو يبدو مهتمّاً بهم، عادت كات ورفاقها إلى الكوخ الذي عيّنَ مسكناً لهم.

ـ لقد تبخّر هذان الصبيان! دائماً يُسبّبان لي المشاكل! أقسم أنّهما سيدفعان الثمن! ـ صاحت كات، وهي تهزّ خصل شعرها الرمادية القصيرة، التي تُتَوِّج رأسها.

ـ لا تُقسمي، يا امرأة، الأفضل أن نُصلّي ـ اقترح الراهب فِرناندو.

جثا بين الصراصير، التي كانت تتنزّه على الأرض وبدأ يُصلّي. لم يُقلّده أحد، كانوا مشغولين بالتخمين ورسم الخطط.

رأت أنجي أنّ الشيء الوحيد المعقول هو التباحث مع الملك كي يُسهِّل لهما زورقاً، الطريقة الوحيدة للخروج من القرية. كان جول غونثالث يعتقد أنّ من يأمر في القرية ليس الملك بل القائد مبمبِلِهْ، الذي لا يبدو مستعداً لمساعدتهم. وهذا يعني أنّ من المناسب لهم أن ينجحوا في أن يقودهم الأقزام عبر دروب الغابة السرّية، وهُمْ

وحدهم من يعرفها. لم تكن كات تُفكّر أن تتزحزح من مكانها ما دام الشابان لم يعودا.

فجأةً تدخّل الراهب فِرناندو، الذي كان ما يزال جاثياً على ركبتيه، ليُريهم ورقةً وجدها فوق إحدى الصرر حين جثا ليُصلّي، واقترب من إحدى النوافذ التي يدخل منها النور.

ـ إنّها من ألكساندر!

وبصوت ممزّق قرأت الكاتبةُ رسالةَ حفيدها القصيرة: «سنُحاول أنا وناديا مساعدة الأقزام. ألهوا كوسونغو. لاتنشغلوا، سنعود قريباً».

ـ هذا الصبيّ مجنون ـ علّق جول غونثالِث.

ـ لا، هذا هو وضعه الطبيعي. ماذا نستطيع أن نفعل؟ ـ أنّت الجدّة.

ـ لا تقل لنا أن نُصلّي، أيّها الراهب فِرناندو. يجب أن يكون هناك شيء عملي أكثر نستطيع أن نفعله! ـ صاحت أنجي.

ـ لا أدري ماذا ستفعلين أنت يا آنسة. أمّا أنا فواثق أنّ الصبيين سيعودان. سأستغلّ الوقت لأتحقّق من مصير المُبشرين ـ ردّ الرجلُ، ناهضاً على قدميه ونافضاً الصراصير عن بنطلونه.

9

الصيادون

تاها بين الأشجار، لا يدريان إلى أين يتجهان. اكتشف ألِكساندر علقةً ملتصقة برجله، منتفخة من دمه، فنزعها دون أن يقوم بحركات هلع. فقد جرّبها في الأمازون وما عاد يخافها، لكنّها ما تزال تُسبّب له الاشمئزاز. لم يكن هناك من طريقة لمعرفة الاتجاه في الغابة الكثيفة والطافحة، فكلّ شيء يبدو لهما ذاته. البقع الوحيدة مختلفة اللون في خضرةِ الغابةِ الأبديّةِ هي السحليات وتحليق طائرٍ سريعٍ، زاهي الريش. كانا يدوسان أرضاً محمَرَّة، طريةً ورخوةً، أوحلَها المطرُ ومزروعة بالعوائق تحت غطاء من الأوراق الطافية. كان عليهما أن يُزيحا النباتات المتسلّقة التي شكّلت في بعض المناطق ستائرَ حقيقيةً، ويتفاديا أشواكَ بعضِ النباتات المسنونة. لم تكن الغابة مطبقة، كما بدت لهما من قبل، فهناك فتحات في أعالي الأشجار تنسلّ منها أشعّة الشمس.

كان ألِكساندر يحملُ السكين في يده، مستعدّاً لأن يطعن أوّل حيوان يُؤكَل يقع في متناول يديه، لكن ما من حيوان أرضى هذه الرغبة عنده. مرّت عدّةُ جرذان بين رجليه، لكنّها كانت سريعة. اضطرَّ الشابان لأن يسدّا رمقهما ببعض الثمار المجهولةِ، ذات الطعم المرّ. وبما أنّ بوروبا أكل منها افترضا أنّها غير ضارة وقلّداه. خافا أن يضيعا، كما كانا عملياً، إذ لم يكونا يعرفان كيف يعودان

إلى نجوبي، ولا كيف يعثران على الأقزام. فأملا أن يعثر هؤلاء عليهما.

كان قد مضى عليهما عدّة ساعات يتحرّكان فيها دون اتجاه محدّد، وهما في كلّ مرّة أكثر ضياعاً وضيقاً حين راح بوروبا يزعق فجأة. كان القردُ قد أخذ عادة الجلوس على رأس ألِكساندر لافاً ذيله حول عنقه وهو يمسك بأذنيه، إذ من هناك كان يرى العالمَ بشكلٍ أفضل مما بين ذراعي ناديا. كان ألِكساندر ينفضُ بوروبا عنه، لكنّه يعودُ مع أوّل سهوة ليجلس في مكانه المفضّل. ولأنّه كان يركب على ألكساندر استطاع أن يرى الآثار. كانوا على بعدِ مترٍ واحد فقط، لكنّها لا تكادُ تُرى. كانت آثار أقدام ضخمة تسحق كلَّ شيء في طريقها وترسم ما يُشبِهُ الدرب. عرفها الشابان على الفور، لأنّهما رأياها في سفاري ميشيل موشاحا.

ـ إنّها آثار فيل ـ قال ألِكساندر، متفائلاً ـ إذا كان يوجدُ واحد هنا، فلا شكّ أنّ الأقزام يمضون قريبين أيضاً.

بقي الفيل طريداً أيّاماً. فالأقزام يُلاحقون الطريدة، ويتعبونها حتى تَهِن تماماً، ثمّ يوجِّهونها باتجاه الشباك ويُحاصرونها وعندئذٍ يهاجمونها. الهدنة الوحيدة التي نالها الحيوان كانت حين سها عنه بييّهْ ـ دوكو ورفاقه ليقودوا الغرباء إلى قرية نجوبي. حاول الفيل خلال ذلك المساء وجزء من الليل أن يعود إلى مناطق نفوذه، لكنّه كان منهكاً ومشوَّشاً. فقد أجبره الصيّادون على التوغّل في أرضٍ مجهولة ولم يتمكّن من العثور على طريقه وراح يدور في دائرة مغلقة. إنّ وجود الكائنات البشرية برماحهم وشباكهم يعلن نهايته. الغريزة حدّثته بذلك، لكنّه استمرّ بالجري لأنّه لم يستسلم للموت بعد.

خلال آلاف وآلاف السنين واجه الفيل الصيّادين وفي ذاكرة الاثنين محفورة احتفالية الصيد المأساوية، التي يستعدان فيها للقتل أو الموت. الدوار أمام الخطر مذهل للاثنين. في لحظة الصيد العليا،

تمسك الطبيعة بالنفس، وحين يتقرّر مصير أحدهما يخفق قلب الإنسان وقلب الحيوان بإيقاع واحد. ما من حيوان آخر يعترض الفيلَ، ملك الغابة، أكبر وأثقل بهيمة، وأكثرها احتراماً. عدّوه الوحيد هو الإنسان، المخلوق الصغير، المعطوب، الذي لا يملك مخالب ولا أنياب ويستطيع أن يسحقه بساق واحدة مثل ضبّ. كيف يجرؤ هذا الكائنُ التافه أن يقف أمامه؟ لكن ما إن يبدأ طقس الصيد حتى لا يعود هناك وقت للتفكير بمهزلة الموقف، فالصياد وطريدته يعرفان أنّ هذه الرقصة لا تنتهي إلاّ بالموت.

اكتشف الصيّادون آثار النباتات المسحوقة وأغصان الأشجار المخلوعة من جذورها، قبل ناديا وألِكساندر بكثير، متنقلين بتناغم تامٍّ كي يُحاصروه من مسافة حذرة. كان الأمر يتعلّق بذكرٍ وحيدٍ عجوز، بنابين هائلين. لم يكونوا أكثر من اثني عشر قزماً بأسلحة بدائية، لكنّهم لم يكونوا مستعدّين لأن يتركوه يفلت منهم. في الأزمنة العادية كانت النساء ينهكن الحيوان ويقدنه باتجاه الأفخاخ حيث ينتظرونه.

قبل سنوات وفي مرحلة الحرية، كانوا دائماً يقيمون احتفالات ليطلبوا مساعدة أسلافهم ويشكروا الحيوان لاستسلامه للموت، لكن ومنذ أن فرض كوسونغو سيادة رعبه اختلفت الأمور. حتى الصيد، أقدم نشاط عند القبيلة وأكثره أهمية، فَقَدَ طبيعته المقدسة ليتحوّل إلى مجزرة.

سمع ألِكساندر وناديا جؤاراً طويلاً وأحسّا باهتزاز وطئه الهائل على الأرض. كان قد بدأ الفعل الأخير: الشبكة كبّلت الفيلَ والرماح الأولى انغرزت في خاصرتيه.

صرخة من ناديا أوقفت الصيّادين ورماحهم مشهرة، بينما الفيل يتخبّط هائجاً، يصارع بآخر قواه.

ـ لا تقتلوه! لا تقتلوه! ـ كرّرت ناديا.

حالت الشابةُ بين الرجال والحيوان وذراعاها إلى الأعلى. استفاق الأقزام على الفور من المفاجأة وحاولوا أن يُبعِدوها، لكنّ أَلِكساندر كان قد قفز إلى الحلبة.

ـ كفى! توقّفوا! ـ صرخ الشابّ مظهراً لهم التميمة.

ـ إيبِمبا ـ أفوَا ـ صاحوا وسقطوا ساجدين أمام رمز القبيلة المقدّس، الذي بقي زمناً طويلاً بين يدي كوسونغو.

كان أَلِكساندر يُدرِكُ أنّ العظم المنقوش أكبر قيمة من محتواه، فردّ فعل الأقزام هو نفسه، حتى ولو كان فارغاً. لقد مرّ من يدٍ إلى يدٍ على امتداد أجيالٍ كثيرة ويعزون إليه قدراتٍ سحرية. الدَّين الذي يدينون به لأَلِكساندر وناديا لأنّهما أعادا لهم إيبِمبا ـ أفوَا كان هائلاً: لن يستطيعوا أن يرفضوا طلباً لهذين الشابين الغريبين، اللذين جاءاهم بروح القبيلة.

شرح لهم أَلِكساندر، قبل أن يُسلِّماهم التميمةَ، الأسبابَ الموجبة لعدم قتل الحيوان، الذي أصبح مهزوماً في الشباك.

ـ لم يبق إلا عدد قليل من الفيلة في الغابة، وسرعان ما سيُقضى عليها. ماذا ستفعلون عندها؟ لن يكون هناك عاج لإنقاذ أطفالكم من العبودية. الحلّ ليس بالعاج، بل بالقضاء على كوسونغو وتحرير عائلاتكم مرّة واحدة ـ قال الشابّ.

وأضاف أنّ كوسونغو رجلٌ عاديّ والأرض لا تهتزّ إذا مالامست قدماه الأرض، ولا يستطيع أن يقتل بنظرته أو صوته. قوّته الوحيدة هي تلك التي يمنحها له البقيّة. إذا لم يُخَفْه أحد فإنّه سينتهي.

ـ ومْبِمبِلِهْ؟ والجنود؟ ـ سأل الأقزام.

كان على أَلِكساندر أن يعترف أنّه لم يرَ القائد وأنّ أعضاء أخويّة الفهد يبدون بالفعل خطرين.

ـ لكن إذا كنتم تملكون الشجاعة لصيد الفيلة بالرماح، تستطيعون أيضاً أن تتحدّوا مبِمْبِلِهْ ورجاله ـ أضاف.

ـ هيّا بنا إلى القرية. فنحن مع إيبّمبا ـ أفوَا ونسائنا نستطيع أن نهزم الملك والقائد ـ اقترح بِيَية ـ دوكو.

ونظراً لأنّ *توما* ـ أفضل صيّاد ـ كان يتمتّع باحترام رفاقه، إلاّ أنّه لا سلطة له ليفرض عليهم أيّ شيء. بدأ الصيّادون يتناقشون، وسرعان ما انفجروا، رغم جدّية الموضوع، بالضحك. اعتبر ألِكساندر أن أصدقاءه الجدد يضيّعون وقتاً ثميناً.

ـ لِنُحرّر نساءكم كي يُقاتِلنَ إلى جانبِنا. أصدقائي سيُساعدوننا أيضاً. بالتأكيد ستخطر لجدّتي حيلة ما، إنّها ذكيّة جدّاً ـ وعد ألِكساندر.

ترجم بِيَية ـ دوكو كلماته، لكنّه لم ينجح في إقناع رفاقه. كانوا يعتقدون أنّ هذه المجموعة المُشجية من الأجانب لن تكون ذات فائدة كبيرة ساعة المعركة. أيضاً الجدّة لم تُدهِشهم، فقد كانت مجرّد عجوزٍ، جعداء الشعر، مجنونةَ العينين. وهم من جهتهم يُعَدّون على الأصابع ولا يملكون غير الرماح والشباك، بينما أعداؤهم كثرٌ وأقوياء جدّاً.

ـ قالت لي النساء إنّ الأقزام والبانتوويين كانوا أصدقاء في زمن الملكة نانا ـ أسانتِ ـ ذكّرتهم ناديا.

ـ صحيح ـ قال بِيَية ـ دوكو.

ـ البانتوويون بدورهم يعيشون مذعورين في نجوبي. مْبِملِة يُعذّبهم ويقتلهم إذا عصوه. وإذا استطاعوا فسيتحرّرون من كوسونغو والقائد. ربّما وقفوا إلى جانبنا ـ ارتأت الفتاة.

ـ حتى ولو ساعدَنا البانتوويون وهزمْنا الجنودَ يبقى هناك سومبِ، الساحر ـ أضاف بِيَية ـ دوكو.

ـ أيضاً نستطيع أن نهزم الساحر! ـ صاح ألِكساندر.

لكنّ الصيّادين رفضوا رفضاً قاطعاً فكرة تحدّي سومبِ، ووضحوا ما تعتمد عليه قواه المرعبة: كان يبلع النار، يسير في

الهواء وعلى الجمر الملتهب، يتحوّل إلى ضفدع ويقتل بلعابه. ارتبكوا في حدود الإيماء وفهم ألِكساندر أنّ الساحر كان يقرفص على أربع ويتقيّأ. وهو ما لم يبدُ له شيئاً من العالم الآخر.

ـ لا تهتمّوا، يا أصدقائي، نحن نتكفّل بسومبٍ ـ وعدَ بثقة زائدة.

سلّمهم التميمةَ السحرية، التي تلقاها أصدقاؤه بتأثّر وفرح. فقد انتظروا هذه اللحظة منذ عدّة سنوات.

بينما كان ألِكساندر يُجادِل الأقزام، اقتربت ناديا من الفيلِ الجريح وحاولت تهدِئته باللغة التي تعلّمتها من كوبي، فيل السفاري. كانت البهيمة الضخمة في حدود قواها الدنيا، هناك دم على جنبه حيث جرحه زوج من رماح الصيّادين وعلى خرطومه الذي كان يخبط به الأرض. صوت الفتاة التي كانت تُكلّمه بلغته وصله، كما لو من بعيد جدّاً، كما لو أنّه يسمعه في الحلم. كانت المرّة الأولى التي يواجه بها الكائنات البشريّة، ولم يتوقّع أن يتكلّموا مثله. انتهى في إنهاك اليائس إلى أن أصاخ بسمعه. اخترق هذا الصوتُ، بطيئاً لكن واثقاً، حاجزَ اليأس الكثيف والألمَ والرعبَ ووصل إلى دماغه. راح يهدأ شيئاً فشيئاً حتى توقّف عن التخبّط بين الشباك. برهة وهدأ، وهو يلهث وعيناه عالقتان بناديا خابطاً بأذنيه. كان يصدر رائحةَ خوفٍ شديدةً، أحسّت بها ناديا مثل صفعة، لكنّها بقيت تُكلّمه، واثقةً من أنّه يفهمها. وراح الفيل أمام ذهول الرجال يُجيبها وسرعان ما زال كلّ شكٍّ عندهم بأن الطفلة والحيوان يتواصلان.

ـ لِنُقم عهداً ـ اقترحت ناديا على الصيّادين ـ مقابل إيبُمبا ـ أفوا سوف تعفون أنتم عن الفيل.

كانت التميمةُ بالنسبة إلى الأقزام أكبرَ قيمةً من عاجِ الفيل، لكنّهم لم يكونوا يعرفون كيف ينزعون عنه الشباك دون أن يموتوا مسحوقين بأرجله أو مشكوكين في النابين ذاتهما، اللذين كانوا

يريدون حملهما إلى كوسونفو. أكّدت لهم ناديا أنّ باستطاعتهم أن يفعلوا ذلك دون خطر. في هذه الأثناء كان ألِكساندر قد اقترب كفايةً كي يتفحّص جروحَ الرماح في الجلد السميك.

- لقد فقد دماً كثيراً، وهو مصاب بالتجفاف، والجراح يمكن أن تلتهب. أخشى أن يكون بانتظاره موتٌ بطيء ومؤلِم - أعلن.

وهنا أخذ بِيِّية - دوكو التميمةَ واقترب من البهيمة. نزع غطاءً صغيراً في طرفِ إيبّمبا - أفوَا، حتى العظمَ وهو يهزّه مثل مملحة، بينما صيّاد آخر يضع يديه ليتلقى المسحوق الضارب للخضرة. طلبا من ناديا بالإشارةِ أن تضعه له، لأنّه ما من أحدٍ كان يجرؤ على لمس الفيل. وضّحت ناديا للجريح أنّها ستُعالجه وحين تكهّنت بأنه فهم عليها، وضعت المسحوقَ على جراح الرماح العميقة.

لم تنغلق الجراحُ بشكلٍ سحريّ، كما توقّعت، لكنّها توقّفت بعد دقائقَ قليلة عن النزف. أدار الفيلُ رأسه كي يتحسّس بخرطومه متنه، لكنَّ ناديا حذّرته بأنّ عليه ألاّ يلمسه.

تجرّأ الأقزام على نزع الشباك، المهمّة المعقّدة أكثر من نصبها، لكنّ المهمّ أن الفيل تحرّر أخيراً. كان قد استسلم لقدرِه، وربّما استطاع أن يعبر الحدود بين الحياة والموت، وها هو يجد نفسه فجأةً حرّاً بمعجزة. خطا عدّة خطوات تجريبية، ثمّ تقدّم باتجاه الأدغال، مترنّحاً. في اللحظة الأخيرة وقبل أن يضيع متوغّلاً في الغابة، التفت إلى ناديا، نظر إليها بعين غير مصدّقة، رفع خرطومه وأطلق زمجرة.

- ماذا قال؟ - سأل ألِكساندر.

- أن نناديه إذا احتجنا لأيّة مساعدة - ترجمت ناديا.

بعد قليل كان الليل سيحلُ. لم تكن ناديا قد أكلت إلاّ قليلاً جدّاً في الأيّام الأخيرة وكان ألكساندر جائعاً مثلها. اكتشف الصيّادون

آثار جاموس، لكنّهم لم يتبعوه، لأنّه خطير جدّاً ويمضي في مجموعات. قالوا إنّ لسانه خشن مثل المبرد، ويستطيع أن يبرد رجُلاً حتى يقشر لحمه ويتركه عظماً. لا يستطيعون أن يصطادوه دون مساعدة نسائهم. قادوهما خبباً إلى تجمّع مساكن صغيرة، مصنوعة من الأغصان والأوراق. كانت القرية من البؤس بحيث بدا من غير الممكن أن تكون مأهولة. لم يكونوا يبنون أبنية أكثر تماسكاً لأنّهم رُحَّل، مفصولون عن عائلاتهم، وعليهم أن ينتقلوا في كلّ مرّة إلى مناطق أبعد بحثاً عن الفيلة. لم تكن القبيلة تملكُ غير مايمكن أن يحمله كلُّ فرد معه. والأقزام لا يصنعون إلاّ الأشياء الضرورية للعيش والصيّد في الغابة، وما عداه يحصلون عليه بالتبادل. وبما أنّ الحضارة لم تكن تهمّهم، فالقبائل الأخرى كانت تعتقد أنّهم قرود.

أخرج الصيّادون من فجوة في الأرض ظبياً مغطّى بالتراب والحشرات. كانوا قد اصطادوه قبل أيّامٍ، أكلوا جزءاً منه، وطمروا الباقي كيلا تنتزعه منهم حيوانات أخرى. وعندما وجدوا أنّه مايزال هناك راحوا يُغنّون ويرقصون. تأكّدت ناديا وألِكساندر مرّة أخرى أنّ هؤلاء الناس رغم معاناتهم سعداء جدّاً حين يكونون في الغابة، فأيّ حجّة تفيدهم كي يمزحوا ويحكوا قصصاً ويضحكوا مقهقهين. كانت تصدر عن اللحم رائحة نتنة وصار لونه ضارباً للخضرة، لكن وبفضل قدّاحة ألِكساندر، ومهارة الأقزام في العثور على وقود جاف، أشعلوا صلاء صغيراً شووه عليه. كذلك أكلوا بحماسٍ اليرقاتِ واليساريع والديدان والنمل المتلصقة باللحم الذي يعتبرونه طيّباتٍ حقيقيةً، وأكملوا العشاء بثمار بريّة وجوز وماء من الأغمار الموجودة في الأرض.

ـ حذّرتني جدّتي من أنّ الماء القذر سيسبّب لنا الكوليرا ـ قال ألِكساندر، وهو يشرب ملءَ يديه، لأنّه كان ميتاً عطشاً.

ـ ربّما لك أنت، لأنّك رقيق جدّاً ـ سخرت ناديا ـ أمّا أنا فعصيّة على الأمراض الاستوائية لأنّني ترعرعت في الأمازون.

سألا بِيَيهْ ـ دوكو عن المسافة التي تفصلهم عن نجوبي، لكنّه لم يستطع أن يعطيهما جواباً دقيقاً، لأنّ المسافة بالنسبة إليهم كانت تُقاسُ بالساعات وتتعلّق بالسرعة التي يتنقلون بها. خمس ساعات من المسير تُساوي اثنين يجريان. أيضاً لم يستطع أن يدلّ على الاتجاه، لأنّه لم يحمل قط بوصلة أو خريطة، لم يكن يعرف الجهات الأربع. كانوا يستدلون على الجهات بالطبيعة، يستطيعون أن يعرفوا كلَّ شجرةٍ في أرض مساحتها مئة هِكتار. وضّح أنّهم وحدهم، الأقزام، عندهم أسماء لكلّ شجرة ونبتة وحيوان بينما بقيّة الناس يعتقدون أن الغابة لفيف أخضر موحّد ومستنقعات. الجنود والبانتوويون لا يُغامرون إلا ما بين القرية وتفرُّع النهر، حيث يقيمون علاقات مع الخارج ويتاجرون مع المهرِّبين.

ـ تجارة العاج ممنوعة في جميع أنحاء العالم تقريباً. كيف يُخرجِونه من المنطقة؟ ـ سأل ألِكساندر.

أخبره بِيَيهْ ـ دوكو أنّ مْبِمبِلِهْ كان يرشو السلطات ويملك شبكةً من الأتباع على طول النهر. يربط الأنياب تحت الزوارق بحيث تبقى تحت الماء وهكذا كان ينقلها في وضح النهار. الماس ينقلونه في أمعاء المهرِّبين. يبتلعونه مع ملاعق من عسل وحلوى المنيهوت، ويُخرجونها بعد يومين، حين يجدون أنفسهم في مكان آمِنٍ، من الطرف الآخر. طريقة مقزِّزة لكنّها مأمونة.

حكى لهم الصيّادون عن أزمنةٍ سابقة على كوسونغو، حين كانت نانا ـ أسانتِ تحكم في نجوبي. في تلك المرحلة لم يكن يوجد ذهب، ولا تجارة عاج، كان البانتوويون يعيشون من القهوة، التي ينقلونها في النهر ليبيعوها في المدن، والأقزام ما زالوا يصطادون في الغابة معظم أيّام السنة. كان البانتوويون يزرعون الخضراوات والمنيهوت، التي يقايضون بها اللحم من الأقزام. كانوا يحتفلون بالأعياد معاً. كان البؤس واحداً، لكنّهم على الأقلّ يعيشون أحراراً. كانت تصل أحياناً زوارق محملّة بأشياء من المدينة، لكنّ البانتوويين لم يكونوا يشترون إلا قليلاً، لأنّهم كانوا فقراء جدّاً،

والأقزام لم يكن يهمّهم. كانت الحكومة قد نسيتهم، وإن أرسلت بين الحين والآخر مُمرّضة ومعها لقاحات، أو معلّماً بهدف فتح مدرسة، أو موظّفاً يعد بإيصال الكهرباء. لكنّهم سرعان ما يعودون؛ لم يكونوا يتحمّلون البعد عن الحضارة، يمرضون، يُجنّون. الوحيدون الذين بقوا هم القائد مْبِمبِلِهْ ورجاله.

ـ والمُبشّران ـ سألت ناديا.

ـ كانا قويّين وبقيا بدورهما. حين جاءا كانت نانا ـ أسانتِ قد غادرت، طردهما مْبِمبِلِهْ. ومع ذلك لم يُغادرا. حاولا أن يُساعدا قبيلتنا. بعدها اختفيا ـ قال الصيّادون.

ـ مثل الملكة ـ صوّب أَلِكساندر.

ـ لا، ليس مثل الملكة... ـ أجابوا، لكنّهم لم يبغوا أن يُعطوا تفاصيل أكثر.

10

قرية الأسلاف

كانت تلك هي الليلة الأولى الكاملة في الغابة بالنسبة إلى ناديا وألِكساندر. في الليلة السابقة حضرا احتفال كوسونغو، وزارت ناديا القزمات العبدات، سرقا التميمة وأحرقا المسكن الملكي قبلَ أن يخرجا من القرية، أيّ أنّهما لم يشعرا بها طويلة، لكنّ هذه بدت لهما أبديّة. كان النور تحت قبّةِ الأشجار يذهب باكراً ويعود متأخِّراً. بقيا أكثر من عشر ساعات منكمشَيْنْ في ملاذات الصيّادين الكئيبة، مُتَحَمِّلَين الرطوبةَ والحشرات وقرب الحيوانات الوحشية، وما من شيءٍ منها كان يزعج الأقزام، الذين لم يكونوا يخافون غير الأشباح.

فاجأ نور الفجر الأوّل ناديا، بينما كان ألِكساندر وبوروبا مُستيقِظَيْنْ وجائعين. لم يكن قد بقي من الظبي المشوي غير عظام محروقة خالصة ولم يجرؤا أن يأكلا مزيداً من الثمار، لأنّها تُحدث عندهما ألماً في الأمعاء. قرّرا ألاّ يُفكِّرا بالطعام. وسرعان ماإستيقظ الأقزام أيضاً وراحوا يتكلّمون فيما بينهم بلغتهم برهةً طويلة. وبما أنّه لم يكن لديهم زعيم، فالقرارات كانت تحتاج ساعات من النقاش في حلقة، لكن ما إن يتفقوا حتى يعملوا كرجلٍ واحِد. فهمت ناديا بفضل السهولة المدهشة في تعلّم اللغات المعنى العامّ للحديث، بينما لم يلتقِط ألِكساندر إلاّ بعض الأسماء التي كان يعرفها:

نجوبي، إيبِّمبا ـ أفوَا، نانا ـ أسانتِ. أخيراً انتهى الحديث الحماسي وعرف الشابّان الخطّة.

سيصل المهربون بحثاً عن العاج ـ أو عن أطفال الأقزام ـ خلال يومين. هذا يعني أنّ عليهم أن يُهاجموا نجوبي في فترة أقصاها ستاً وثلاثين ساعة. أوّلاً والأكثر أهميّة هو أنّهم قرّروا ان يحتفلوا بالتميمة المقدّسة ليطلبوا حمايةَ الأسلاف وإزنجي، روح الغابة العظيم، والحياة والموت.

ـ هل سنمرّ بالقرب من قرية الأسلاف حين نصل إلى نجوبي؟ ـ سألت ناديا.

أكّد لهما بِيِيهْ ـ دوكو أنّ الأسلافَ يعيشون بالفعل في مكان بين النهر ونجوبي. بقي أمامهم عدّة ساعات من المسير من حيث هم في تلك اللحظة. تذكّر ألِكساندر أنّ جدّته جابت العالم عندما كانت شابّة وعلى ظهرها حقيبتها وأنّها كانت تنام عادةً في المقابر، لأنّها آمنة جدّاً، ولا أحد كان يدخلها ليلاً. كانت مدينة الأسلاف مكاناً مثالياً للتحضير للهجوم على نجوبي. هناك سيكونون على مسافة قصيرة من هدفهم وآمنين تماماً، لأنّ مْبِمْبِلِهْ وجنوده لن يقتربوا منها إطلاقاً.

ـ هذه لحظةٌ خاصّة جدّاً، أهمّ لحظة في تاريخ قبيلتكم. أعتقد أنّ عليكم أن تُقيموا الاحتفال في قرية الأسلاف... ـ اقترح ألِكساندر.

دُهِش الصيّادون من جهل الشاب الغريب المُطلق، وسألوه ما إذا كانوا في بلدهم لا يحترمون أسلافهم. اضطرّ ألِكساندر لأن يعترف أنّ الأسلاف في الولايات المتحدة يشغلون مكانة تافهة في السلّم الاجتماعي. شرحوا له أنّ مدينة الأرواح مكان محرّم، وما من إنسان يستطيع أن يدخله إلاّ ويموت فوراً. فقط يذهبون إلى هناك ليأخذوا إليه الموتى، وهم يقيمون، حين يموت أحدٌ في القبيلة، طقساً يدوم نهاراً وليلة، بعدها تلفّ النساء الأكبر سنّاً الجثة بالخرق والأوراق، يربطنها بالحبال المصنوعة من ألياف قشور الشجر، التي هي

نفسها التي يستخدمونها لشباكهم ويحملونها لترتاح مع الأسلاف. كانوا يقتربون بسرعة من القرية، يُودِعون حملَهم ويخرجون راكضين بأسرع ما يمكن. وكان هذا يتمّ دائماً صباحاً، في وضح النهار، بعد تقديم عددٍ من القرابين. وهي الساعة الأمينة الوحيدة، لأنّ الأشباح تنام نهاراً وتحيا ليلاً. إذا ما عومِل الأسلاف بالاحترام المتوجب فإنّهم لا يزعجون البشر، لكن إذا ما أُهينوا فإنّهم لا يغفرون. كانوا يخافونهم أكثر من الآلهة، لأنّهم أقرب إليهم.

كانت أنجي نيندرِرا قد حكت لناديا وألِكساندر أنّه توجد في أفريقيا علاقة دائمة بين الكائنات البشرية وعالم الأرواح.

ـ الآلهة الأفريقيّة أكثر إشفاقاً وعقلانية من آلهة شعوبٍ أخرى ـ كانت قد قالت لهم ـ لا تُعاقب مثل الإله المسيحي. ليس لديها جحيم تعاني فيه الأرواح إلى أبد الآبدين. الشيء الوحيد الذي يمكن أن يحدث لروح أفريقية هو أن تتيه ضائعة وحيدة. الإله الأفريقي لن يرسل ابنه الوحيد أبداً ليموت على الصليب كي يُخلّص البشرية من الخطايا، التي يستطيع أن يمحوها بجرة واحدة. والآلهة الأفريقية لم تخلق البشر على صورتها، كما أنّها لا تُحبّهم، لكنّها على الأقل تتركهم بسلام. بالمقابل الأرواح أخطر، لأنّ لها مثالب الأشخاص ذاتها، فهي شحيحة، قاسية وغيورة. وللإبقاء عليها هادئة يجب تقديم الهدايا لها. لا تطلب كثيراً: دفقة مشروب كحولي، سيجارة، دم ديك.

كان الأقزام يعتقدون أنّهم أهانوا أسلافهم بشكلٍ خطير، لذلك يعانون علي يد كوسونغو. لا يعرفون ما هي هذه الإهانة ولا كيف يُصحّحونها، لكنّهم يفترضون أن مصيرهم سيتغيّر إن هم خفّفوا من غضبهم.

ـ هيّا بنا إلى قريتهم ولنسألهم لماذا هم منزعجون وماذا يريدون منكم ـ اقترح ألِكساندر.

ـ هم أشباح! ـ صاح الأقزام، مذعورين.

ـ أنا وناديا لا نخافهم. سنذهب ونتكلّم معهم، ربّما ساعدونا. فبعد كلّ شيء، أنتم ذرّيّتهم، يجب أن يُحبّوكم قليلاً، أليس كذلك؟

في البداية رُفِضت الفكرة تماماً، لكنّ الشابين أصرّا. ثم وبعد نقاش دام برهة طويلة، اتفق الصيّادون على التوجّه إلى مقربة من القرية المحرّمة. سيبقون متخفّين في الغابة، حيث سيجهزون أسلحتهم ويقيمون احتفالاً، بينما يُحاول الغريبان أن يتحادثا مع الأسلاف.

ساروا ساعاتٍ في الغابة. تركتهم ناديا وألِكساندر يقودونهما دون أسئلة، رغم أنّه بدا لهما عدّة مرّاتٍ أنّهم مرّوا في المكان ذاته. كان الصيّادون يسيرون دائماً خابّين بثقة، بلا طعام ولا شراب، عصيّين على التعب، لا يقيم أودهم غير تبغ غلايين خيزرانهم الأسود. كانت هذه الغلايين، إضافة إلى شباكهم ورماحهم وسهامهم، ملكياتهم الدنيوية الوحيدة. كان الشابّان يتبعانهم متعثّرَين كلّ لحظة، وقد دوّخهم التعب والحرّ، حتى ارتميا على الأرض، رافضَين الاستمرار. كانا بحاجة لأن يرتاحا ويأكلا شيئاً.

أطلق أحد الصيّادين سهماً على قرد سقط مثل حجر عند قدميه. قطّعوه، اقتلعوا جلدَه وغرزوا أسنانهم في لحمه النيّء. أشعل ألِكساندر ناراً صغيرة وحمّص القطع التي كانت من نصيبه ونصيب ناديا، بينما بوروبا يُغطّي وجهَه بيديه ويئنّ. كان هذا بالنسبة له أكل لحم أخيه الرهيب. قدّمت له ناديا براعم خيزران وحاولت أن توضّح له أنّهما نتيجة الظروف لا يستطيعان أن يرفضا اللحم، لكنّ بوروبا المذعور أدار لها ظهره ولم يسمح لها بأن تلمسه.

ـ هذا كما لو أنّ مجموعة من القردة التهمت شخصاً أمامنا ـ قالت ناديا.

ـ الحقيقة أنّها فظاظة منّا، يا نسر، لكنّنا إذا لم نتغذّ لن نستطيع أن نتابع ـ تعلّل ألِكساندر.

شرح لهما بِيّة ـ دوكو ما كانوا يفكّرون القيام به. سيكونون في نجوبي عند هبوط مساء اليوم التالي، حين يكون كوسونغو بانتظار العاج. لا شكّ سيشتاط غيظاً حين يراهم يصلون فارغي الأيدي. قالوا إنّهم وبينما يُلهيه بعضهم بالذرائع والوعود يفتحُ آخرون زريبة النساء ويُحضرون الأسلحة. سوف يُقاتلون دفاعاً عن حياتهم وإنقاذاً لأولادهم.

ـ يبدو لي قراراً شجاعاً جدّاً، لكنّه ليس عمليّاً كثيراً. سينتهي بمجزرة، لأنّ الجنود يحملون بنادق ـ تعلّلت ناديا.

ـ عفا عليها الزمان ـ أشار أَلِكساندر.

ـ لكنّها أيضاً تقتل عن بُعد. لا يمكن القتال بالرماح ضدّ أسلحة نارية ـ أصرّت ناديا.

ـ إذن علينا أن نسطو على مؤنهم.

ـ مستحيل. الأسلحة ملقمة والجنود يحملون أحزمة رصاص. كيف سنستطيع تعطيل البنادق؟

ـ لا أعرف شيئاً عن هذا، يا نسر، لكنّ جدّتي حضرت عدّة حروب وعاشت أشهراً مع رجال العصابات في أمريكا الوسطى. أنا واثق من أنّها تعرف كيف تفعل ذلك. علينا أن نعودَ إلى نجوبي لتحضير الأرض قبل أن يصل الأقزام ـ اقترح أَلِكساندر.

ـ كيف سنقوم بذلك دون أن يلحظنا الجنود؟ ـ سألت ناديا.

ـ سنذهب ليلاً. أفهم أنّ المسافة بين نجوبي وقرية الأسلاف قصيرة.

ـ لماذا تُصر على الذهاب إلى القرية المحرّمة، يا جغوار؟

ـ يقولون إنّ الإيمان يُحرّكُ الجبالَ، يا نسر. إذا نجحنا بإقناع الأقزام بأنّ أسلافهم يحمونهم، سيشعرون بأنّهم لا يُقهَرون. ثمّ إنّ معهم تميمة إيبِمبا ـ أفوَا، وهذا سيمنحهم الشجاعة أيضاً.

ـ وماذا لو لم يبغِ الأسلاف أن يُساعدوهم؟

- الأسلاف غير موجودين، يا نسر، بعدها سنخرج ونحكي لأصدقائنا أنّ الأسلاف وعدونا بالمساعدة في المعركة ضدّ مْبِمْبِلِهْ. هذه هي خطّتي.

- لا تُعجبني خطّتك. حين يكون هناك خداع لا تأتي النتائج حسنة... - قالت ناديا.

- إذا كنتِ تُفضّلين سأذهب وحدي.

- تعرف أنّنا لا نستطيع أن ننفصل. سأذهب معك - قرّرت.

حين وصلوا إلى المكان المُعلَّم بدمى فودو المدمّاة التي سبق ورأوها كان ما يزال هناك نور في الغابة. رفض الأقزام أن يمضوا في هذا الاتجاه، لأنّهم لا يستطيعون أن يطؤوا أملاك الأرواح الجائعة.

- لا أظنّ انّ الأرواح تعاني من الجوع، يُفترَض أنّه ليس لها معدة - علّق ألِكساندر.

أشار بِيَيهْ - دوكو إلى أكوام القمامة الموجودة حولها. كانت قبيلته تُقدّم قرابين الحيوانات وتحمل تقدمات من الثمار والعسل والجوز والمشروبات الكحولية، التي يضعونها عند قدم الدمى. معظمها كان يختفي ليلاً، تبتلعها الأشباح التي لا تشبع. وبفضل هذا كانوا يعيشون بسلام، لأنّه إذا ما غُذّيت الأشباح كما يجب فإنّها لا تُهاجِم الناس. ألمح الشابّ إلى أنّ الجرذان لا شكّ هي التي تأكل التقدمات، لكن الأقزام الذين شعروا بالإهانة رفضوا هذا الرأي تماماً. فالعجائز المكلّفات بحمل الجثث إلى مدخل القرية أثناء الجنائز يستطعن أن يشهدن أنّ الطعام كان يُجرّ إلى هناك. سمعن أحياناً صرخات تقشعر لها الأبدان، قادرة على أن تحدث من الهول ما يجعل الشعر يشيب خلال ساعات قليلة.

- أنا وناديا وبوربا سنذهب إلى هناك، لكنّنا نحتاج إلى أحدٍ

ينتظرنا هنا كي يأخذنا إلى نجوبي قبل أن يطلع الفجر ـ قال ألِكساندر.

كانت فكرة قضاء الليلة في المقبرة برهاناً قاطعاً على أنَّ الشابّين الغريبين ليسا سليمي العقل، لكن وبما أنّهم لم يستطيعوا أن يثنوهما عن رأيهما انتهوا إلى أن قبلوا بقرارهما. دلّهما بِيّيهْ ـ دوكو على الطريق وودّعهما بكثير من علامات الود والحزن، لأنّه كان واثقاً من أنّه لن يراهما بعد الآن، لكنّه قَبِلَ مجاملةً أن ينتظرهم عند مذبح فودو حتى تطلع الشمس على الجبل التالي. ودّع البقيّةُ الفتيين الأجنبيين أيضاً، مندهشين من جرأتهما.

لفت انتباه ناديا وألِكساندر أنّه يوجد في تلك الأدغال النهمة، حيث وحدها الفيلةُ تترك آثاراً مرئيّة، دربٌ يقود إلى المقبرة. هذا يعني أنّ هناك من يستخدمه تكراراً.

ـ من هنا يمرّ الأسلافُ... ـ همست ناديا.

ـ إذا وُجِدوا فلن يتركوا آثاراً، يا نسر، ولن يحتاجوا إلى طريق ـ ردّ ألِكساندر.

ـ وما أدراك؟

ـ مسألة منطق.

ـ الأقزام والبانتوويون لا يقتربون، ولا لأيّ سبب من الأسباب، من هذا المكان؛ وجنود مْبِمْبِلِهْ أكثر تطيُّراً، فهؤلاء لا يدخلون حتى إلى الغابة. وضّح لي من الذي عَمِلَ هذا الدرب ـ طالبته ناديا.

ـ لا أدري، لكنّنا سنتحقّق من ذلك.

بعد مسير نصف ساعة وجدا نفسيهما في منطقة مكشوفة من الغابة، أمام جدار سميك وعالٍ مبنيّ من الحجارة والجذوع والقش والطين. على الجدار رؤوس حيوانات متيبسة وجماجم وعظام وأقنعة وصور منحوتة في الخشب، أوان فخارية وتمائم. لم يكن

يُرى باب، لكنّهما اكتشفا فجوة دائرية، بقطر ثمانين سنتيمتراً تقريباً مفتوحة على ارتفاع محدّد.

ـ أظنّ أنّ العجائز اللواتي يأتين بالجثث يرمينها من هذه الفجوة. على الطرف الآخر يجب أن يكون هناك أحواض عظام ـ قال ألِكساندر.

لم تُدرِك ناديا الفتحة، لكنّ ألِكساندر كان أطول منها واستطاع أن يُطلّ.

ـ ماذا يوجد؟ ـ سألت هي.

ـ لا أرى شيئاً. لِنُرسل بوروبا ليتحقّق.

ـ كيف يخطر لك هذا؟ بوروبا لا يستطيع أن يذهب وحده. نذهب كلّنا أو لا يذهب أحد ـ قرّرت ناديا.

ـ انتظريني هنا، سأعود حالاً ـ ردّ ألِكساندر.

ـ أفُضّل أن أذهب معك.

قدّر ألِكساندر أنّه إذا ما انزلق عبر الفجوة سيسقط على رأسه. لم يكن يعرف ما سيجد على الجانب الآخر؛ فكان من الأفضل له أن يتسلّق الجدار، وهذا لعب أطفال بالنسبة إليه، نظراً لتجربته في تسلّق الجبال. بناء الجدار غير المستوي كان يُسهّل الصعود، وفي أقل من دقيقتين امتطى الجدار منفرج الساقين، بينما ناديا وبوروبا ينتظران في الأسفل، متوتّرين كفايةً.

ـ إنّها مثل بلدة صغيرة مهجورة، تبدو قديمة، لم أر مثيلاً لها قط ـ قال ألِكساندر.

ـ هل هناك هياكل عظمية؟ ـ سألت ناديا.

ـ لا، تبدو نظيفة وفارغة. ربّما لا يُدخِلون الجثث من الفتحة، كما كنّا نُفكّر...

انتقلت ناديا أيضاً بمساعدة صديقها إلى الطرف الآخر، بينما

بوروبا تردّد، لكن الخوف من البقاء وحيداً دفعه للحاق بها، فهو لا ينفصل عن صاحبته أبداً.

كانت قرية الأسلاف للوهلة الأولى تبدو مجموعةً من الأفران الترابية الموضوعة في دوائر مركزية، في تناسق تام. كلّ واحد من هذه الأبنية الدائرية فيها حفرة على شكل بئرٍ مغلقٍ بقطع من القماش أو قشور الشجر. لم يكن هناك تماثيل ولا دمى ولا تمائم. تبدو الحياة قد توقّفت في الحظار المحاط بالجدار العالي. فالأدغال لاتتوغّل إليها وحتى الحرارة مختلفة فيها؛ ويسود صمتٌ غير مفهوم، لم تكن تُسمع ضوضاء قرود الغابة وطيورها، ولا حتى وقع المطر، ولا همس النسائم بين أوراق الأشجار. كان السكون مُطلقاً.

ـ إنّها قبور، هناك يجب أن يضعوا الموتى. هيّا بنا نتحقّق ـ قرّر ألِكساندر.

عندما رفعا بعض الستائر التي تُغطّي المداخل، رأيا أنّه يوجد في الداخل بقايا بشرية مرتبة، مثل هرم. كانت هياكل جافة ومتهشّمة ربّما هي هناك منذ مئات السنين. بعض الأكواخ كانت مليئة بالعظام، وبعضها حتى منتصفها وبعضها الآخر ما يزال فارغاً.

ـ يا له من أمر مروّع! ـ أبدى ألِكساندر مرتعداً.

ـ لا أفهم، يا جغوار... إذا كان لا يدخل أحد إلى هنا، كيف يمكن أن يوجد كلّ هذا الترتيب وهذه النظافة؟ ـ سألت ناديا.

ـ شيء غامض جدّاً ـ اعترف صديقها.

11

اللقاء بالأرواح

بدأ النورُ الباهت دائماً تحت قبّة الأدغال الخضراء يخفّ. منذ يومين، منذ أن خرجا من نجوبي، لم ير الصديقان السماء إلاّ من الفتحات الموجودة أحياناً بين رؤوس الأشجار. كانت المقبرة في منطقة مكشوفة من الغابة واستطاعا أن يريا فوق رأسيهما قطعة من السماء راحت تتحوّل إلى زرقاء داكنة. جلسا بين قبرين مستعدين لأن يُمضيا ساعات في عزلة.

خلال السنوات الثلاث التي مضت منذ أن تعارف ألِكساندر وناديا، نمت صداقتهما مثل شجرة كبيرة، إلى أن تحوّلت إلى أهم شيء في حياتِهما. الأثر الطفولي للبداية تطوّر مع نضوجهما، لكنّهما لم يكونا يتكلّمان عن هذا. لم يكونا يملكان الكلماتِ لوصف هذا الشعور الدقيق ويخافان أن يتكسّر مثل الزجاجِ لو فعلا ذلك. التعبير عن علاقتهما بالكلمات كان يعني تحديدها، وضع حدود لها، تقليصها؛ وإذا لم تُذكَر بقيت حرّة وغير ملوَّثة. كانت قد توسّعت صداقتهما بصمت ورهافة دون أن يشعرا هما بذلك.

في المرحلة الأخيرة صار ألِكساندر يعاني من انفجار الهرمونات الخاص بالمراهقة، الذي يُعاني منه الفتيان في وقت أبكر منه، كان جسده يبدو عدواً له، لا يدعه بسلام. علاماته في

الدراسة تدنّت، وما عاد يعزف موسيقى، حتى الرحلات إلى الجبل مع والده، الأساسية في حياته سابقاً صارت الآن تضجره. صار يعاني من اهتياجات المزاج السيئ؛ يتشاجر مع أسرته ثم وحين يندم لا يعرف كيف يتصالح معها. صار لكئاً، محتبلاً في كتلة من المشاعر المتناقضة. ينتقِلُ من الاكتئاب إلى التفاؤل خلال دقائق، وكانت عواطفه من القوّة حتى صار يتساءل أحياناً بشكلٍ جدّيّ عما إذا كان للاستمرار بالحياة قيمة. في لحظات التشاؤم كان يفكّر أنّ العالم كارثة ومعظم البشرية بلهاء. رغم أنّه قرأ كتباً بهذا الاتجاه وناقشوا المراهقة في المدرسة بعمق، فإنّه كان يُعاني منها كمرض لا يمكن الاعتراف به. «لا تنشغِلْ، جميعنا مررنا بالشيء ذاته»، بهذا كان والده يواسيه، كما لو أنّ الأمر يتعلّق بزكام، لكنّه سرعان ما بلغ الثامنة عشرة ولم يتحسّن حاله. ألِكساندر كان لا يكاد يستطيع التواصل مع والديه، كانا يُجنّنانه، وكلّ ما يقولانه له يبدو قديماً. كان يعلم أنّهما يُحبّانه بلا حدود، ولهذا هو ممتنّ لهما، لكنّه يعتقد أنّهما لا يستطيعان أن يفهماه. وحدها ناديا كان يشاطرها مشاكله. باللغة المرمّزة التي يستخدمها معها في البريد الإلكتروني استطاع أن يصف لها ما كان يحدث له دون خجل، لكنّه لم يفعل ذلك قط مواجهةً. هي ستقبله ربّما كما هو، دون أن تحكم عليه. كانت تقرأ الرسائل دون أن تبدي رأيها، لأنّها في الحقيقة لم تكن تعرف بماذا تُجيب؛ فقلقها كان مختلفاً.

كان ألِكساندر يُفكّر أنّ هوسه بالفتيات مُضحِك، لكنّه لا يستطيع تفاديه. تكفي كلمة، حركة، أو احتكاك كي تملأ رأسه بالصور وروحه بالرغبة. أفضل مسكّن هو الرياضة: صيفاً وشتاء كان يُمارس التزلج على الماء في المحيط الهادي. كان الاصطدام بالماء المثلج والإحساس الرائع بالطيران فوق الأمواج يُعيدان إليه براءة الطفولة وتفاؤلها، لكنّ هذه الحالة النفسية لا تدوم إلا قليلاً. بالمقابل، نجحت الأسفار مع جدّته، في تسليته أسابيعَ. كما نجح

بالتحكّم بعواطفه أمامها، وهذا ما كان يمنحه بعض الأمل؛ ربّما كان أبوه على حقّ وكان هذا الجنون عابراً.

منذ أن التقيا في نيويورك للشروع بالرحلة صار أَلِكساندر يتأمّل ناديا بعينين جديدتين، رغم أنه كان يبعدها عن خيالاته الرومانسية والجنسية. لم يكن حتى ليستطيع أن يتخيّلها في هذا المستوى، فهي في مقام أخواته تماماً: يربطه بها ودّ خالص وغيور. دوره أن يحميها ممن يمكن أن يؤذيها، خاصّة من الفتية الآخرين. كانت ناديا حلوة ـ على الأقل تبدو له كذلك ـ وعاجلاً أو آجلاً سيكون حولها سرب من العشاق. لن يسمح أبداً لهؤلاء الدبابير بأن يقتربوا منها، الفكرة بحدّ ذاتها تطيّر صوابه. كان يُلاحظ تشكيلات جسد ناديا، ملاحة حركاتها وتعبير وجهها المركز؛ يحب لونها، شعرها الأشقر الداكن، بشرتها المحمّصة، عينيها البندقيّتين، ويستطيع أن يرسم صورتها الوجهية بلوحة ألوانٍ مقتصرة على الأصفر والبنيّ. كانت مختلفة عنه وهذا ما يثير فضوله: هشاشة جسمها، التي تُخفي قوّة عريكة، انتباهها الصامت، الطريقة التي تتناغم فيها مع الطبيعة. دائماً كانت متحفّظة، لكنّها تبدو له الآن غامضة. كان يسحره أن يبقى بجانبها، يلمسها من حين لآخر، لكن التواصل معها عن بُعد أسهل، حين يكونان معاً يرتبك فلا يعرف مايقول، ويبدأ يقيس كلماته، تبدو له يداه أحياناً ثقيلتين جدّاً وقدماه كبيرتين جداً ونبرته مستبدّة جدّاً.

كان أَلِكساندر يشعر وهما جالسان هناك في الظلمة، مُحاطان بالقبور في مقبرة أقزام قديمة بقرب صديقته بكثافة تكاد تكون مؤلمة. كان يحبّها أكثر من أيّ شخصٍ آخر، أكثر من أبويه وكلّ أصدقائه مجتمعين، كان يخاف فقدانها.

ـ كيف هي نيويورك؟ هل تُحِبّين أن تعيشي مع جدّتي؟ ـ سألها كي يقول شيئاً.

ـ جدّتك تعاملني مثل أميرة، لكنّني أشتاق جداً لأبي.

ـ لا تعودي إلى الأمازون، يا نسر، فهي بعيدة ولا نستطيع التواصل.

ـ تعالَ معي ـ قالت هي.

ـ سأذهب معك أنّى تشائين، لكن عليّ أن أدرس الطبّ أوّلاً.

ـ جدّتك تقول إنك تكتب عن مُغامراتنا في الأمازون ومملكة التنين الذهبي. هل ستكتب أيضاً عن الأقزام؟ ـ سألت ناديا.

ـ هي مجرّد ملاحظات، يا نسر. لا أطمح لأن أصبح كاتباً بل طبيباً. خطرت لي الفكرة حين مرضت أمّي وقرّرتُه حين عالج اللاما تِنسينغ كتفكِ بالأبر والصلوات. انتبهت إلى أنّ العلوم والتكنولوجيا لاتكفي وحدها للشفاء، هناك أشياء أخرى مهمّة مثلها. الطبّ الكلّي (الهوليستي)، أظنّ أنّ ما أريد أن أدرسه يُسمّى هكذا ـ وضّح ألِكساندر.

ـ هل تتذكّر ما قاله لك الشامان واليماي؟ قال إنك تملك القدرة على الشفاء وعليك أن تستغلها. أعتقد أنّك ستصبح أفضل طبيب في العالم ـ أكّدت له ناديا.

ـ وأنت ماذا تريدين أن تفعلي بعد أن تنتهي من المدرسة؟

ـ سأدرس لغات الحيوانات.

ـ لا توجد معاهِد لدراسة لغات الحيوانات ـ ضحك ألِكساندر.

ـ إذاً سأؤسّس أول معهد.

ـ سيكون رائعاً أن نسافر معاً، أنا كطبيب وأنت كعالمة لغوية ـ اقترح ألِكساندر.

ـ سيكون هذا حين نتزوّج ـ ردّت ناديا.

بقيت العبارة عالقةً في الهواء، مرئيّةً مثل راية. شعر ألِكساندر بدمه يدبّ في جسمه دبيبَ النمل وبقلبه يَجنَح في صدره. بلغت به

المفاجأة أنّه لم يستطِع الردّ. كيف لم تخطر له هذه الفكرة؟ كان قد عاش عاشقاً لِـ ثِيْليا بورنز، التي لم يكن بينهما أيّ شيء مُشترك. هذا العام لاحقها بإصرارٍ عنيد، مُتَحَمّلاً بصبرٍ فظاظاتها ونزواتها. وبينما هو ما يزال يتصرّف مثل صبيّ صغير، تحوّلت ثِيْليا بورنز إلى امرأةٍ كاملة مكتملة، رغم أنّهما من العمر ذاته. كانت جذّابة وألِكساندر فقد الأملَ بأن تمعن النظر فيه. فثِيْليا تصبو لأن تُصبح ممثلة وتتأوّه على أبطال السينما وتُخطّط ما إن تُتِمّ الثامنة عشرة للذهابِ لتجرّب حظّها في هوليوود. لقد كشف له تعليق ناديا عن أفقٍ لم يفكّر هو به حتى تلك اللحظة.

ـ كم أنا أبله! ـ صاح.

ـ ماذا يعني هذا؟ أنّنا لن نتزوّج؟

ـ أنا... ـ تلعثم ألِكساندر.

ـ انظر، يا جغوار، لا نعلم ما إذا كنّا سنخرج حيَّين من هذه الغابة. وبما أنّ من المحتمل أنّه لم يبقَ أمامنا وقت كثير، فلنتكلّم بالقلب ـ اقترحت هي بجدّية.

ـ طبعاً سنتزوّج، يا نسر! لا يوجد أدنى شكّ ـ ردّ وقد التهبت أذناه.

ـ حسناً، ما زال أمامنا عدّة سنوات لهذا ـ قالت هازّة كتفيها.

بقيا برهة طويلة ليس لديهما ما يقولانه. فألِكساندر يهزّه إعصار وعواطف متناقِضة، تمتدّ ما بين الخوف من أن يعود وينظر إلى ناديا بوضح النهار وحتى الرغبة بتقبيلها. كان واثقاً من أنّه لن يجروْ أبداً على فعل ذلك... صار الصمت بالنسبة إليه غير مُحتَمل.

ـ هل أنت خائف، يا جغوار؟ ـ سألت ناديا بعد نصف ساعة.

لم يُجب ألِكساندر، مفكّراً بأنّها تكهّنت بأفكاره، وتُشير إلى الخوف الجديد الذي استيقظ عنده وشلّه في تلك اللحظة. ومع السؤال الثاني أدرك أنّها كانت تتكلّم عن شيء أكثر إلحاحاً وتحديداً.

ـ غداً علينا أن نُواجه كوسونغو، مْبِمبِلة وربّما سومبِ الساحر أيضاً... كيف سنفعل ذلك؟

ـ سنرى ذلك في حينه، يا نسر. وكما تقول جدّتي: يجب عدم الخوف من الخوف.

كان ممتنّاً لأنّها غيّرت الموضوع وقرّر ألاّ يعود لذكر الحبّ، على الأقل حتى يصبح بمنجاة في كاليفورنيا، مفصولاً عنها بعرض القارّة الأمريكية. سيكون الكلام عن المشاعر أسهل بوساطة البريد الألكتروني، لأنّها لن تستطيع أن ترى أذنيه المحمرّتين.

ـ آمل أن يأتي النسر والجغوار لمساعدتنا ـ قال ألِكساندر.

ـ هذه المرّة سنحتاج إلى أكثر من ذلك ـ ختمت ناديا.

شعرا في تلك اللحظة ذاتها كما لو باستجابة لهاتفٍ بحضور أخرس على بعد خطوات قليلة من مكان تواجدهما. مدّ ألِكساندر يده إلى السكين وأشعل المصباح وهنا انبثقت أمامهما في حزمة الضوء هيئة.

رأيا وهما شبه مشلولين، على بعد ثلاثة أمتار منهما، عجوزاً ساحرة، ملفوفة بالخرق، بشعر هائل أبيض وأشعث، هزيلة مثل هيكل عظمي. شبح، فكّرا في لحظة واحدة، لكنّ سرعان ما فكّر ألِكساندر أنّه يجب أن يكون هناك تفسير آخر.

ـ من هناك؟ ـ صرخ بالإنكليزية وقد نهض واقفاً.

صمت. كرّر الشابُ السؤالَ وعاد لُيسلّط عليها المصباح.

ـ هل أنت روح؟ ـ سألت ناديا بخليط من الفرنسية والبانتوية.

أجاب الشبح بتمتمة غير مفهومة وتراجع وقد أعماه النور.

ـ تبدو امرأة عجوزاً! ـ صاحت ناديا.

أخيراً فهما بوضوح ما قاله الشبح المُفترض: نانا ـ أسانتِ.

ـ نانا ـ أسانتِ؟ ملكة نجوبي؟ حيّة أم ميتة؟ ـ سألت ناديا.

سرعان ما خرجا من شكوكهما: إنّها الملكة القديمة روحاً وجسداً، نفسها التي اختفت، مغتالة ظاهرياً من قبل كوسونغو، حين استولى على العرش. بقيت العجوز متخفّية سنواتٍ في المقبرة، حيث عاشت على التقدمات التي كان يتركها الصيّادون لأسلافهم. هي من كانت تُحافِظ على المكان نظيفاً، وتضع في القبور الجثثَ التي يلقون بها من فجوة الجدار. قالت لهما إنّها ليست وحدها، بل برفقة حسنة، رفقة الأرواح، التي تأمل أن تلتقي بها قريباً ونهائياً، لأنّها تعبت من سكنى جسدها. حكت أنّها كانت من قبل *نُغانغا*، طبيبة شعبية تسافر إلى عالم الأرواح حين تقع في غيبوبة. رأتهما خلال الاحتفالات ورهبتهما لكنّها، منذ أن عاشت في المقبرة، فقدت الخوف. هما الآن صديقاها.

ـ يا لها من امرأة مسكينة، لا بدّ أنّها جُنَّت ـ همس ألِكساندر.

لم تكن نانا ـ أسانتِ مجنونة، على العكس، فسنوات الانكفاء هذه منحتها ألمعيّة. كانت مطلعة على كلّ ما يجري في نجوبي. وتعرف عن كوسونغو وزوجاته العشرين، وعن مبِمبِلةْ وجنوده العشرة من أخوية الفهد، والساحر سومبِ وشياطينه. كانت تعرف أنّ بانتويي القرية لا يجرؤون على معارضتهم، لأنّ أيّة علامة تمرّد يدفعون ثمنها تعذيباً مريعاً؛ وتعرف أنّ الأقزام عبيد، وأنّ كوسونغو انتزع منهم التميمة وأنّ مْبِمبِلةْ يبيع أبناءهم إذا لم يأتوه بالعاج. تعرف أنّ مجموعة من الغرباء وصلت إلى نجوبي تبحث عن المبشِّرَين وأن الاثنين الأكثر شباباً هربا من نجوبي وجاءا لزيارتها. كانت بانتظارهما.

ـ كيف يمكن أن تعرفي هذا! ـ صاح ألِكساندر.

ـ حكاه لي الأسلاف. هم يعرفون أشياء كثيرة. هم لا يخرجون ليلاً وحسب، كما يعتقد الناس، بل نهاراً أيضاً، يسيرون مع أرواح أخرى من الطبيعة هنا وهناك، بين الأحياء والأموات. يعرفون أنكم ستطلبون مساعدتهم ـ قالت نانا ـ أسانتِ.

ـ هل سيقبلون مساعدة ذريّتهم؟ ـ سألت ناديا.

ـ لا أدري. عليكما أن تتكلّما معهم ـ قرّرت الملكة.

بدر هائل، أصفر ومشع بزغ في جلاء الغابة. خلال فترة القمر حدث شيء سحري في المقبرة، سيتذكره ألكساندر وناديا في القادم من الأيام كلحظة حاسمة في حياتهما.

العارض الأوّل الدال على أنّ شيئاً خارقاً كان يحدث هو أنّ الشابين استطاعا أن يريا ليلاً بأعلى درجات الوضوح، كما لو أنّ المقبرة مضاءة بمصابيح ملعب كرة هائلة. فللمرّة الأولى منذ أن أصبحا في أفريقيا شعر ألكساندر وناديا بالبرد. تعانقا وهما يرتعدان برداً كي يمنح بعضهما بعضاً شجاعةً ودفئاً. أزيز نحل متنام اجتاح الهواء وامتلأ المكان أمام ناظر الشابّين المذهولَين بالكائنات الشفافة. كانا مُحاطين بأرواح، من المحال وصفها، لأنّها تخلو من الأشكال المحدّدة، تبدو بشكلٍ مبهم بشراً. لكنّها تتبدّل كما لو أنّها رسوم من دخان. لم تكن عارية ولا مكسوّة، لم يكن لها لون، لكنّها مضيئة.

كان لأزيز الحشرات الموسيقيّ المُكثّف، الذي يطنّ في آذانهما، معنى، كان لغة كونية يفهمانها، تشبه التخاطر عن بعد. لم يكن هناك ما يجب عليهما توضيحه للأشباح، لم يكن هناك ما يحكيانه لها، أو يطلبانه بالكلمات، فهذه الكائنات الأثيرية تعرف ما يجري الآن وما سيجري في المستقبل لأنّه لم يكن يوجدُ في بُعدها زمن. هناك كانت أرواح الأسلاف الميتين، والذين لن يولدوا بعد، أرواح ما تبقى في حالة روحية إلى ما لا نهاية، وأخرى جاهزة كي تتخذ أشكالاً مادّية على هذا الكوكب، أو كواكب أخرى هنا أو هناك.

علم الصديقان أنّ الأرواح نادراً ما تتدخّل في أحداث العالم المادّية، رغم أنّها تُساعِد أحياناً بالحدس، كما تُساعد الأشخاص بالتصوّر والأحلام والإبداع والإلهام الموسيقيّ أو الروحيّ. معظم

الناس يعيشون منقطعين عن المقدّس ولا يلاحظون الرموز، المصادفات، الهواجس والمعجزات اليومية الصغيرة التي يتبدّى من خلالها ما هو فوق الطبيعي. لاحظا أنّ الأرواح لا تُسبّب الأمراضَ والكوارث ولا الموت، كما كانا قد سمعا؛ العذاب سببه شرّ وجهل الأحياء. كما أنّها لا تدمّر من يخترقون أملاكها أو يعتدون عليها، لأنّه ليس لها أملاك وما من طريقة للاعتداء عليها. التضحيات والهدايا والصلوات لا تصل إليها، وفائدتها الوحيدة هي تطمين الأشخاص الذين يقدّمونها.

دام الحوارُ الصامت مع الأشباح زمناً من المحال تقديره. وبالتدريج راح النور يزداد والجوّ ينفتح على بُعدٍ أكبر. انحلّ الجدار الذي تسلّقاه للدخول إلى المقبرة ووجدا نفسيهما وسط الغابة، وإن لم تبد ذاتها التي كانا فيها من قبل. لا شيء مماثل، كان هناك طاقة مشعّة. لم تعد الأشجار تُشكّل كتلة نباتية صماء، صار لكلّ شجرة الآن جِبلتها، اسمها وذاكرتها. الأعلى، التي انبثقت من بذورها أخرى أفتى، حكت لهما قصصها. الأكبر سنّاً أبدت رغبتها بالموت سريعاً كي تُغذّي الأرض؛ الأجدّ تنشر براعمها متمسّكة بالحياة، كان هناك وشوشة متواصلة للطبيعة، طرق نكية للتواصل بين الأنواع.

مئات الحيوانات أحاطت بالشابين، بعضها لم يَعرفا بوجوده: أوكابي(*) غريبة طويلة الأعناق، مثل زرافات صغيرة، أيائل مسكٍ، زبادٍ، سناجب طيّارة، قطط ذهبية، ظباء مخططة كحمر الوحش؛ آكل نمل مغطّى بالحراشف، وحشد من القردة على الأشجار تهذر كالأطفال في نور تلك الليلة السحري. مرّت أمامهما فهود، تماسيح، وحيدات قرن وضوارٍ أخرى بانسجام رائع. طيور خارقة ملأت الجوّ بأصواتها وأنارت الليلَ بريشها الجريء. آلاف الحشرات راحت تتراقص مع النسيم: فراشات متعدّدة الألوان، صراصير مشعة، جداجد ضاجّة، حباحب هفهافة. وكانت الأرض تفور بالزواحف:

(*) Okapi نوع من الزرافة الأفريقية هي في الأصل قصيرة الرقبة ومخطّطة الأرجل.

أفاعٍ، سلاحف، ضبية ضخمة من سلالة الديناصورات، تراقب الشابين بعيون لها ثلاثة أهداب.

كانا وسط الغابة الروحية، محاطَيْن بآلاف وآلاف الأرواح النباتية والحيوانية. اتسع عقلا ألِكساندر ونادياً وأحسّا بالروابط بين الكائنات، الكون كلّه مترابط بتيّار من الطاقة، شبكةٍ غريبة، رقيقة كالحرير، قويّة كالفولاذ. أدركا أنّه ما من شيء معزول، فكلّ شيء يحدث، بدءاً من الفكرة وحتى الإعصار يؤثّر على البقية. شعرا بالأرض نابضة وحيّة، نظام عظيم يهدهد في حضنه الزهر والحيوان، الجبال والأنهار، ريح السهوب، حمم البراكين، ثلوج أعلى الجبالِ الأبدية. وهذا الكوكبُ الأمُّ هو جزء من أنظمة أخرى أضخم، متصلة بنجوم لا نهائية من السماء الهائلة.

رأى الشابان دورات الحياة الحتمية، التحوّل والانبعاث مثل رسمٍ كلّ شيء يحدث فيه بالتزامن، بلا ماضٍ، ولا مستقبل، الآن منذ الأبدِ وإلى الأبد.

أدركا أخيراً، وفي المرحلة الأخيرة من ملحمتهما (أوديسّاهما) الخيالية، أنّ الأرواح التي لا تُحصى وكلّ ما هو موجود في الكون، جزيئات من روح وحيدة، مثل قطرات ماء في المحيط ذاته. جوهر روحيّ واحد ينعش كلّ ما هو موجود. لاانفصال بين الكائنات، لا حدود بين الحياة والموت.

لم تشعر ناديا وألِكساندر في لحظة من لحظات تلك الرحلة العجيبة بالخوف. تهيّأ لهما في البداية أنّهما يطفوان في ضباب حلم وشعرا بالسكون العميق، لكن وكلّما وسّعت الرحلة الروحية حواسّهما وخيالهما كلّما خطا السكون خطوة نحو الانشراح، السعادة الطافحة، الإحساس الهائل بالطاقة والقوّة.

تابع القمر مشواره في قبّة السماء واختفى في الغابة. استمرّ نور الأشباح لحظاتٍ في الجوّ، بينما أزيز النحل والبرد يخفّان شيئاً

فشيئاً. صحا الصديقان من غيبوبتهما ووجدا نفسيهما بين القبور وبوروبا متعلّق بخصر ناديا. بقيا برهة لم يتكلّما ولم يتحرّكا كي يحافظا على السحر. أخيراً نظر الواحد منهما إلى الآخر، مشوّشين، مرتابين مما عاشاه، لكن عندئذٍ انبثقت أمامهما هيئة الملكة نانا - أسانتِ، التي أكّدت لهما أنّها لم تكن مجرّد هذيان.

كانت الملكة نانا - أسانتِ منارة ببهاء كثيف. رآها الشابان كما هي وليس بالهيئة التي ظهرت بها في البداية، عجوزاً بائسة، عظاماً خالصة وخرقاً. حقيقةً كانت شبحاً رهيباً، أمازونية، إلهة غابة. نانا - أسانتِ تحوّلت إلى حكيمة خلال هذه السنوات من التأمّل والعزلة مع الموتى؛ نظّفت قلبها من الكراهية والجشع، لا ترغب بشيء، لا يقلقها شيء، لا يُخيفها شيء. كانت شجاعة لأنّها لا تتمسّك بالحياة؛ قويّة لأنّ العاطفة تحرّكها، عادلة لأنّها تحدس الحقيقة، لا تُهزم لأنّ جيشاً من الأرواح يساندها.

- في نجوبي توجد معاناة كثيرة. حين كنتِ تحكمين ساد السلام، البانتوويون والأقزام يتذكّرون تلك الأيّام. تعالَي معنا، يانانا - أسانتِ، ساعِدينا - توسّلتها ناديا.

- هيّا - ردّت الملكة دون تردّد، كما لو أنّها استعدّت سنواتٍ لهذه اللحظة.

12

مملكة الرعب

خلال اليومين اللذين قضتهما ناديا وألِكساندر في الغابة حدثت سلسلة من الأحداث المأساوية في قرية نجوبي. لم تتمكن كات وأنجي والراهب فِرناندو وجول غونثالِث من رؤية كوسونغو ثانيةً، واضطروا لأن يتفاهموا مع مْبِمبِلِهْ، الذي كان بكلّ وضوح أكثر رعباً من الملك. انشغل القائدُ، عندما علم باختفاء اثنين من أسراه، بمعاقبة الحارسين لأنّهما سمحا لهما بالذهاب أكثر مما انشغل بمصير الشابّين الغائبين. لم يقم بأدنى مسعى للعثور عليهما. حين طلبت كات منه مساعدته للخروج والبحث عنهما، رفض.

- لقد ماتا، لن أضيع الوقت بهما. لا أحد يبقى حيّاً في ليل الغابة، غير الأقزام، الذين ليسوا بشراً - قال لها مْبِمبِلِهْ.

- إذن مرْ بعضَ الأقزام كي يرافقوني للبحث عنهما - طالبته كات.

كان مبِمْبِلِهْ معتاداً على أن لا يُجيب على الأسئلة، خاصّة الطلبات، لذلك لم يكن هناك من يجروْ على طرحها عليه. موقف هذه العجوز الأجنبية الوقح أربكه أكثر مما أغضبه؛ لم يكن يستطيع أن يصدّق كلّ هذه الوقاحة. بقي صامتاً يراقبها عبر عدسات نظارته المشؤومة، بينما قطرات من العرق تجري على جمجمته الحليقة

وذراعيه العاريين، المعلَّمين بالندب الشعائرية. كان في «مكتبه»، إلى حيث جعلهم يقودون الكاتبة.

كان «مكتب» مبِمبِلِهْ زنزانة، في زاوية منها مكتب معدني بشع وكرسيان. رأت كات مذعورةً أدوات تعذيب وبقعاً داكنة، كأنها دم على الجدران الطينية المطلية بالكلس. لا شكَّ أنّ القائد باستدعائها إلى هناك أراد إخافتها وحقّق ذلك، لكنّ كات لم تكن مستعدّة لأن تُظهر ضعفها. لم يكن معها ما يحميها غير جواز سفر أمريكي وإجازة صحافة، لكنّهما لن يُفيداها أبداً إذا ما التقط مبِمبِلِهْ الخوفَ الذي تشعر به.

بدا لها أنّ العسكريّ، بخلاف كوسونغو، لم يبلع حكاية أنّهم جاؤوا ليُقابلوا الملك؛ فالعسكري كان يشكّ بالتأكيد أنّ السبب الحقيقيّ لوجودهم هناك هو اكتشاف مصير المبشِّرَين المفقودين. كانا في يد ذلك الرجل، لكن لا بدَّ أنَّ مبِمبِلِه قدّر المخاطر قبل أن يترك لهيجان القسوة أن يتمكّن منه، واستنتجت كات بكثير من التفاؤل أنّه لم يكن باستطاعته أن يُسيئ معاملة الأجانب. فإساءة معاملة الفقراء البائسين الموجودين في قبضته في نجوبي شيء وفعل ذلك مع أجانب شيء آخر مختلف تماماً، خاصّةً إذا كانوا بيضاً. ليس من صالحه تحقيق تقوم به السلطات. سيكون على القائد أن يتحرَّر منهم بأسرع ما يُمكن، وإذا ما استقصوا كثيراً لن يبقى أمامه خيار آخر إلاّ أن يقتلهم. كان يعرف أنّهم لن يذهبوا من دون ناديا وألِكساندر وهذا ما يُعقِّد الأمور. خلصت كات إلى أنّ عليهم أن يكونوا في غاية الحذر، لأنّ أفضل مخرج للقائد هو أن يقع لهم حادث مدبَّر. لم تتصوّر الكاتبة أنّ شخصاً واحداً منهم على الأقل وقع وقعاً حسناً في نجوبي.

ـ ما اسم المرأة الأخرى في مجموعتك؟ ـ سأل مبِمبِلِهْ بعد وقفة طويلة.

ـ أنجي، أنجي نيندِرِرا. هي جاءت بنا في طائرتها، لكن...

ـ جلالته، الملك كوسونغو، مستعدّ لقبولها بين نسائه.

شعرت كات بركبتيها تنحلان. ما كان مزحة مساء أمس صار الآن حقيقة مزعجة ـ وربّما خطيرة ـ ماذا يمكن أن تقول أنجي عن اهتمامات كوسونغو؟ ناديا وألِكساندر يجب أن يظهرا سريعاً، كما تدلّ ملاحظة حفيدها. في الرحلتين السابقتين مرّوا أيضاً بلحظات يأس بسبب هذين الصبيَّيْن، وفي المناسبتين عادا سالمين معافيين. عليها أن تثق بهما. أوّل شيء يجب فعله هو جمع المجموعة، بعدها تفكّر بطريقة للعودة إلى الحضارة. خطر لها أنّ اهتمام الملك المُفاجئ بأنجي يمكن أن يفيد على الأقل بكسب القليل من الوقت.

ـ هل تريدني أن أُبلِغ أنجي بطلب الملك؟ ـ سألت كات حين استطاعت أن تُخرج صوتَها.

ـ ليس طلباً، إنّه أمر. كلّميها. سأراها خلال مبارزة الغد. وفي هذه الأثناء مسموح لكم التجوّل في القرية، لكن ممنوع عليكم أن تقتربوا من السياج الملكي والزريبتين والبئر.

أومأ القائد وعلى الفور أخذ الجنديُّ، الذي كان يقوم بالحراسة في الباب، كات من ذراعها وحملها. بَهَرَ نور النهار الكاتبةَ العجوز برهةً.

اجتمعت كات بأصدقائها ونقلت رسالة الحبّ إلى أنجي، التي وقعت عليها وقعاً سيئاً، كما كان منتظراً.

ـ لن أكون أبداً جزءاً من قطيع نساء كوسونغو! ـ صاحت غضبى.

ـ طبعاً لا، يا أنجي، لكنّك تستطيعين أن تكوني لطيفةً معه يومين و...

ـ ولا دقيقة واحدة! طبعاً لو كان القائد بدل كوسونغو... ـ تنهّدت أنجي.

ـ مُيمِلةْ بهيمة! ـ قاطعتها كات.

ـ إنّها مزحة، يا كات. لا أريد أن أكون لطيفة مع كوسونغو ولا مع شِميلة ولا مع أحد. أريد أن أخرج من هذا الجحيم بأسرع مايمكن، أستعيد طائرتي وأهرب إلى حيث لا يستطيع هذان المجرمان الوصول.

ـ إذا أنتِ ألهيتِ الملك، كما تقترح السيّدة كولد، نستطيع أن نكسب الوقت ـ تعلّل الراهب فِرناندو.

ـ كيف تريدني أن أفعل هذا؟ انظر إليّ! ثيابي وسخة ومُبلّلة، أضعتُ قلم أحمر شفاهي، وتسريحتي كارثة. أبدو خنزيراً نُلدلاً! ـ ردّت أنجي، مشيرة إلى شعرها المدهن والذي يتطاير في مختلف الاتجاهات.

ـ أهل القرية خائفون ـ قاطعها المُبشّر، مُبدّلاً الموضوع ـ لاأحد يُريد أن يُجيب على أسئلتي، لكنّني رتّبت أفكاراً. أعرف أنّ رفيقيّ كانا هنا، وأنّهما اختفيا منذ عدّة أشهر. لا يمكن أن يكونا قد ذهبا إلى أيّ مكان آخر. الاحتمال الأكبر أن يكونا شهيدَيْن.

ـ هل تعني أنّهم قتلوهما؟ ـ سألت كات.

ـ نعم، أعتقد أنّهم قدّما حياتهما من أجل المسيح. فقط أتوسل الله ألاّ يكونا قد عانيا كثيراً...

ـ حقيقةً أنا آسفة، يا أخ فِرناندو ـ قالت أنجي وقد صارت فجأة جدّية وحزينة متأثّرة ـ اعذرني على برودتي وسوء مزاجي. اعتمد عليّ، سأعمل أيّ شيء لمساعدتك. سأرقص رقصة الأوشحة السبعة كي ألهي كوسونغو، إذا أردت.

ـ لا أطلب منك كلّ هذا، يا آنسة نيندِررا ـ ردّ المبشّر حزيناً.

ـ نادِني أنجي ـ قالت هي.

قضوا بقيّة اليوم ينتظرون عودة ناديا وألِكساندر ويتيهون في القرية باحثين عن معلومات وواضعين خططاً للهرب. ألقى الجنود القبضَ على الجنديين اللذين غفلا في الليلة السابقة ولم يحل محلّهما

أحد، وبذلك لم يكن هناك من يراقبهم. تأكدوا من أنّ أخوية الفهد، الذين هربوا من الجيش النظامي ووصلوا إلى نجوبي مع القائد، كانوا الوحيدين الذين يملكون صلاحية الوصول إلى الأسلحة النارية، المحفوظة في المهجع. جُنّد الحرّاس البانتوويون بالإكراه منذ سنّ المراهقة. سُلّحوا تسليحاً سيّئاً بالسواطير والسكاكين بشكلٍ أساسيّ، ويطيعون خوفاً أكثر مما ولاءً. كان على الحرّاس أن يقمعوا، تحت أمرة حفنة من جنود مبمبلِهْ، بقيّةَ السكّان البانتوويين، أي عائلاتهم وأصدقاءهم. لم تترك العقيدة الوحشية أمامهم مهرباً، فالمتمرّدون والمنشقون ينفّذ بهم حكم الإعدام دون محاكمة.

نساء نجوبي، اللواتي كنّ في الماضي مستقلاتٍ ويُشاركن في قرارات الجماعة، فقدن حقوقهنّ وكُرِّسن للعمل في مزارع كوسونغو وتلبية متطلبات الرجال. الشابات الأكثر جمالاً يُخصّصن لحريم الملك. كان نظام تجسّس القائد يستخدمُ حتى الأطفال، الذين يتعلمون مراقبة أسرهم ذاتها. كان يكفي أن يُتّهم المرءُ بالخيانةِ، وإن لم يكن هناك برهان، كي يفقد حياته. في البداية قتلوا كثيرين، لكنّ سكّان المنطقة لم يكونوا كثراً، لذلك حين رأى الملك والقائد أنّهما سيبقيان بلا رعية اضطرّا لأن يحدّا من غلوائهما.

أيضاً كانا ينالان مساعدة سومبِ، الساحِر، الذي يستدعيانه حين يحتاجان لخدماته. كان الناس معتادين على الأطباء الشعبيين والسحرة، الذين تقوم مهمّتهم على التواصل مع عالم الأرواح، وإشفاء المرضى، وتحقيق السحر، وعمل تمائم الحماية. كانوا يعتقدون بشكلٍ عام أنّ وفاة المرء سببها السحر. وحين يموت شخص يكون على عاتق السحرة التحقّق ممن سبّب الوفاة فيُبطلون السحر الأسود، ويعاقبون المذنب أو يُجبرونه على دفع تعويض لأسرة المتوفّى. هذا ما كان يمنحهم القوة في الجماعة. كان في نجوبي، كما في أنحاء أخرى من أفريقيا سحرة، بعضهم أكثر احتراماً من بعض، لكن ما من أحدٍ منهم مثل سومبِ.

لم يكن أحدٌ يعرف أين يعيش الساحر المروِّع. كان يمثّلُ في

القرية، على شكل شيطان، وما أن يقوم بمهمّته حتى يتبخّر، دون أن يترك أثراً، فلا يعودون يرونه أسابيع أو أشهراً. كان مُخيفاً إلى حدّ أنّ كوسونغو ومبِمبِلْ يتفاديان حضوره، وكلاهما يُغلق على نفسه مساكنه حين يصل سومبِ. كان مظهره يفرض الرعب. فهو ضخم ـ بطول القائد مْبِمبِلْ ـ وحين يدخل في غيبوبة يملك قوّة خارقة، ويصبح قادراً على حمل جذوع أشجار، لا يستطيع ستّة رجال تحريكها. كان له رأس فهدٍ وطوق من أصابع قطعها، حسبما يُقال، من ضحاياه، تماماً كما كان يقطع رؤوس الدجاج خلال عروض سحره، بحدّ نظرته، دون أن يلمسها.

ـ أودّ أنِ أرى سومبِ الشهير ـ أبدت كات حين اجتمع الأصدقاء كي يحكي كلّ واحدٍ عما توصّل إليه.

ـ أنا أحبّ أن أصوّر حيل إيهامه ـ أضاف جول غونثالِث.

ـ ربّما ليست حيلاً. السحر الفودوي يمكن أن يكون خطيراً ـ قالت أنجي مرتعدة.

أبقى الرحالة في الليلة الثانية، التي بدت لهم أبدية، على المشاعل مشتعلة، رغم رائحة الراتنج المحروق والدخان الأسود، فهكذا يستطيعون على الأقل أن يروا الصراصير والجرذان. قضت كات ساعاتٍ ساهرة، مصيخة السمعَ، تنتظر أن تعود ناديا وألِكساندر. وبما أنّه لم يكن يوجد حرّاس على الباب، استطاعت أن تخرج لتتهوّى حين أصبح ثقل الهواء في المسكنِ لا يُطاق. اجتمعت أنجي بها في الخارج وجلسا على الأرض كتفاً لكتف.

ـ أموت من أجل سيجارة ـ دمدمت أنجي.

ـ هذه هي فرصتك كي تتركي، كما فعلت أنا، هذه الرذيلة. إنّه يُسبّب سرطان الرئة ـ حذّرتها كات ـ هل تريدين جرعة فودكا؟

ـ والكحول، أليس رذيلة، يا كات؟

ـ هل تُلمّحين إلى أنّني كحولية؟ إيّاكِ! لا تتجرّئي! أشرب بعض الرشفات من حين لآخر من أجل ألم العظام، لا أكثر.

ـ علينا أن نهرب من هنا، يا كات.

ـ لا نستطيع أن نذهب دون حفيدي ونـاديا ـ ردّت الكاتبة.

ـ كم من الزمن أنت مستعدة لتنتظريهما؟ فالزوارق ستأتي في طلبنا بعد غدٍ.

ـ عندها سيكون الصبيان قد عادا.

ـ وماذا لو لم يحدث هذا؟

ـ في هذه الحال تذهبون أنتم وأبقى أنا ـ قالت كات.

ـ لن أتركك وحدك هنا، يا كات.

ـ أنت ستذهبين مع البقية للبحث عن مساعدة. عليك أن تتصلي بمجلّة *الإنترناشيونال جيوغرافيك* والسفارة الأمريكية. لا أحد يعرف أين نحن.

ـ الأمل الوحيد هو أن يكون ميشيل موشاحا قد التقط إحدى الرسائل التي أرسلتها باللاسلكي، لكنّني لا أعتمد على هذا ـ قالت أنجي.

لزمت المرأتان الصمت برهة طويلة. رغم الظروف التي كانتا فيها كان باستطاعتهما أن تُقدّرا جمال الليل تحت القمر. في تلك الساعة كانت المشاعل المشتعلة في القرية نادرة، باستثناء تلك التي تُضيء الحظار الملكي ومهجع الجنود. كان تصلهما جلبةُ الغابة ورائحةُ الأرض الرطبة والنافذة. على مسافة قصيرة منهما هناك عالم من مخلوقات لم تر نور الشمس قط وتترصّدهما الآن من العتمة.

ـ هل تعرفين ما هو البئر، يا أنجي؟ ـ سألت كات.

ـ الذي يذكره المبشّران في رسائلهما؟

ـ ليس ما كنّا نتصوّره. لا يتعلّق الأمر ببئر ماء ـ قالت كات.

ـ لا؟ ماذا إذن؟

ـ مكان الاعدام.

ـ ماذا تقولين؟ ـ صاحت أنجي.

ـ ما أقوله لك، يا أنجي. إنّه خلف السكن الملكي، محاط بسياج. ممنوع الاقتراب منه.

ـ هل هو مقبرة؟

ـ لا، بل نوع من المستنقع أو البركة فيها تماسيح...

انتصبت أنجي على قدميها بقفزة واحدة، لا تستطيع أن تتنفّس، وبإحساس أنّها تحمل محرّكاً في صدرها. أكّدت كلمات كات الرعب الذي كانت تشعر به منذ أن اصطدمت طائرتها بالشاطئ ووجدت نفسها محاصرة في منطقة مرعبة. ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم تأكّدت لديها قناعة بأنّها تسير حتماً إلى حتفها. دائماً كانت تعتقد أنّها ستموت شابة في حادث طائرة، إلى أن تنبّأت لها عرّافة السوق، ما بانغيسة بالتماسيح. لم تأخذ النبوءة في البداية بكثير من الجدّية، لكن وبما أنّها التقت مرّتين كادتا تكونان قاتلتين بهذه البهائم، تجذّرت الفكرة في عقلها وتحوّلت إلى هوس. تكهّنت كات بما كانت تُفكّر به صديقتها.

ـ لا تكوني متطيّرة، يا أنجي. كون كوسونغو يربي تماسيحاً لايعني أنّك ستكونين عشاءً لها.

ـ إنّه قدري، يا كات، لا أستطيع الإفلات.

ـ سنخرج أحياء من هنا، يا أنجي، أعدُكِ.

ـ لا تستطيعين أن تعديني بهذا، لأنّك لا تستطيعين أن تفي به. ماذا تعرفين أكثر؟

ـ يرمون في البئر من يتمرّد على سلطة كوسونغو ومبِمبِلة ـ

وضّحت لها كات ـ عرفت هذا من النساء القزمات. على أزواجهنّ أن يصطادوا كي يطعموا التماسيح. هنّ يعرفن كلّ الذي يجري في القرية. إنّهن عبدات البانتوويين، يقمن بأثقل الأعمال، يدخلن إلى الأكواخ، يسمعن الأحاديث، يُراقِبن. حراتٍ نهاراً، ولا يحبسونهنّ إلاّ ليلاً. لا أحد يوليهنّ أهميّة، لأنّهم يعتقدون أنّهنّ خاليات من الذكاء البشري.

ـ هل تعتقدين أنّهم قتلوا المُبَشِّرَيْن بهذه الطريقة وأنّه لهذا السبب لم يبق لهما أثر؟ ـ سألت أنجي مرتعشة.

ـ نعم، لكنّني لستُ متأكّدة، لذلك لم أقل شيئاً للراهب فِرناندو، غداً سأتأكّد من الحقيقة، وسأُلقي إن استطعتُ نظرة على البئر. يجب أن نُصوّره، إنّه جزء هام من القصّة التي أُفكّر بكتابتها للمجلّة ـ قرّرت كات.

في اليوم التالي مثلت كات من جديد أمام القائد مِبيلِهْ كي تُبلِغَه أنّ أنجي نيندِررا تشعر بشرف عظيم تجاه اهتمامات الملك وأنّها مستعدة للتفكير باقتراحاته، لكنّها تحتاج على الأقل عدّة أيام كي تُقرّر، لأنّها ملتزمة بساحر جبّار في بوتسوانا، وكما يعرف جميع الناس فإنّ خيانة ساحر أمر خطير جدّاً، حتى ولو كان من بعيد.

ـ في هذه الحال الملك ليس معنياً بهذه المرأة ـ قرّر القائد.

تراجعت كات على الفور، فهي لم تتوقّع أن يأخذ مِبيلِهْ الأمرَ بهذه الجديّة.

ـ ألا تعتقد أن عليك أن تستشير جلالته؟

ـ لا.

ـ الحقيقة أنّ أنجي لم تعطِ كلمتها للساحر، لِنقُل إنّه ليس هناك التزام رسميّ، هل تفهم؟ قالوا لي إنّ سومبِ، أقوى سحرة أفريقيا

يعيش هنا، ربّما استطاع أن يُحرِّر أنجي من سحر طالب الودّ الآخر... ـ اقترحت كات.

ـ ربّما.

ـ متى سيأتي سومبِ الشهير إلى نجوبي؟

ـ تسألين كثيراً، أيّتها المرأة العجوز، تُزعجين مثل *مابّاني* ـ ردّ القائد وهو يقوم بحركة من يُبعد نحلة ـ سأكلّم الملك كوسونغو. وسنرى الطريقة التي نُحرِّر بها المرأة.

ـ شيء آخر، أيّها القائد مبِمبِلِهْ ـ قالت كات من الباب.

ـ ماذا تريدين الآن؟

ـ الغرف التي وضعتمونا فيها لطيفة جدّاً، لكنّها وسخة قليلاً، هناك بعض روث الجرذان والخفافيش...

ـ و...

ـ أنجي نينبِررا حساسة جدّاً، تُمرضها الرائحة السيّئة. هل تستطيع أن تُرسل عبدةً كي تُنظّفها وتعدّ لنا الطعام؟ إذا لم يكن إزعاجاً كبيراً.

ـ حسناً ـ ردّ القائد.

كانت الخادمة التي عيّنوها لهم تبدو طفلةً، لا ترتدي غير تنورة رافيا، ولا يكاد يبلغ طولها متراً وأربعين سنتيمتراً وكانت نحيلة لكنّها قويّة. جاءت مزوّدة بمكنسة من الأغصان وشرعت تكنس الأرض بسرعة مذهلة. وكلّما رفعت غباراً أكثر كلّما كانت الرائحة والوسخ أسوأ. قاطعتها كات، لأنّها في الحقيقة طلبتها لأهدافٍ أخرى: تحتاج لحليفة. في البداية بدا أنّ المرأة لا تفهم مقاصد كات وحركاتها، تمعن النظر في نقطة، مثل نعجة، لكن حين ذكرت لها الكاتبةُ بِيِية ـ دوكو استضاء وجهها. أدركت كات أنّ البلاهة كانت مصطنعة، وتفيدها للحماية.

بالإيماء وقليل من البانتوية والفرنسية وضّحت القزمة أنّ اسمها جِنا وهي زوجة بِيّيهْ ـ دوكو. قالت جِنا وهي تبكي إنّ عندها ولدين لا تراهما إلا قليلاً جدّاً، لأنهما محجوزين في زريبة، لكنّ جدّتيهما تعتنيان الآن بالطفلين جيّداً. المهلة الممنوحة لبِيّيهْ ـ دوكو والصيادين الآخرين كي يقدّموا العاج هي غداً فقط، فإن خابوا فقدوا أطفالهم. لم تعرف كات ماذا تفعل أمام تلك الدموع، لكنّ أنجي والراهب فِرناندو حاولا مواساتها بأنّ كوسونغو لن يجرؤ على بيع الأطفال نظراً لوجود صحفيين أجانب شهوداً. كانت خنا من الرأي القائل بأنّه ما من شيء ولا أحد يمكن أن يثني كوسونغو.

كان صوت الطبول المشؤوم يملأُ الليلَ الأفريقيَّ هازّاً الغابة ومرعباً الأجانب، الذين كانوا يسمعونه من كوخهم وقلوبهم طافحة بالنذر السوداء.

ـ ماذا تعني هذه الطبول؟ ـ سأل جول غونثالِث مرتعداً.

ـ لا أدري، لكن لا يمكن أن تُعلن شيئاً حسناً ـ ردّ الراهب فِرناندو.

ـ سئمت من كثرة خوفي طوال الوقت! منذ أيّام وصدري يؤلمني من الضيق، لا أستطيع التنفّس! أريد أن أذهب من هنا! ـ صاحت أنجي.

ـ لنصلِّ يا أصدقائي ـ اقترح المُبشِّر.

في هذه اللحظة ظهر جنديّ، وأعلنَ، متوجِّهاً إلى أنجي فقط، أنّ «مبارزة» ستقوم وأنّ القائد مبِمبِلِهْ يطلب حضورها.

ـ سأذهب مع رفاقي ـ قالت هي.

ـ كما تشائين ـ ردّ المراسل.

ـ لماذا تُقرع الطبول؟ ـ سألت أنجي.

- إزنجي - كان جواب الجندي الحذر.

- رقصة الموت؟

لم يُجِب الرجل، أدار لها ظهره ومضى. تشاور أعضاء المجموعة فيما بينهم، كان جول غونثالِث من الرأي القائل أنّ الأمر يتعلّق بالتأكيد بالموت ذاته: وأنّ نصيبهم أن يكونوا الممثلين الرئيسيين في المشهد. فأسكتته كات.

- إنّك تُثير أعصابي، يا جول. إذا كانوا يريدون قتلنا، فلن يفعلوا ذلك علناً. ليس من صالحهم أن يُثيروا فضيحة دولية بقتلنا.

- ومن سيعرف، يا كات؟ نحن تحت رحمة هؤلاء المعتوهين. ماذا يهمّهم رأي بقية العالم؟ إنهم يعملون ما يحلو لهم. - أنّ جول.

اجتمع سكان القرية باستثناء الأقزام في الساحة. كانوا قد رسموا بالكلس مربّعاً على الأرض، مثل حلبة الملاكمة، مضاءاً بالمشاعل. كان القائد و«ضبّاطه»، أي الجنود العشرة من أخوية الفهد، واقفين خلف الكرسيّ الذي كان يشغله تحت شجرة الكلمات. كان بلباسه الدائم، سروال وجزمة الجيش والنظارة العاكسة، رغم أنّ الوقت ليلاً. قادوا أنجي نينديرا إلى كرسيّ آخر، على بعد خطوات قليلة من القائد، بينما تجاهلوا أصدقاءها. لم يكن الملك كوسونغو موجوداً، لكنّ زوجاته مرصوصات في مكانهنّ المعتاد، واقفات خلف الشجرة، يراقبهنّ العجوز الساديّ بعصاه الخيزرانية.

كان «الجيش» حاضراً: أخوية الفهد ببنادقهم والحرّاس البانتوويين بسواطيرهم وسكاكينهم وهراواتهم. كان الحرّاس يافعين جدّاً، ويعطون انطباعاً بأنّهم خائفين خوفَ بقيّة سكان القرية. وسرعان ما فهم الأجانب السبب.

الموسيقيون الثلاثة بستراتهم العسكرية الموحّدة بلا سراويل، الذين كانوا يضربون بالعصيّ ليلةَ وصول كات ومجموعتِها يحملون الآن بين أيديهم طبولاً، والصوت الذي يُحدثونه رتيب وكئيب، متوعّد

ومختلف جداً عن موسيقى الأقزام. استمرّ اليوم بوم برهة طويلة حتى أضاف القمر نوره إلى نور المشاعل. في هذه الأثناء كانوا قد احضروا غالونات بلاستيكية وقرعات تحتوي على نبيذ نخيل، راحت تمرّ من يدٍ إلى أخرى. قدّموها هذه المرّة إلى النساء والأطفال والزوّار. كان القائد يشرب ويسكي أمريكي، بالتأكيد حصل عليه تهريباً. شرب عدّة رشفات ومرّر الزجاجة إلى أنجي، التي رفضتها بكبرياء، لأنّها لم تكن ترغب بإقامة أيّ نوع من العلاقات الوديّة مع ذلك الرجل، لكنّها لم تستطع أن تُقاوِم حين قدّم إليها سيجارة، فقد مضى عليها دهر دون أن تُدخّن.

قرع الموسيقيون بإيماءة من مبِمبِلِهْ الطبولَ مُعلنين بدء الحفلة. من الطرف الآخر من الفناء جاؤوا بالحارسين المعيّنين لحراسة كوخ الأجانب، اللذين هربت ناديا وألِكساندر أمام ناظريهما. دفعوا بهما إلى المربع، حيث بقيا راكعين، خافضي الرأس، مرتعدين. كانا يافعين جدّاً، قدّرت كات أنّهما بعمر حفيدها، سبعة عشر أو ثمانية عشر عاماً. أطلقت امرأةٌ، ربّما أمّ واحد منهما، صرخةً وقفزت إلى الحلبة، لكن سرعان ما أوقفتها نساء أخريات وحملنها بين أذرعهنّ محاولات مواساتها.

انتصب مْبِمبِلِهْ على قدميه، مباعداً بين ساقيه ويداه على وركيه وفكّه يرتعد والعرق يلمع على جمجمته الحليقة وجذعه الرياضيّ. بهذا الموقف وبالنظارة الشمسية التي تخفي عينيه كان يمثل صورة الوغد الحقيقي في أفلام العنف. نبح ببعض الجمل بلغته، التي لم يفهمها الأجانب، وعاد سريعاً ليجلس على الكرسي رامياً بظهره إلى الخلف. سلّم جنديّ سكّيناً إلى كلّ من الرجلين الموجودين في الحلبة.

لم تتأخرّ كات وأصدقاؤها في فهم قواعد اللعبة. كان الحارسان محكومين بالقتال دفاعاً عن حياتهما، وكذلك كان رفاقهما كما عائلاتهما وأصدقاؤهما، محكومين بحضور ذلك

الشكل الوحشي من النظام. إزنجي الرقصة المقدّسة، التي كان يمارسها الأقزام قديماً ليستحضروا روح الغابة العظيمة قبل الخروج للصيد، تشوّهت في نجوبي متحوّلة إلى مبارزة قاتلة.

جاءت المعركة بين الجنديين المُعاقَبَيْن قصيرة؟ بدا لدقائق أنّهما يرقصان والخنجران في يديهما، باحثَيْن الواحد منهما عن غفلة عند الآخر كي يوجّه إليه الضربة. مبِمبِلِهْ وجنوده راحا يحضانهما بالصراخ والتصفير، بينما بقيّة المتفرّجين يلزم صمتاً مشؤوماً. كان بقيّة الجنود البانتوويّون مذعورين لأنّهم يُقدّرون أنّ كلّ واحدٍ منهم يمكن أن يكون المحكوم. كان أهل نجوبي يودّعون الشباب عاجزين وحانقين. وحده الخوفُ من مْبِمبِلِهْ والدوار الذي يُسبّبه نبيذ النخيل يمنع انفجار التمرّد. كانت العائلات متصلة بأواصر دم عديدة، والذين كانوا يشاهدون تلك المبارزة المريعة هم أقارب الفتَيين المتصارعين بالخناجر.

أخيراً حين قرّر المتصارعان الهجوم راحت شفرتا الخنجرين تلمعان تحت نور المشاعل قبل أن تهبطا على الجسدين. صرختان متزامنتان مزّقتا الليلَ وسقط الشابان، واحد يتمرّغ على الأرض والآخر يزحف وسلاحه ما يزال في يده. بدا القمر متوقّفاً في السماء، بينما أهل نجوبي يحبسون أنفاسهم. ارتعش الفتى الذي كان يجثو على الأرض عدّة مرات زمناً طويلاً ثم بقي بلا حراك. عندئذٍ رمى الآخرُ السكين وركع وجبينه على الأرض ويداه على رأسه مرتعشاً من البكاء.

نهض مْبِمبِلِهْ على قدميه وتقدّم ببطء مدروس وقلّب جسدَ الأوّل برأس قدمه، وأخرج على الفور مسدّسه الذي يحمله في زناره من غمده وسدّد على رأس الآخر. في هذه اللحظة انطلقت أنجي نينديِرِرا إلى وسط الساحة وتعلّقت بالقائد بسرعة وقوّة آخذة إيّاه على حين غرّة. انفجرت الرصاصة على بعد سنتيمترات من رأس المحكوم.

صيحة رعب عمّت القرية: كان ممنوعاً منعاً باتّاً لمس القائد. ما من أحد تجرّأ من قبل على أن يقف أمامه بتلك الطريقة. لقد أحدث فعل أنجي عدم تصديق عند العسكريّ، الذي تأخّر في نفض العار عنه وهذا ما منحها الوقت كي تقف أمام المسدّس محاصِرة الضحية.

ـ قل للملك كوسونغو إنّني أقبل به زوجاً، وأريد أن أحمي هذين الفتيين ليكونا هديّة عرسي ـ قالت المرأة بصوت ثابت.

نظر ميمبِلِهْ وأنجي كلّ إلى عيني الآخر، يقيسه بغضب مثل ملاكمين قبل المعركة. كان القائد أطول منها بنصف رأس وأقوى منها بكثير، ثمّ إنّه كان يحمل مسدّساً، لكن أنجي كانت واحدة من تلك النسوة اللواتي يملكن ثقة لا تتزعزع بالنفس. كانت تعتقد أنّها جميلة، وتتمتّع بذكاء لا يُقاوَم، وجرأة في موقفها، يسمحان لها بأن تفرض إرادتها الرائعة. أسندت يديها إلى صدر العسكري العاري الكريه ـ لامسةً إيّاه للمرّة الثانية ـ ودفعته بنعومة، مجبِرَةً إياه على التراجع. وعلى الفور صعقته بابتسامةٍ قادرة على أن تُجرِّد أشجع الشجعان.

ـ هيّا، أيّها القائد، الآن أقبل جرعة ويسكي ـ قالت بفرح، كما لو أنّهما حضرا مشهد سيرك بدل المبارزة حتى الموت.

في هذه الأثناء اقترب الراهب فِرناندو تتبعه كات وجول غونثالِث أيضاً وراحوا يرفعون الفتيين. واحد منهما مغطى بالدم ويترنّح والآخر مغشيّ عليه. أسندوهما من ذراعيهما وحملوهما بما يشبه الجرّ إلى الكوخ الذي ينزلون فيه، بينما سكّان نجوبي والحراس البانتوويون وأخوية الفهد يراقبون المشهد بذهول مُطلق.

13

داوود وجوليات

رافقت الملكة نانا ـ أسانتِ ناديا وألِكساندر عبر الأثر الضيق في الغابة، الذي يربط قرية الأسلاف بالمذبح، حيث ينتظر بِيَية ـ دوكو. لم تكن الشمس قد بزغت بعد والقمر اختفى، إنّها أكثر ساعات الليلة حلكة، لكنّ ألِكساندر كان يحمل مصباحه ونانا ـ أسانتِ تعرف الدربَ عن ظهر قلب، لأنّها تجوبه كثيراً كي تستولي على تقدمات الطعام التي يتركها الأقزام.

كانت التجربة المعاشة في عالم الأرواح قد حوّلت ألِكساندر وناديا. ساعات مضت لم يعودا فيها شخصين وانصهرا في كلّية الوجود، يشعران بنفسيهما قويَّيْن، آمنين، مستنيرين؛ يستطيعان أن يريا الواقعَ من منظور أكثر غنى ونوراً. فقدا الخوف، بما في ذلك الخوف من الموت، لأنّهما أدركا أنّه مهما حدث لن تبتلعهما الظلمةُ، ولن يكونا منفصلين أبداً، فهما يُشكّلان روحاً واحدة.

كان من الصعب عليهما أن يتصوّرا على المستوى الماورائي أنّ أوغاداً، مثل ماورو كاريّاس في الأمازون، والمتخصّص في المملكة المحرّمة، وكوسونغو في نجوبي، يملكون أرواحاً مماثلة لروحيهما. كيف كان بالإمكان ألاّ يوجد فرق بين الأوغاد والأبطال، القدّيسين والمجرمين، بين من يعملون صالحاً ومن

يمرون في العالم موقعين الدمارَ والألم؟ لم يكونا يعرفان جوابَ هذا اللغز، لكنّهما افترضا أنّ كلّ كائن يُساهم بتجربته في احتياطيّ الكون الروحي الهائل. بعضهم يفعل ذلك من خلال العذاب الذي يُحدِثه الشرُّ، وآخرون من خلال النور المكتسب بالرحمة.

عند عودة الشابين إلى الواقع الحاضر فكّرا بالتجارب التي تقترب. كان لديهما مهمّة فورية عليهما أن يفيا بها: يجب نفض اللامبالاة عن البانتوويين، شركاء الطغيان لأنّهم لا يُعارضونه، ففي ظروف محدّدة لا يمكن الوقوف على الحياد. ومع ذلك فإنّ النهاية لاتتعلّق بهما، فاللاعبون الحقيقيون وأبطال التاريخ هم الأقزام. هذا ما رفع عن كاهلهما ثقلاً هائلاً.

كان بِيّيه ـ دوكو نائماً ولم يسمعهم يصلون. أيقظته ناديا برقّة. وحين رأى نانا ـ أسانتِ على ضوء المصباح اعتقد أنّه أمام شبح، فجحظت عيناهُ، وشحب لونه، لكنّ الملكة راحت تضحكُ وداعبت رأسه، كي تُبرهِن له على أنّها حيّة مثله، وحكت له بعدها أنّها وعلى امتداد تلك السنوات بقيت متخفّية في المقبرة، لا تجرؤ على الخروج منها خوفاً من كوسونغو. وأضافت أنّها تعبة من انتظار أن تصطلح الأمور من تلقاء ذاتها وأنّ ساعةَ العودة إلى نجوبي ومواجهةَ المُغتَصِب وتحريرَ أناسها من القمع قد حانت.

ـ سأذهب أنا وناديا إلى نجوبي لنمهِّد الأرض ـ أعلن ألِكساندر ـ سنتدبَّر أمرنا للحصول على مساعدة. أظنّ أنّه حين يعرف الناس أنّ نانا ـ أسانتِ ـ حيّة، سيتشجّعون على التمرّد.

ـ سنذهب نحن الصيّادين مساءً. ففي تلك الساعة ينتظرنا كوسونغو ـ قال بِيّيهْ ـ دوكو.

اتفقوا على ألاّ تمثل نانا ـ أسانتِ في القرية قبل أن يتأكّدوا من دعم السكان لها، وإلاّ فإنّ كوسونغو سيقتلها دون أن يلقى عقابه. فهي ورقة النصر الوحيدة، التي يملكونها في تلك اللعبة الخطيرة، ويجب تركها للنهاية. إذا استطاعوا أن يُجرِّدوا كوسونغو من

خواصّه الإلهية المزعومة، قد يتشجّع البانتوويون ويتمرّدون عليه. طبعاً يبقى هناك مْبِمبِلِة وجنوده، لكنّ ألِكساندر وناديا اقترحا خطّة وافقت عليه نانا ـ أسانتِ وبيّيهْ ـ دوكو. سلّم ألِكساندر ساعته إلى الملكة، لأنّ القزم لم يكن يعرف استخدامها واتفقوا على الساعة وطريقة العمل.

اجتمع بقيّة الصيّادين بهم. كانوا قد قضوا شطراً مهمّاً من الليل يرقصون في شعيرة ليطلبوا مساعدة إزنجي وآلهة أخرى من عالم الحيوان والنبات. حين رأوا الملكة بدر منهم ردّ فعل أشدّ من ردّ فعل بيّيهْ ـ دوكو. في البداية ظنّوا أنّها شبح وراحوا يجرون مذعورين، يتبعهم بِيّيهْ ـ دوكو، الذي حاول صارخاً أن يوضّح لهم أنّ الأمر لا يتعلّق بروحها في المطهر. أخيراً عادوا بحذرٍ، واحداً فواحِداً وتجرّؤوا على لمس المرأة برأس إصبع مرتجف. ثمّ وبعد أن تأكّدوا من أنّها ليست ميتة، استقبلوها باحترام وأمل.

فكرة حقن الملك كوسونغو بإبرة مهدِّئ ميشيل موشاحا هي فكرة ناديا. في اليوم السابق رأت أحد الصيادين يجندل قرداً باستخدام سهم وسبطانة تُشبه تلك التي يستخدمها هنود الأمازون. لم تكن تعرف تأثيرها على الكائن البشري. إذا كان باستطاعتها ان تُجندل وحيدَ قرن خلال دقائق، فمن المحتمل أن تقتل شخصاً، لكنّها افترضت أنّ كوسونغو نظراً لحجمه الهائل يستطيع مقاومتها. كانت سماكة معطفه تشكّل عائقاً يكاد لا يمكن اختراقه. بالسلاح المناسب يمكن أن يخترق جلد فيل، لكن بالسبطانة يجب أن تُصيب جلدَ الملكِ العاري.

حين عرضت ناديا مشروعها أشارو إلى الصيّاد، صاحب أفضل رئتين وتسديد. نفخ الرجلُ صدرَهُ وابتسم لتمييزها له، لكنّ الكبرياء لم يدم له طويلاً، لأنّه سرعان ما راح البقيّةُ يضحكون ويسخرون منه، كما يفعلون دائماً عندما يتبجّح أحدُهم. وما إن هدأ

حتى سلّموه الحقنة مع المهدّئ. فخبّأها المُهانُ في جيب موجود في خصره، دون أن ينطق بكلمة.

ـ سينام الملكُ ساعاتٍ كأنّه ميت. وهذا ما سيمنحنا الوقتَ كي نثير البانتوويين، بعدها تظهر الملكة نانا ـ أسانتِ ـ اقترحت ناديا.

ـ وماذا نفعل بالقائد والجنود؟ ـ سأل الصيّادون.

ـ أنا سأتحدّى مْبِمبِلْهْ بمنازلته ـ قال ألِكساندر.

لم يدرِ لماذا قال ذلك ولا كيف يريد أن يُنفِّذ مثل ذلك الهدف المخيف، ببساطة كان ذلك أوّل شيء خطر له، وأطلقه دون تفكير. ومع ذلك، ما إن قال الفكرة، حتى تجسّدت وأدرك أنّه لم يكن هناك حلّ آخر. تماماً كما عليهم أن يُجرِّدوا كوسونغو من خصائصه الإلهية، كي يتحرّر الناس من الخوف منه، الذي كان بعد كلّ حساب أساس سلطته الهشّ، كذلك يجب أن يهزموا مبِمبِلهْ في ميدانه ذاته، مجال القوّة الخام.

ـ لا تستطيع أن تنتصر عليه، يا جغوار، لستَ مثله، فأنت شخص مسالم. ثمّ إنّه يحمل سلاحاً نارياً وأنت لم تُطلق قط طلقة واحدة ـ احتجت ناديا.

ـ ستكون معركة دون أسلحة نارية، يداً بيد أو بالرماح.

ـ أنت معتوه!

وضّح ألِكساندر للصيّادين أنّه يملك تميمةً جبّارة، وأراهم المُستحاثة التي كان يحملها متدلية من عنقه وحكى لهم أنّ مصدرها حيوان أسطوريّ، تنين عاش في جبال هيملايا الشاهقة قبل ظهور البشر على الأرض. تلك التميمة، قال، تحميه من الأدوات الحادّة ولكي يُجرِّب ذلك أمرهم أن يصطفوا على مسافة عشر خطوات منه ويُهاجموه برماحهم.

تحلّق الأقزام يتكلّمون بسرعة ويضحكون مثل لاعبي كرة قدم أمريكيين. ومن حين إلى آخر ينظرون نظرة إشفاقٍ إلى الشاب

الأجنبيّ، الذي يطلب مثل تلك الجنون. فقد ألِكساندر صبره ودخل إلى المركز وأصرّ على أن يضعوه على المحكّ.

اصطفّ الرجالُ بين الأشجار، غير مقتنعين كثيراً وهم يتلوّون ضحكاً. قاس ألِكساندر عشر خطوات، وهو ما لم يكن سهلاً وسط تلك الأدغال، وقف أمامهم ويداه على خصريه وصاح أنّه جاهز. أطلق الصيّادون رماحهم واحداً فواحداً. لم تتحرّك عضلة واحدة من عضلات الفتى، بينما حدّ الأسلحة يمرّ على بعد مليمتر عن جلده. الصيادون الحيارى استعادوا رماحهم وعادوا ليحاولوا مرّة ثانية، هذه المرّة دون ضحك وبقوّة أكبر، لكنّهم أيضاً لم ينجحوا بمَسِّه.

ـ اهجموا الآن بالسواطير ـ أمرهم ألِكساندر.

انقضّ عليه اثنان منهما، الوحيدان المزوّدان بالسواطير، صارخين ملء رئتيهما، لكنّ الفتى سحر جسده دون صعوبة فانغرس حدّا السلاحين في الأرض.

ـ أنت ساحر جبّار ـ خلصوا مذهولين.

ـ لا، لكن التميمة مثلها مثل إيبِمبا ـ أفوّا تقريباً ـ ردّ ألِكساندر.

ـ هل تعني أنّ أيّ واحد يستطيع بمثل هذه التميمة أن يفعل الشيء ذاته؟ ـ سأل أحد الصيّادين.

ـ تماماً.

ومن جديد تحلّق الأقزامُ برهةً طويلة، متهامسين بحماس، إلى أن اتفقوا.

ـ في هذه الحالة واحد منا سيُقاتل مْبِيلِهْ ـ خلصوا.

ـ لماذا؟ أنا أستطيع فعل ذلك ـ ردّ ألِكساندر.

ـ لأنك لستَ قويّاً مثلنا. أنت طويل، لكنك لا تُتقِن الصيد وتتعب عندما تركض. أيّ واحدة من نسائنا أمهر منك ـ قال أحد الصيّادين.

ـ تصوّري! شكراً...

ـ إنّها الحقيقة ـ وافقت ناديا مخفيةً ابتسامة.

ـ *التوما* هو الذي سيعارك مبِمبِلِهْ ـ قرّر الأقزام.

جميعهم أشاروا إلى الصياد الأفضل، بِيّيهْ ـ دوكو، الذي رفض هذا التكريم بتواضع، الدال على حسن التربية، رغم أنه كان من السهل التكهّن بمدى السرور الذي شعر به. قَبِلَ بعدها أن يُعلّق روث التنين، بعد أن رجوه عدّة مرّات، ويقف أمام رماح رفاقِه. كُرِّر المشهد السابق وهكذا اقتنعوا بأنّ المستحاثّة ترس لا يُختَرق. تصوّر أَلِكساندر بيّيهْ ـ دوكو، ذلك الرجل الصغير مثل طفل أمام مْبِمبِلِهْ، الذي كان، حسب معرفته، خصماً مريعاً.

ـ هل تعرفون قصّة داوود وجوليات؟ ـ سأل.

ـ لا ـ أجاب الأقزام.

ـ في غابر الزمان، وبعيداً عن هذه الغابة، كان هناك قبيلتان في حالة حرب. واحدة منهما عندها بطل، يُدعى جوليات، وكان عملاقاً طويلاً مثل شجرة، قويّاً مثل فيل، سيفه يزن مثل عشرة سواطير. الجميع كان يرتعبون منه. داوود، وهو فتى من القبيلة الأخرى تجرّأ على تحدّيه. كان سلاحه مقلاعاً وحجراً. اجتمعت القبيلتان لتشهد المعركة. قذف داوود الحجر فأصاب جوليات على جبينه ورماه أرضاً ثمّ انتزع منه سيفه وقتله.

تلوّى المستمعون ضحكاً، فقد بدت لهم القصّة هزلاً لا يمكن أن يفوقها شيء من الهزل. لكنّهم لم يُدركوا المقارنة حتى قال لهم أَلِكساندر إنّ جوليات هو مْبِمبِلِهْ، وداوود هو بِيّيه ـ دوكو. فقالوا إنّ من المؤسف أنه ليس لديهم مقلاع. لم يكن لديهم فكرة عنه، لكنّهم تصوّروا أنّه شيء مريع. أخيراً شرعوا في المسير كي يقودوا صديقيهما الجديدين إلى مقربة من نجوبي. ودّعوا بعضهم بعضاً بربتات قوية على الأذرع واختفوا في الغابة.

دخل أَلِكساندر وناديا القرية مع بداية طلوع النهار. وحدها بعض الكلاب انتبهت إلى وجودهما: كانت القرية غافية ولا أحد

يراقب مقرّ البعثة القديم. أطلا من باب المسكن بحذر، كيلا يُفزعا أصدقاءهما، فاستقبلتهما كات، التي نامت نوماً سيئاً وقليلاً جداً. شعرت الكاتبة عندما رأت حفيدها بخليط من الراحة والرغبة بصفعه صفعة قوية. لم تمكنها قواها إلاّ من أخذه من أذنه وهزّه بينما سربلته بالشتائم.

- أين كنتما، أيّها الشيطانان التافهان؟ - صاحت بهما.

- أنا أيضاً أُحبُكِ، يا جدّتي - ضحك أَلِكساندر، وأخذها في عناق قويّ.

- هذه المرّة أتكلّم بجدّية، يا أَلِكساندر، لن أسافر معك بعد الآن أبداً! وأنتِ يا آنسة عليك أن تقدّمي لي الكثير من التوضيحات! - أضافت متوجّهة إلى ناديا.

- لا وقت للعواطف الآن، يا كات، أمامنا الكثير مما علينا فعله - قاطعها حفيدُها.

في هذه الأثناء استيقظ البقيّة وأحاطوا بالشابَّيْن وحاصروهما بالأسئلة. سئمت كات من لَوك التوبيخات التي لم يكن هناك من يسمعها واختارت أن تُقدّم طعاماً للواصلين للتو. دلّتهما على أحواض الأناناس والمانغا والموز والأوعية المليئة بالفراريج المشوية بزيت النخيل، وحلوى المنيهوت والنباتات التي جاؤوهم بها هديّة فالتهمها الصبيان ممتنَّيْن، لأنّهما لم يأكلا إلاّ القليل جدّاً في اليومين السابقين. و قدّمت لهما كات كتحلية آخرَ علبة درّاق متبقّية.

- ألم أقل أنّ الصبيَّيْن سيعودان؟ مباركٌ الربّ! - هتف الراهب فِرناندو مرّةً وأخرى.

في زاوية من زوايا الكوخ وضعوا الحارسين اللذين أنقذتهما أنجي. واحدٌ منهما واسمه أدريان، كان يُحتَضَر من طعنة سكين في معدته. الآخر، المدعو نْزِة، مجروح في صدره، لكنّه لا يوجد، حسب المبشِّر، الذي رأى جروحاً كثيرة في حرب رواندا، أيّ عضو حيوي

مصاب بخطورة وأنّ من الممكن إنقاذه، ما لم يلتهب. كان قد فقد دماً كثيراً، لكنّه شابّ وقويّ. داواه الراهب فِرناندو بأفضل ما استطاع، وراح يعطيه المضادات الحيوية التي كانت تحملها أنجي في علبة إسعافاتها.

ـ من حسن الحظّ أنّكما عدتما، أيّها الصبيّين. علينا أن نهرب من هنا قبل أن يطلبني كوسونغو زوجةً له ـ قالت لهما أنجي.

ـ سنفعل هذا بمساعدة الأقزام، لكن علينا أن نُساعدهم نحن أوّلاً ـ ردّ ألِكساندر ـ سيأتي الصيادون مساءً. الخطّة هي أن ننزع القناع عن كوسونغو ثمّ نتحدّى مْبِمبِلِهْ.

ـ كأنّ ذلك في غاية السهولة. هل يمكن أن نعرف كيف ستفعلون ذلك؟ ـ سألت كات ساخرةً.

عرض ألِكساندر وناديا الاستراتيجية التي تضمّنت بين نقاط أخرى، إثارةَ البانتوويين، مُعلنين لهم أنّ الملكة نانا ـ أسانتِ حيّة، وتحريرَ العبدات كي يُقاتلن مع الرجال.

ـ هل يعرف أحدٌ منكم كيف نُعطِّل بنادق الجنود ـ سأل ألِكساندر.

ـ يجب تعطيل آليّة عملها... ـ اقترحت كات.

خطر للكاتبة أنّهم يستطيعون أن يستخدموا لهذه الغاية الراتنج المستخدم في إشعال المشاعل، المادة اللزجة والدبقة التي تُحفَظ في براميل صفيح في كلّ مسكن. المساكن الوحيدة التي لها مدخل إلى مهجع الجنود هي مساكن القزمات، المكلّفات بتنظيفه ونقل الماء إليه وإعداد الطعام لهم. عرضت ناديا نفسها كي تقود العملية لأنّها سبق وأقامت علاقة معهنّ حين زارتهما في الزريبة. استغلّت كات بندقية صيد أنجي كي تشرح لهم أين يضعون الراتنج.

أعلن الراهب فِرناندو أن باستطاعة الحارس نْزِهْ، أحد الشابين الجريحين، أن يُساعدهم أيضاً. كانت أمّه وكذلك أم أدريان وأفراد

آخرون من الأسر الأخرى قد جاؤوا ليلة أمس بهدايا من الثمار والطعام ونبيذ النخيل، بل وبتبغ لأنجي التي تحوّلت إلى بطلةِ القرية، لأنّها الوحيدة في التاريخ القادرة على مواجهة القائد. لم تفعل ذلك بالكلمة وحسب، بل بلمسه أيضاً. لم يعرفوا كيف يدفعون لها أنّها أنقذت الفتيين من موت محتّم على يدي مْبِمبِلِهْ.

كانوا يتوقّعون موت أدريان في أيّة لحظة، بينما نْزِهْ كان صاحياً دائماً لكنّه واهن جداً. المبارزة الرهيبة خلخلت شللَ الرعب الذي عاشه الفتى سنواتٍ. اعتبرَ أنّه انبعث إلى الحياة من جديد، وأنّ القدر قدّم له هديّةً أيّاماً إضافية من العمر. لم يكن عنده ما يفقده، كأنّه ميت: فما إن يذهب الأجانبُ حتى يرميه مْبِمبِلِهْ إلى التماسيح. ما إنْ قبلَ باحتمال موته الفوري حتى اكتسب شجاعة لم تكن له من قبل. وتضاعفت هذه الشجاعة حين علم أنّ الملكة نانا ـ أسانتِ على وشك أن تعود للمطالبة بالعرش الذي اغتَصَبه منها كوسونغو. قَبِل بخطّة الأجانب التي تحضّ بانتوويي نجوبي على التمرّد، لكنّه طلب منهم في حال أنّ الخطّة لم تأتِ كما هو منتظر، أن يمنحوه مع أدريان ميتة الرحمة، فهو لا يريد أن يذهب لينتهي حيّاً بين يدي مْبِمبِلِهْ.

مثلت كات في الصباح أمام القائد كي تُعلمه بأنّ ناديا وألِكساندر قد نجوَا من حتفهما بأعجوبة في الغابة وعادا إلى القرية. كان هذا يعني أنّها سترحل مع بقيّة المجموعة ما إن يعود الزورقان في طلبهما غداً. وأضافت بأنّها تشعر بخيبةٍ كبيرة لأنّها لم تستطع أن تقوم بالتحقيق عن صاحب الجلالة الرزين جداً، الملك كوسونغو للمجلّة.

بدا القائدُ مرتاحاً لفكرة أنّ هؤلاء الأجانب المزعجين سيُغادِرون بلده، واستعدَّ لأن يُسهّل انسحابهم، ما دامت أنجي ستفي بوعدها وتُصبح جزءاً من حريم كوسونغو. كانت كات تخاف

أن يحدث هذا فحضَرت قصّة. سألت أين الملك، لأنّها لم تره. تُراه مريض؟ تُرى أليس من الممكن أن يكون الساحرُ، الذي كان يريد الزواج من أنجي نيندرِرا، قد صبّ عليه لعنته عن بُعد؟ قالت: الجميع يعرف أنّ خطيبة أو زوجة الساحر لا تُمسّ، وفي هذه الحالة يتعلّق الأمر بساحر منتقِم. في مناسبة سابقة، أصرّ سياسيّ مهمّ على أن يخطب أنجي، ففقد منصبه في الحكومة وصحّته وثروته. وأضافت أنّ الرجل، دفع يائساً لبعض الأوغاد كي يقتلوا الساحر، لكنّهم لم يستطيعوا لأنّ السكاكين ذابت مثل الزبدة في أيديهم.

ربّما ذُهل مبِمبِلِهْ بالحكاية، لكنّ كات لم تلحظ ذلك، لأنّ تقاسيمه مُسْتَغْلقة خلف النظارة العاكسة.

ـ سيقيم جلالته، الملك كوسونغو، في المساء، حفلاً على شرف المرأة والعاج الذي سيأتي به الأقزام ـ أعلن العسكريّ.

ـ عفواً، أيّها القائد... أليس ممنوعاً الاتجار بالعاج؟ ـ سألت كات.

ـ العاج وكلّ ما هو موجود هنا ملك الملك، مفهوم، أيّتها المرأة العجوز؟

ـ مفهوم، أيّها القائد.

كانت ناديا وألِكساندر والبقيّة يُعدّون في هذه الأثناء لذلك المساء. لم تستطع أنجي المشاركة، كما كانت ترغب، لأنّ أربع زوجات شابات من زوجات الملك جئن في طلبها وحملنها إلى النهر، حيث رافقنها ليقدمن لها حماماً طويلاً، بينما يُراقِبهنّ العجوزُ صاحب عصا الخيزران. وحين قام هذا بحركة من سيسوط زوجة سيّده المستقبلية سياطاً استباقية ناولته لطمة على حنكه وتركته ممرّغاً في الوحل. ثمّ كسرت العصا على ركبتها الغليظة وألقت بقطعها في وجهه، محذّرة أنّه إذا ما رفع يده مرّة ثانية عليها سترسله ليجتمع بأسلافه. انتابت الفتيات الأربع نوبة ضحك

اضطررن على أثرها أن يجلسن، لأنّ ركبهنّ ما عادت تحملهنّ. تلمّسن معجباتٍ عضلاتِ أنجي وأدركن أنّه إذا ما دخلت هذه السيّدة المكتنزة الحريمَ فإنّ حياتهنّ ستشهد انقلاباً إيجابياً. ربّما عثر كوسونغو أخيراً على خصم من مقامه.

درّبت ناديا في هذه الأثناء جِنا، زوجة بِبّيه ـ دوكو على طريقة استعمال الراتنج لتعطيل البنادق. وما إن فهمت المرأة ما هو منتظر منها حتى انطلقت بخطواتها، خطوات الطفلة، باتجاه مهجع الجنود، دون أن توجّه أسئلة أو تعليقات. إنّها من الصغر والضآلة، ومن الصمت والحشمة بحيث أنّه لم يلحظ أحدٌ بريقَ الانتقام الضاري في عينيها العسليتين.

علم الراهب فِرناندو من نَزِة بمصير المُبَشّرَين المفقودين. وعلى الرغم من أنّه كان يتوقّعه، إلاّ أنّ صدمة أنّه وجد مخاوفه وقد تأكّدت كانت عنيفة. كان المُبشّران قد وصلا إلى نجوبي لنشر عقيدتهما وما من شيء استطاع أن يثنيهما، لا التهديد ولا الطقس الجهنّمي، ولا الوحشة التي كانا يعيشان فيها. أبقى كوسونغو عليهما معزولَيْن، لكنّهما راحا يكسبان ثقةَ بعض الأشخاص، وهو ما انتهى بأن جرّ عليهما غضب الملك ومِبِلِه. حين بدآ يعترضان علناً على التمادي الذي يُعاني منه السكان والتدخل لصالح الأقزام العبيد، وضعهما القائد مع أمتعتهما في زورق وأرسلهما باتجاه أسفل النهر، لكنّ الراهبين عادا بعد أسبوع أقوى عزيمة من قبل. اختفيا بعد أيّام قليلةٍ. الرواية الرسمية تقولُ إنّه لم يطأ قط نجوبي. أحرق الجنود ممتلكاتهما القليلة ومنعوا ذكرَ اسمهما. ومع ذلك لم يكن سرّاً على أحد أنّ المُبَشّرين قُتلا وألقي بجثّتيهما إلى بئر التماسيح ولم يبق لهما أثر.

ـ إنّهما شهيدان، قدّيسان حقيقيّان، لن ننساهما أبداً ـ وعد الراهب فِرناندو وهو يُجفّف دموعه التي بلّلت خدّيه الضامرين.

عادت أنجي نيندِررا نحو الساعة الثالثة مساءً. لم يكادوا

يعرفونها. جاءت بتسريحة برج من الضفائر وحبّات الذهب والبلور التي تلامس السقف. وكان جلدها يلمع من الزيوت وقد تلفعت بدثارٍ واسع فاقع الألوان، وتضع في ساعديها أساور ذهبية من المعصمين وحتى المرفقين وتنتعل صندلاً من جلد الأفعى. ملأ ظهورُها الكوخ.

- تبدو مثل تمثال الحرّية! - علّقت ناديا، مسحورةً.

- يا يسوع! ماذا فعلوا بكِ، يا امرأة! - صاح المُبشّر مذعوراً.

- لا شيء لا يمكن إزالته - ردّت وأضافت مُصوِّتةً بأساور ذهبها -: بهذه أُفكّر أن أشتري أسطولاً صغيراً من الطائرات.

- هذا إذا استطعت أن تهربي من كوسونغو.

- سنهرب جميعاً، أيّها الراهب - ابتسمت، واثقة تماماً من نفسها.

- ليس جميعنا. فأنا سأبقى لأحلّ محلّ الراهبين المقتولين - ردّ المُبَشِّر.

14

الليلة الأخيرة

بدأت الاحتفالات حوالى الساعة الخامسة مساءً، حين خفّ الحرّ قليلاً. عمَّ الناس في نجوبي جوّ من التوتّر الكبير. فقد راحت أمّ نْزِهْ تدبُّ الصوتَ بين البانتوويين بأنّ نانا ـ أسانتِ، الملكة الشرعيّة، التي طالما بكاها شعبها، حيّة. وأضافت بأنّ الأجانب يُفكّرون بمساعدة الملكة على استعادة عرشها، وأنّ هذه هي الفرصة الوحيدة لهم للتخلّص من كوسونغو ومْبِمبِلِهْ. فإلى متى سيتحملون تجنيد أبنائهم ليصبحوا قتلة؟ كانوا يعيشون مراقَبين محرومين من حرّية الحركة والتفكير، وهم في كلّ مرّة أكثر فقراً. فكلُّ ما كانوا يُنتِجونه يأخذه كوسونغو. وبينما هو يكدّس الذهب والماس والعاج، لم يكن عند الناس حتى اللقاحات. تكلّمت المرأةُ بحذر مع بناتها وهؤلاء مع صديقاتهنّ، وفي أقلّ من نصف ساعة كانت غالبية الراشدين تشاطرهم القلقَ ذاته. لم يجرؤوا على أن يشاطروا الجنود ذلك، رغم أنّهم أفراد من أسرهم، لأنّهم لم يعرفوا كيف سيكون رد فَعلهم، فمْبِمبِلِهْ غسل دماغهم ويملكهم في قبضته.

كان الضيق أكبر بين النساء القزمات لأنّ مهلة إنقاذ أبنائهنّ كانت تنتهي في ذلك المساء. أزواجهنّ دائماً يتمكّنون من الوصول ومعهم أنياب الفيلة في الوقت المناسب، لكنّ شيئاً ما تغيّر الآن. كانت

ناديا قد أعطت جِنا الخبر المذهل بأنّهم استعادوا التميمةَ المقدّسة إيبًمبا ـ أفوَا وأن الرجال لن يجيئوا بالعاج، بل بقرار مواجهة كوسونغو. هُنّ أيضاً عليهنّ أن يُقاتلنَ. فقد تحمّلن لسنواتٍ العبودية معتقداتٍ أنّهنّ إذا أطعن استطاعت عائلاتهنّ أن تحيا، لكنّ الوداعة لم تفدهم كثيراً، فظروف عيشهم صارت في كلّ مرّة أقسى. وكلّما تحمّلن أكثر كلّما تمادوا في سوء معاملتهنّ أكثر. تماماً كما وضّحت لهنّ جِنا، حين لا يعود يوجد فيلة سيبيعون أبناءهنّ في جميع الأحوال. خير لهنّ أن يمتن في التمرّد من أن يعشنَ في العبودية.

كان حريم كوسونغو مضطرباً أيضاً، لأنّه صار معروفاً أن الزوجة المستقبلية لا تخاف شيئاً وكانت قويّة مثل مْبِمبِلِهْ، تسخر من الملك وقد دوّخت العجوز بصفعة واحدة. لم يكن باستطاعة النساء اللواتي لم يُحالفهنّ الحظّ برؤية المشهد أن يصدّقنه. كنّ يشعرن بالرعب من كوسونغو، الذي أجبرهنّ على الزواج منه، وباحترامٍ تبجيلي تجاه العجوز النزقِ المكلّف بمراقبتهنّ. بعضهنّ كنّ يُفكّرنَ بأن أنجي نيندرِرا المتعجرفة ستُرَوَّض وتتحوّل خلال ثلاثة أيّام إلى واحدة أخرى من زوجات الملك الخنوعات، تماماً كما حدث لكلّ واحدةٍ منهنّ، لكنّ الشابات الأربع اللواتي رافقنها إلى النهر ورأين عضلاتها وموقفها كنّ مقتنعات بأنّها لن تصير كذلك.

الوحيدون الذين لن ينتبهوا إلى أنّ شيئاً كان يجري هم من كان عليهم أن يكونوا أفضل إحاطة بالأمر: مْبِمبِلِهْ و«جنوده». فالسلطة قد شحنت رؤوسهم بأنّهم لا يُهزمون. خلقوا جحيمهم، الذي يشعرون فيه بالراحة، وبما أنّه ما من أحدٍ تَحَدّاهم قط فقد أغفلوا أنفسهم.

كُلّفت نساء القرية بأمرٍ من مْبِمبِلِهْ بالإعداد لعرس الملك. زيّنَ الساحةَ بقرابة المئة مشعل وبأقواس مصنوعة من سعف النخيل، وعملن أهراماتٍ من الثمار وطَهون وليمةً مما توفّر بين أيديهنّ: دجاج وجرذان وظبي ومنيهوت وذرة. وبدأت غالونات نبيذ النخيل

تدور باكراً بين الحرّاس، لكنّ السكان المدنيين امتنعوا عن الشرب، تماماً كما أمرتهم أمُ نْزِهْ.

كلّ شيء كان جاهزاً للاحتفال المزدوج بعرس الملك وتسلّمه العاج. لم يكن الليل قد خيّم بعد، لكنّ المشاعل كانت تلتهب والهواء مشبع برائحة الشواء؛ وجنود مبِمبِلهْ وشخصيات بلاطه المشجي قد اصطفوا تحت شجرة الكلمات؛ وسكّان نجوبي تجمّعوا على جانبي الساحة، بينما الحرّاس البانتوويون يراقبون من مواقعهم، مسلّحين بالسواطير والهراوات. كانوا قد جهّزوا للأجانب موائد خشبية، وجول غونثالث قد حضّر كاميراته والبقية استنفروا متأهبين للعمل حين تحين اللحظة. الوحيدة التي كانت غائبة من المجموعة هي ناديا.

كانت أنجي نيندرِرا تنتظرُ في مكان الشرف تحت الشجرة مُدْهشة في دثارها الجديد وزينتها الذهبية. لم يكن يبدو عليها أدنى أثر من الانشغال، رغم أنّ أشياء كثيرة يمكن أن تخرج سيّئة في ذلك المساء. عندما طرحت عليها كات مخاوفها في الصباح، أجابتها أنجي أنّ الرجل الذي يمكنه أن يُخيفها لم يولَد بعد، وأضافت أنّ كوسونغو سيرى من تكون.

ـ سرعان ما سيُقدّم لي الملكُ كلّ الذهب الذي لديه، كي أذهب إلى أبعد مكان ممكن ـ ضحكت.

ـ إلاّ إذا ألقاكِ في بئر التماسيح ـ تمتمت كات بتوتّرٍ شديدة.

عندما وصل الصيّادون إلى القرية بشباكهم ورماحهم، لكن من دون أنياب الفيلة، أدرك سكّان القرية أنّ المأساة قد بدأت وما من شيءٍ يستطيع إيقافها. زفرة طويلة خرجت من كلّ الصدور وجابت الساحة، كان الناس يشعرون بطريقة ما بالراحة، فأيّ شيء أفضل من الاستمرار بتحمّل توترّ ذلك اليوم الرهيب. الحرّاس البانتوويون المرتبكون أحاطوا بالأقزام منتظرين أوامر زعيمهم، لكنّ القائد لم يكن هناك.

مرّت نصف ساعة ازداد فيها الضيق بين الحضور إلى حدّ لايُطاق. كانت غالونات الكحول تدور بين الحرّاس الشباب، الذين جحظت عيونهم وصاروا ثرثارين وفوضويين. نبح عليهم أحد أخوية الفهد فتركوا أوعية النبيذ على الأرض فوراً واصطفوا باستعداد لدقائق، لكنّ النظام لم يدم طويلاً.

أخيراً أعلن مارشٌ على الطبول عن وصول الملك. شق الفمُ الملكي الطريقَ، يرافقه حارس معه سلّة مجوهرات ذهبية ثقيلة للعروس. كان باستطاعة كوسونغو أن يتظاهر بالكرم في العلن، لكن ما أن تُصبح أنجي زوجته حتى تعود الحلي إليه. كانت الزوجات مايزلن مسربلات بالذهب ومعهم العجوز الذي يعتني بهن بوجهه المنتفخ وفمه الذي ليس فيه غير أربع أسنان تتراقص. كان يُلحظ تبدّل واضح في موقف النسوة، ما عدن يتصرفن مثل نعاج، بل مثل قطيع من حمير الزرد النشطة. أومأت أنجي إليهنّ بيدها فأجبنها بابتسامات تواطؤٍ عريضة.

كان يسير خلفَ الحريم حاملو المنصة حيثُ يجلسُ كوسونغو على الكرسيّ الفرنسي. كان يزدهي بالزينة السابقة ذاتها وقبعته المدهشة وستار الخرز الذي يغطي وجهه. بدا المعطف محروقاً في بعض أجزائه، لكنّه في حالة جيّدة. الشيء الوحيد الناقص هي تميمة الأقزام التي كانت تتدلى من الصولجان. في مكانها يوجد عظم مشابِه، يمكن أن يبدو من بعيد على أنّه إيبِمبا ـ أفوَا. لم يكن يناسب الملك أن يعترف بأنّهم انتزعوا منه الشيء المقدس. فيما عدا ذلك كان واثقاً من أنّه لا يحتاج للتميمة للتحكّم بالأقزام، الذين يعتبرهم مخلوقات بائسة.

توقّف الموكب الملكيُ وسطَ الساحة، كيلا يبقى هناك من لم يتفرّج على العاهل. سأل الفمُ الملكي الأقزامَ عن العاج قبل أن يأخذ الحمالون المنصّة إلى مكانها تحت شجرة الكلمات. تقدُم الصيّادون، واستطاع الأهالي جميعاً أن يُقدّروا أنّ واحداً منهم يحمل التميمة المقدّسة، إيبُمبا ـ أفوَا.

ـ لم يبقَ هناك فيلة. لم نستطِع أن نأتي بمزيد من الأنياب. الآن نُريدُ نساءنا وأبناءنا. سنعودُ إلى الغابة ـ أعلن بِيَيهْ ـ دوكو دون أن يرتجف صوته.

صمتُ قبورٍ استقبَلَ به هذا الخطاب القصير. لم تخطر إمكانية تمرّد العبيد ببال أحدٍ حتى ذلك الوقت. أوّل ردّ فعلٍ لأخوية الفهد هو قتل مجموعة الرجال الصغار، لكنّ ميمبِلهْ لم يكن حاضراً بينهم والملك لم يأتِ بردّ فعلٍ بعد. كان السكان مشوّشين، لأنّ أمّ نْزِهْ لم تذكر شيئاً بخصوص الأقزام. كان البانتوويون قد استفادوا سنواتٍ طويلةً من عمل العبيد ولم يكن من صالحهم أن يفقدوهم، لكنّهم أدركوا أن توازن الماضي قد انكسر. شعروا للمرّة الأولى باحترام تلك الكائنات، الفقيرة، والعزلاء، والضعيفة، فقد أظهروا شجاعة لاتُصدّق.

نادى كوسونغو مراسله وهمس مومئاً بشيء في أذنه. أمر الفمُ الملكي بإحضار الأطفال. توجّه ستّة من الحرّاس إلى إحدى الزريبتين وعادوا بعد قليل يقودون مجموعة بائسة: امرأتين طاعنتين في السن، ترتديان تنورتي رافيا وفي حضن كلّ واحدة رضيع، يحيط بهما عدد من الأطفال من مختلف الأعمار، ضئيلين ومذعورين. قام بعضهم حين رأوا آباءهم بحركة من يهمّ للركض باتجاههم، لكنّ الحرّاس أوقفوهم.

ـ على الملك أن يُتاجر، هذا واجبه. تعرفون ماذا يحدث إذا لم تأتوا بالعاج ـ أعلن الفم الملكي.

لم تستطع كاتْ كولدْ أن تتحمّل مزيداً من الضيق، وعلى الرغم من أنّها وعدت ألِكساندر أنّها لن تتدخّل إلاّ أنّها جرت باتجاه وسط الساحة وانتصبت أمام المنصّة الملكية، التي كانت ما تزال على أكتاف الحمّالين. انتهرت، دون أن تتذكّر أبداً البروتوكول الذي يُجبرها على الركوع، كوسونغو صارخةً ومذكّرة إيّاه بأنّهم صحفيون دوليون وسيخبرون العالم كلّه بالجرائم التي تُرتكب ضدّ

الإنسانية في تلك القرية. لم تتمكّن من أن تنهي كلامها، لأنّ جنديّين مسلّحين بالبنادق رفعاها من ذراعيها. استمرّت الكاتبة العجوز تحتج وترفس في الهواء بينما الجنديان يحملانها إلى بئر التماسيح.

انهارت الخطّة التي كانت قد وضعتها ناديا وألِكساندر بكثير من الدقّة خلال دقائق. كانوا قد حدّدوا مهمّة لكلّ عضوٍ في المجموعة، لكنّ تدخّل كات في الوقت غير المناسب زرع الفوضى بين الأصدقاء. من حسن الحظّ أن الحرّاس وبقيّة السكان كانوا مشوّشين أيضاً.

لم يستطع القزمُ المُكلّف بإطلاق حقنة المخدّر، والذي بقي متخفياً بين الأكواخ، أن ينتظر لحظةً أفضل كي يقوم بذلك. حملَ، مدفوعاً بالظروف، السبطانةَ إلى فمه ونفخها، لكنّ الحقنة المسدّدة إلى صدر كوسونغو أصابت صدر أحد الحمّالين الذين يسندون المنصّة. شعر الرجل بوخزة نحلة، لكنّ يده لم تكن طليقة كي ينفض الحشرة المفترضة. حافظ على نفسه واقفاً لحظات وفجأة انطوت ركبتاه وسقط فاقداً الوعي. لم يكن رفاقه مهيّئين، فصار الثقل غيرَ محتملٍ ومالت المنصّة وتدحرج الكرسيّ الفرنسيّ على الأرض. أطلق كوسونغو صرخة محاولاً أن يتوازن، وبقي عالقاً في الهواء جزءاً من الثانية، هبط بعدها ملتفاً بمعطفه، ومالت قبّعته وهو يزمجر غضباً.

قرّرت أنجي أنّ لحظة الارتجال قد حانت، فبما أنّ الخطّة الأصلية قد تخرّبت وصلت بأربع قفزات إلى جانب الملك الساقط، وبضربتين من يديها أبعدت الحرّاس الذين أرادوا إيقافها، وبصرخة هنديّ كومانتشيّ أخذت القبّعة وانتزعتها عن الرأس الملكيّ.

جاء فعل أنجي من المباغتة والجرأة بحيث شُلّ الناس كما لو في صورة ضوئيّة. لم تهتزّ الأرض حين حطّت قدما الملك عليها. لاأحد أصابه الصمم من صرخة غضبه ولا العصافير سقطت ميتة من

السماء ولا الغابة تشنّجت في حشرجات احتضار. ولا أحد أصيب بالعمى حين رأى وجهَ كوسونغو لأوّل مرّة، فقط دُهشوا. حين سقطت القبّعة والستارة استطاع الجميع أن يروا رأسَ القائد موريس ميمبِلِة المعروف.

- لقد قالت كات إنكما متشابهان أكثر من اللازم! - صاحت أنجي.

كان الجنود قد استعادوا وعيهم في هذه الأثناء وسارعوا ليُحيطوا بالقائد، لكنّ أحداً منهم لم يجرؤ على لمسه؛ حتى الرجلان اللذان كانا يحملان كات إلى حتفها أفلتا الكاتبة وعادا يركضان باتجاه زعيمهما، لكنّهما أيضاً لم يجرؤا على مساعدته. وهذا ماسمح لِكات أن تختفي بين الناس وتُكلّم ناديا. تمكّن مْبِمْبِلِة من التخلّص من المعطف والوقوف على قدميه بقفزة واحدة. كان صورة الغضب بذاتها، مغطى بالعرق، جاحظ العينين مزبد الفم، يزمجر مثل حيوانٍ ضارٍ. رفع قبضته الجبّارة بهدف أن يُفرّغها على أنجي، لكنّها كانت قد أصبحت بعيدة عن متناول يده.

اختار بِيّيه - دوكوّ هذه اللحظة كي يتقدّم. كان يحتاج إلى جرأة هائلة كي يتحدّى القائد في الأوقات العادية، وأن يفعل هذا آنذاك حين كان مغتاظاً، كان ينطوي على مجازفة قاتلة. كان الصيّاد الصغير يبدو تافهاً أمام مبِمْبِلِة الضخم، الذي ينتصب أمامه مثل برج. دعا القزمُ العملاق ناظراً إلى الأعلى للمنازلة في معركة فريدة.

عمّ القرية همسُ ذهول. لا أحد استطاع أن يُصدّق ما كان يجري. تقدّم الناسُ، متجمّعين خلف الأقزام، دون أن يهمّ الحرّاسُ المصعوقون، مثل بقيّة السكان، على التدخّل.

تردّد مْبِمْبِلِة، مرتبكاً، بينما راحت كلمات العبد تنفذ إلى دماغه. أخيراً حين أدرك الجرأة الهائلة التي ينطوي عليها ذلك التحدّي، أطلق قهقهةً مُجلجلة استطالت في موجاتٍ دامت عدّةَ دقائق. قلّده أخوية الفهد، لأنّهم افترضوا أنّ هذا ما كان يُنتَظَر منهم، لكنّ

الضحكة جاءت مفتعلة؛ والمسألة قد اتخذت طابعاً بذيئاً أكثر من اللازم فلم يعرفوا كيف يتصرّفون. كان باستطاعتهم أن يلمسوا عداوة السكّان ويستشعروا أنّ الحرّاس البانتوويين مشوّشين، جاهزين للتمرّد.

ـ أخلوا الساحة ـ أمر مْبِمْبِلِهْ.

لم تكن فكرةُ إزنجي أو المصارعة يداً بيد جديدةً على أيّ شخص في نجوبي، لأنّه هكذا كان يُعاقِب السجناء، وبالمناسبة ينشأ جوّ تسلية يُبهج القائد. الشيء الوحيد المختلف في هذه الحالة هو أن مبمبلِهْ لن يكون حكماً ومتفرّداً، بل مشارِكاً. بالطبع لم تكن مصارعةُ قزمٍ تُسبِّب له أدنى قلقٍ، فقد كان يُفكِّر أن يسحقه مثل دودة، لكنّه سيجعله يتعذّب قبل ذلك.

خرج الراهبُ فِرناندو، الذي بقي على مسافة معيّنة، الآن إلى المواجهة بزيّ سلطةٍ جديدة. فمقتل رفيقيه عزّز إيمانَه وبسالته. لم يكن يخاف مْبِمْبِلِهْ، لأنّه على يقين بأنّ الكائنات الشريرة تدفع عاجِلاً أو آجلاً ثمن أخطائها، وذلك القائد قد تمادى فيما ارتكب من الجرائم، وقد حانت الساعة لدفع الحساب.

ـ أنا سأكون الحَكَم. لا تستطيعان أن تستخدِما السلاح الناريّ. ما السلاح الذي تختارانه، الرمح، السكين أم الساطور؟ ـ أعلن.

ـ لا شيء من هذا. سنتصارع دون سلاح، يداً بيد ـ ردّ القائد بتكشيرة ضارية.

ـ حسناً ـ قبل بِبّيهْ ـ دوكو دون تردُّد.

انتبه ألِكساندر إلى أنّ صديقَه يعتقد أنّه محميّ بالمستحاثّة، فهو لم يكن يعلم أنّها لا تفيد إلاّ كترسٍ ضدّ الأسلحة القاطعة، لكنّها لا تُنقِذه من قوّة القائد الخارقة، الذي يستطيع أن يقطِّعه بيد نظيفة. أخذ الراهب فِرناندو جانباً ليرجوه ألاّ يقبل بهذه الشروط، لكنّ المُبَشِّر قال إنّ الله يسهر على قضيّة العادلين.

ـ بِيَيهْ ـ دوكو خاسر بالمصارعة جسداً لجسد! القائد أقوى منه بكثير! ـ صاح ألِكساندر.

ـ الثور أيضاً أقوى من المُصارع. الحيلة تقوم على إنهاك البهيمة ـ أشار المُبَشِّر.

فتح ألِكساندر فمه كي يردّ فأدرك على الفور ما يريد أن يُوضّحه له الراهب فِرناندو. فانطلق مثل السهم ليحضّر صديقَه للامتحان الرهيب الذي عليه أن يُواجِهه.

على الطرف الآخر من القرية كانت ناديا قد رفعت دعامة القفل وفتحت باب الزريبة التي يحبسون فيها القزمات. اقترب صيّادان لم يحضرا إلى نجوبي مع البقيّة، يحملان رماحاً وزّعاها عليهنّ. انسلّت النساء مثل أشباح بين الأكواخ، واتخذن مواقعهنّ حول الساحة، تُخفيهنّ ظلمة الليل، مستعدّات للعمل حين تحين اللحظة. اجتمعت ناديا بألِكساندر، الذي كان يلقّن بِيَيهْ ـ دوكو، بينما الجنود يرسمون الحلبة في المكان المعتاد.

ـ يجب عدم القلق من البنادق، يا جغوار، المسدّس الذي يحمله مْبِمْبِلِهْ على خصره هو الوحيد الذي لم نستطع تعطيله ـ قالت ناديا.

ـ والحرّاس البانتوويّون؟

ـ لا ندري كيف سيكون ردّ فعلهم، لكنّ كات خطرت لها فكرة ـ ردّت هي.

ـ هل تعتقدين أنّ عليّ أن أقول لـِ بِيَيهْ ـ دوكو أنّ التميمة لا تستطيع حمايته من مْبِمْبِلِهْ؟

ـ لماذا؟ هذا يزعزع ثقته بنفسه ـ أجابت هي.

لاحظ ألِكساندر أن صوت صديقته متحشرج، ولا يبدو بشريّاً تماماً، ويكاد يكون نعيقاً. كانت عيناها بلوريّتين، ولونها شاحباً وتنفّسها مضطَرباً.

ـ ما بكِ، يا نسر؟ ـ سأل.

ـ لا شيء، يا جغوار، اعتنِ بنفسك كثيراً. عليَّ أن أذهب.

ـ إلى أين تذهبين؟

ـ للبحث عن مساعدة ضدّ المسخ ذي الرؤوس الثلاثة، ياجغوار.

ـ تذكّري نبوءة ما بانغِسِة، لا نستطيع أن ننفصل!

قبّلته نانيا قبلة خفيفة على جبينه وخرجت راكضةً. ما من أحد رأى في الهيجان الذي كان يُخيِّم على القرية، النسرَ الأبيض يحلّق فوق الأكواخ ويضيع باتجاه الغابة، غير أَلِكساندر.

كان القائد مْبِمبِلِهْ ينتظر في زاوية من المربع، حافياً لا يرتدي غير بنطلون قصير، يرتديه تحت المعطف الملكي وزنار جلديّ عريض فيه مسدّس على خصره. كان قد دلك جسمه بزيت النخيل وتبدو عضلاته العجيبة منحوتة من الصخر الحي، وجلده يلمع تحت نور المشاعل المئة المتذبذب كأنّه حجر بركانيّ أسود. كانت الندب الشعائرية في ذراعية وخدّيه تُبرز مظهره الخارق. بدا رأسه الحليق فوق عنقه، عنق الثور، صغيراً. كانت تقاسيم وجهه الكلاسيكية جميلة لولا أنّ تعبيراً بهيمياً يُشوّهها. رغم الكراهية التي كان يثيرها هذا الرجل ما من أحد إلاّ وأعجب بجسمه الرائع.

وعلى النقيض من مْبِمْبِلِهْ العملاق، كان الرجل الصغير الموجود في الطرف المقابل قزماً لا يكاد يصل إلى خصره. لا شيء جذّاب في صورته غير المتناسقة ووجهه الأفطس وأنفه المُفلطح وجبينه الضيّق، باستثناء العزيمة والذكاء اللذين يشعان من عينيه. كان قد خلع قميصه الأصفر البالي. أيضاً كان عارياً عملياً ومدهوناً بالزيت. يحمل في عنقه قطعةَ صخر متدلية من سلسلة: روث تنين أَلِكساندر السحري.

ـ قال لي صديق يُدعى تِنسينغ، يعرف أكثر من أيّ شخص آخر فن الصراع جسداً لجسد، إنّ قوّة العدو في ضعفه أيضاً ـ وضّح ألِكساندر لـِ بِبّية ـ دوكو.

ـ ماذا يعني هذا؟ ـ سأل القزم.

ـ قوّة مْبِمْبِلْهْ في حجمه ووزنه. إنّه مثل جاموس، عضلات خالصة. بما أنّه يزن كثيراً، ليس لديه مرونة ويتعب على الفور. ثمّ أنّه متعجرف وليس معتاداً على أن يتحدّاه أحد. ومنذ سنوات كثيرة لم يحتج للصيد أو القتال. أنت في وضع أفضل منه.

ـ ثمّ إنّ معي هذا ـ أضاف بِبِّية ـ دوكو مداعباً التميمة.

ـ الأهمّ من هذا، يا صديقي، هو أنك تُقاتل دفاعاً عن حياتك وحياة عائلتك. بينما مْبِمْبِلِهْ يفعل ذلك مزاجاً. إنّه قاتل، وجبان مثل كل القتلة ـ أجابه ألِكساندر.

اقتربت جِنا، زوجة بِبّية ـ دوكو، من زوجها، عانقته عناقاً قصيراً وهمست ببعض الكلمات في أذنه. في هذه الأثناء أعلنت الطبول بداية المعركة.

كان جنود أُخوية الفهد يقفون ببنادقهم حول الحلبة المنارة بالمشاعل وضوء القمر، وخلفهم الحرّاس البانتوويون وفي الصف الثالث سكان نجوبي، وجميعهم في حالة هيجان خطير. استعدّ جول غونثالث لتصوير الحدث بأمر من كات، التي لم يكن باستطاعتها أن تُضيّع الفرصة لكتابة تحقيق رائع للمجلة.

نظّف الراهب فِرناندو نظارته وخلع قميصه. جسده، جسد الزاهد، نحيل جدّاً وليفي، وبياضه مَرَضي. لا يرتدي غير البنطلون والجزمة ويستعدّ ليقوم بدور الحكم، رغم أن ليس لديه غير قليل من الأمل بجعلهما يحترمان القواعد الأساسية لأيّ رياضة. كان يُدرك

أنّ الأمر يتعلّق بصراع قاتل؛ وأمله هو تفادي أن يكون كذلك. قبّل وشاحه الديني الذي يحمله حول عنقه وأسلم أمره لله.

أطلق مْبِمْبِلِهْ زمجرةً من أحشائه وتقدّم هازّاً الأرض بخطواته. انتظره بِيّيهْ ـ دوكو صامتاً، بلا حراك، في الوضع المستنفر ذاته، لكنّه هادئ الهدوء الذي يستخدمه في أثناء الصيّد. قبضة من العملاق انطلقت مثل ضربة مدفع إلى وجه القزم، الذي تفاداها بميليمترات. اندفع القائد أماماً، لكنّه استعاد توازنه. وحين وجّه الضربة الثانية لم يكن خصمه هناك، بل خلفه؛ فاشتاط غضباً وانقضّ عليه مثل حيوان ضار هائج، لكنّ أيّاً من قبضاته لم تطل بِيّيهْ ـ دوكو، الذي راح يرقص على حواف الحلبة. ويفلتُ في كلّ مرّة يُهاجمه فيها الآخر.

كان على مْبِمْبِلِهْ نظراً لضآلة خصمه، أن يلاكم إلى الأسفل في وضعية غير مريحة تنقص من قوّة ذراعيه. لو استطاع أن يصيب بِيّيهْ ـ دوكو بواحدة من ضرباته فقط لسحق رأسه، لكنّه لم يستطع أن يصيبه بأيّ منها، لأنّ الآخر كان سريعاً مثل غزال وزلقاً مثل سمكة. سرعان ما راح القائد يلهثُ والعرق يسقط على عينيه معمياً إيّاه. قدّر أنّ عليه أن يقدّر قوته: لن يستطيع أن يهزم الآخر من جولة واحدة، كما افترض. أمر الراهبُ فِرناندو باستراحة فأطاع مْبِمْبِلِهْ القوي على الفور متراجعاً إلى ركنٍ، حيث كان ينتظره سطل ماء كي يشرب ويغسل عرقه.

استقبل ألِكساندر بِيّيهْ ـ دوكو في زاويته، التي وصلها مُبتَسِماً بخطوات راقصة: كما لو أنّه في عيد. وهذا ما زاد من غضب القائد، الذي راح يراقبه من الطرف الآخر، جاهداً في استعادة أنفاسه. لم يبدُ أنّ بِيّيهْ ـ دوكو كان عطشاً، لكنّه قَبِل أن يصبوا ماءً على رأسه.

ـ تميمتك سحرية جدّاً، إنّها أكثر التمائم سحراً بعد إيبمبا ـ أفوَا ـ قال وهو في غاية الرضا.

ـ مْبِمْبِلِهْ مثل جذع شجرة، يعاني كثيراً في حني خصره، لذلك

لايستطيع أن يضرب إلى الأسفل ـ وضّح له ألِكساندر ـ أنت تعمل بشكلٍ ممتاز، يا بِيَيهْ ـ دوكو، لكن عليك أن تُتعِبه أكثر.

ـ أعرف. إنّه مثل الفيل. كيف ستصطاد الفيل ما لم تُتعِبه أوّلاً.

اعتبر ألِكساندر أنّ الاستراحة كانت أقصر من اللازم؛ لكنّ بِيَيهْ ـ دوكو كان ينط نافد الصبر وما أن أعطى الراهبُ فِرناندو إشارته حتى خرج إلى وسط الحلبة قافزاً مثل صبيّ. هذا الموقف كان بالنسبة إلى مْبِمْبِلِهْ استفزازاً لا يستطيع أن يُمرِّره. نسي قراره بحساب فعله وانقضّ بكلّ سرعته مثل شاحنة. بالطبع لم يجد القزم أمامه وأخرجه اندفاعه خارج الحلبة.

أشار إليّه الرهب فِرناندو بقوّة أن يعود إلى الحدود المُعلَّمة بالكلس. التفت إليه مْبِمْبِلِهْ كي يجعله يدفع ثمن تجرّئه على إعطائه أمراً، لكنّ موجة تصفير مطبق من سكّان نجوبي أوقفته. لم يكن باستطاعته أن يُصدّق ما كان يسمعه! لم يمر في دماغه قط، ولا حتى في أسوأ كوابيسه، احتمال أن يتجرأ أحدّ ويناقضه. لم يتمكّن من التلهي بالتفكير بطرق معاقبة الوقحين، لأنّ بِيَيهْ ـ دوكو ناداه عند عودته إلى الحلبة رافساً إيّاه من الخلف على إحدى ساقيه. كان الاحتكاك الأوّل بينهما. لقد لمسه هذا القرد! هو! القائد موريس مْبِمْبِلِهْ! أَقْسَم أنّه سيمزّقه إرباً ثم يأكله، كي يُلقّن هؤلاء الأقزام المنتفضين درساً.

كلّ ادعاء باتباع القواعد في لعبة نظيفة اختفى في تلك اللحظة؛ فـ مْبِمْبِلِهْ فقد السيطرة على نفسه، ورمى الراهب فِرناندو بدفعة واحدةٍ عدّةَ أمتار وانقضّ على بِيَيهْ ـ دوكو، الذي ارتمى فجأة على الأرض. راح القزم يرفس، منكمشاً في وضعية الجنين، مستنداً على عجزه، رفساتٍ قصيرة تحطّ على ساقي العملاق. من ناحيته راح القائد يُحاول أن يضربه بيديه من فوق، لكنّ بِيَيهْ ـ دوكو راح يدور مثل خُذروف، يدور على جانبيه، وما من طريقة للوصول إليه. حَسَب

القزم اللحظة التي يستعد فيها مْبِمْبِلهْ ليُوجِّه إليه رفسة ضارية وضرب الساق التي يستند عليها، فسقط برجُ القائد البشري إلى الخلف مثل صرصور على ظهره، دون أن يستطيع النهوض.

كان الراهب فِرناندو قد صحا في هذه الأثناء من الضربة، وعاد ليُنظِّف عدستي نظارته السميكتين، وصار مرّة أخرى فوق المتصارعين. استطاع أن يسمع، وسط صياح المتفرّجين الصاخب والرهيب، مُطالبتهم بإعلان الفائز. قفز ألِكساندر إلى الأمام ورفع ذراعَ بِيّيهْ ـ دوكو، مطلقاً صيحات فرح، رافقه فيها الجميع ما عدا جنود أخوية الفهد، الذين لم يفيقوا من المفاجأة.

لم يشهد سكّان نجوبي قط مشهداً بمثل تلك الكبرياء. بصراحة قليلون من كانوا يتذكّرون أصولَ القتال، فقد كانوا منفعلين أكثر من اللازم أمام مشهد لا يمكن تصوره لانتصار قزمٍ على عملاق. صارت القصّة تمثل جزءاً من أسطورة الغابة، ولن يملّوا من روايتها جيلاً بعد جيل. وكما يحدث دائماً للشجرة الساقطة، صار الجميع مستعدّين أن يعملوا من مْبِمْبِلهْ حطباً، الذي حتى لحظات قليلة كان مايزال يعتبر نفسه شبه إله. كانت المناسبة تدعو للاحتفال بها. بدأت الطبول تُقرع بحماس وحيوية وراح البانتوويّون يرقصون ويُغنون دون ما اعتبار، لأنّهم فقدوا منذ تلك اللحظة عبيدهم ومستقبلهم يظهر قلقاً.

انزلق الأقزامُ بين أرجل الحرّاس والجنود، واحتلوا الحلبة ورفعوا بِيّيهْ ـ دوكو على المحفّة. خلال هذا الانفجار من الشعور بالانتعاش الجماعي تمكّن مْبِمْبِلهْ من النهوض على قدميه، وانتزع الساطور من أحد الحرّاس وانقضّ على المجموعة التي تتنزّه محتفلة بانتصار بِيّيهْ ـ دوكو الذي بوجوده على أكتاف رفاقه صار بارتفاعه أخيراً.

لم يرَ أحد ما جرى في اللحظة. بعضهم قال إنّ الساطور انزلق

بين أصابع القائد المتعرّقة والمدهنة، وأقسم آخرون أنّه توقّف بشكل غريب في الهواء على بعد سنتيمتر واحد من عنق بِنِيةْ ـ دوكو، ثمّ طار في الهواء كما لو أنّ إعصاراً شفطه. مهما كان السبب، فالمسألة أنّ الحشود شُلّت ومْبِمْبِلِهْ، أسير رعب التطيُّر، انتزع السكين من حارس آخر ورماه. لم يستطع أن يُسدّد جيّداً، لأنّ جول غونثالِث اقترب والتقط صورة أعماه بنورها.

عندئذ أمر القائد جنودَه بإطلاق النار على الأقزام. تفرّق السكّانُ صارخين. جرَت النساء أطفالهنّ، وتعثّر الشيوخ، وجرت الكلابُ وخفق الدجاج بأجنحته، ولم يبق للناظر غير الأقزام والجنود والحرّاس، الذين لم يحسموا أمرهم لصالح أيّ فريق سيكونون. جرت كات وأنجي لحماية أطفال الأقزام، الذين راحوا يصرخون متكوّمين مثل جراء حول الجدّات. وبحث جول عن ملاذ له تحت الطاولة، حيث طعام وليمة العرس، وراح يلتقط من هناك الصور دون أن يضبط العدسة. وقف ألِكساندر والراهب فِرناندو مفتوحي الأذرع أمام الأقزام، يحميانهم بجسديهما.

ربما حاول بعض الجنود أن يُطلق النار ووجد أنّ سلاحه لايعمل. وربّما اشمأز آخرون، من جبن زعيمهم الذي كانوا يحترمونه حتى تلك اللحظة، فرفضوا أن يُطيعوه. في جميع الأحوال ما من طلقة دوّت في الفناء، وبعد برهة كان رأس حربة على حنجرة كلّ واحد من جنود أخوية الفهد: لقد شرعت النساء القزمات بالعمل.

لم يستوعب مْبِمْبِلِهْ، الذي أعماه الغضب، شيئاً من هذا. فقط التقط أنّ أوامره رُفِضت. فأخرج مسدّسه من الحزام وسدّد على بِنِيةْ ـ دوكو وأطلق النار. لم يعلم أنّ الرصاصة، التي حرفتها قوّة التميمة السحرية، لم تُصب هدفها، لأنّه وقبل أن يتمكّن من الضغط على الزناد ثانية انقضّ عليه حيوان مجهول، قطٌ أسود هائل، بسرعةِ وقوّةِ فهدٍ وعيني نمرٍ صفراوين.

15

المسخ ذو الرؤوس الثلاث

الذين شهدوا تحوّل الفتى الغريب إلى هرّ أسود أدركوا أنّ تلك الليلة كانت أكثر ليالي حياتهم عجائبية. فلغتهم تخلو من الكلمات لرواية كلّ تلك العجائب؛ لم يكن يوجد حتى اسم لذلك الحيوان الذي لم يروه من قبل قط. قطٌ هائل أسود انقضّ مزمجراً على القائد. النَفَس الضاري الحارق أصاب ضِبْلِةً في وجهه كاملاً وانغرزت مخالبه في كتفيه. كان باستطاعته أن يتخلّص من الهر بطلقة، لكنّ الرعب شلّه، لأنّه وجد نفسه أمام حدث خارق للطبيعة، عمل سحر عجيب. تخلّص من عناق الجغوار له ضارباً إيّاه بكلتا قبضتيه، وراح يجري يائساً نحو الغابة، يتبعه الحيوان. كلاهما ضاع في العتمة أمام دهشة من حضر المشهد.

كان سكّان نجوبي كما الأقزام يعيشون واقعاً سحريّاً، محاطين بالأرواح، خائفين دائماً من أن ينتهكوا مُحرّماً أو يرتكبوا إساءة يمكن أن تُطلق العنان لقوى خفيّة. يعتقدون أنّ الأمراض يتسبّبُ بها السحر وبالتالي تُشفى بالطريقة ذاتها، وأنّه لا يمكن الخروج للصيّد أو السفر دون احتفال لإرضاء الآلهة، وأنّ الليلَ مسكونٌ بالشياطين، والأمواتِ يتحوّلون إلى كائنات لاحمة. لذلك فالعالم المادّي شديد الغموض والحياة ذاتها سحر. رأوا ـ أو اعتقدوا أنّهم رأوا ـ مظاهر سحر كثيرة، ولذلك لا يعتبرون من المحال أن يتحوّل شخصٌ إلى

حيوانٍ ضارٍ. يمكن أن يكون هناك تفسيران: ألِكساندر ساحر جبّار أو أنّه روح حيوان اتخذ موقّتاً هيئة الفتى.

كان الحالُ مختلفاً جدّاً بالنسبة إلى الراهب فِرناندو، الذي كان بجانب ألِكساندر حين تقمّص حيوانه الطوطمي. فالمُبشِّر الذي يعتبر نفسه أوروبّياً عقلانياً، رجل تربية وثقافة، رأى ما جرى، لكنّ عقله لم يستطع قبوله. رفع نظارته، نظّف عدستيها ببنطلونه، وتمتم وهو يفرك عينيه: «قطعاً عليّ تبديلها». اختفاء ألِكساندر في اللحظة ذاتها التي خرج فيها هذه القطّ الهائل من العدم يمكن أن تكون أسبابه كثيرة: كان الوقت ليلاً وفي الساحة يسودُ ارتباك مرعب، ونور المشاعل مضطرباً، وهو نفسه كان في حالة تأثّر متبدلة. ولم يكن لديه وقت يضيعه في تخمينات غير مجدية، فقرّر أنّ هناك الكثير مما يجب عمله. كان الأقزام ـ رجالاً ونساء ـ يضعون الجنود الملتفين بشباكهم، تحت رحمة رؤوس رماحهم، والحراس البانتوويون يتردّدون بين أن يُلقوا أسلحتهم على الأرض وبين أن يتدخّلوا لمساعدة زعمائهم. كان أهل القرية متجمّعين، وهناك جوّ هستيري يمكن أن ينتهي إلى مذبحة فيما لو ساعد الحرّاسُ جنودَ مْبِمْبِلِهْ.

عاد ألِكساندر بعد دقائق. وحده تعبير وجهه الغريب، بعينيه المتوهّجتين وأسنانه الظاهرة للعيان تدل على ما جرى. خرجت كات للقائه مهتاجة جداً.

ـ لن تصدّق ما جرى، يا بُنيّ! نمر أسود انقضّ على مْبِمْبِلِهْ! آمل أن يكون قد التهمه، هذا أقلّ ما يستحقّه.

ـ لم يكن نمراً بل جغواراً، يا كات. لم يأكله، لكنّه سبّب له ذعراً شديداً.

ـ وما أدراك؟

ـ كم مرّة عليّ أن أقول لك إنّ حيواني الطوطمي هو الجغوار، ياكات؟

ـ مرّة أخرى الهوس ذاته، يا ألِكساندر! عليك أن تراجع طبيباً نفسانيّاً حين نعود إلى الحضارة. أين ناديا؟

ـ ستعود حالاً.

راح توازن القوى الدقيق في القرية يتحدّد في نصف الساعة التالية، والفضل في قسم كبير منه يعود للراهب فِرناندو وكات وأنجي. فقد تمكّن الأوّل من إقناع جنود أخوية الفهد بالاستسلام، إذا أرادوا الخروج أحياء من نجوبي، لأنّ أسلحتهم لا تعمل، وفقدوا قائدهم وهم محاصرون من السكان المعادين لهم.

في هذه الأثناء ذهبت كات وأنجي إلى الكوخ بحثاً عن نْزِه: وحملوه بمساعدة بعض أقرباء الجريح على نقّالة مرتجلة. كان الفتى المسكين يشتعلُ حرارةً، لكنّه أستعدّ للمشاركة. عندما وضّحت له أمّه ما جرى في ذلك المساء. وضعوه في مكان مرئيّ، خطب في رفاقه حاثّاً إيّاهم على التمرّد. ليس هناك ما يُخشى، فـ مْبِمْبِلِهْ لم يعد هناك. والجنود يتوقون للعودة إلى أن يعيشوا حياةً عادية إلى جانب أسرهم، لكنّهم يشعرون برعبٍ من القائد فهم معتادون على طاعة سلطته. أين هو؟ تُرى هل التهمه شبح الهر الأسود؟ إذا ما عملوا بكلام نْزِهْ وعاد العسكريّ سينتهون إلى بئر التماسيح. لم يُصدّقوا أنّ الملكة نانا ـ أسانتِ حيّة، ثم حتى ولو كانت كذلك فإنّ قوّتها لا يُمكن أن تُقارَن بقوّة مْبِمْبِلِهْ.

ما إن اجتمعوا بأسرهم، حتى اعتبر الأقزام أنّ لحظة العودة إلى الغابة، التي لا يُفكّرون بالخروج منها ثانيةً، قد أزفت. ارتدى بِيَيهْ ـ دوكو قميصاً أصفرَ، أخذ رمحه واقترب من ألِكساندر ليُعيد إليه المستحاثّة، التي وحسب ما كان يعتقد، أنقذته من أن يكون مْبِمْبِلِهْ قد مزّقه إرباً. كذلك ودّعهم بقيّة الصيادين متأثّرين، عارفين أنّهم لن يعودوا ليروا هذا الصديق العجيب الذي له روح فهد. أوقفهم ألِكساندر. قال لهم إنهّم لا يستطيعون الذهاب بعد. وضّح لهم أنّهم

لن يكونوا في مأمن حتى ولو توغّلوا في أعمق أعماق الغابة، هناك حيث ما من كائن بشريّ يمكن أن يبقى على قيد الحياة. الهرب ليس هو الحلّ، لأنّهم عاجلاً أو آجلاً سيُدرَكون أو سيحتاجون للاحتكاك ببقية العالم. عليهم أن يقضوا على العبودية ويعودوا ليقيموا علاقات وديّة مع أهل نجوبي، كما في السابق، وهو ما يتطلّب تجريد مْبِمْبِلِهْ من قوّته وطرده مع جنوده من المنطقة للأبد.

ومن ناحيتهنّ تجمّعت زوجات كوسونغو، اللواتي عشن أسيرات الحريم منذ الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من أعمارهنّ وتذوّقن لأوّل مرّة طعم الشباب. نظّمن، دون أن يكترثن أدنى اكتراث بالامور التي تُعكّر صفو بقيّة السكان، كرنفالهنّ الخاصّ بهنّ: قرعن الطبول وغنين ورقصن، انتزعن الحلي الذهبية من أذرعهنّ وأعناقهنّ وآذانهنّ ورمين بها في الهواء، مجنوناتٍ بالحرّية.

بينما كان سكّان القرية في هذا الجوّ، كلّ مجموعة مشغولة بمشاغلها، ظهر سومبِ، الذي استدعته القوى الخفيّة، ليفرض النظام والعقاب والرعب.

مطر من الطقطقات، يشبه الألعاب النارية، أعلن عن وصول الساحر المُريع. صرخة جماعية استقبلت الشبحَ المرعب. لم يكن سومبِ قد تجسّد منذ أشهر كثيرة وأمل بعضهم أن يكون قد انتقل إلى الأبد إلى عالم الشياطين؛ لكن ها هو هناك رسول الجحيم، أكثر إدهاشاً وحنقاً من أيّ وقت مضى. تراجع الناس مذعورين وشَغَلَ هو قلب الساحة.

كانت شهرة سومبِ تتخطّى المنطقة، فقد انتشرت من قرية إلى قرية في قسم مهمّ من أفريقيا. كانوا يقولون إنّه قادر على أن يقتل بالتفكير، ويشفي بنفخة، ويتنبّأ بالمستقبل، ويتحكّم بالطبيعة، ويتلاعب بالأحلام، ويُدخل الفانين في حلم لا رجعة منه، ويتصل بالآلهة. كما كانوا يُعلنون أنّه لا يُهزم ولا يموت؛ يستطيع أن يتقمّص

في أيّ مخلوق من مخلوقات الماء والسماء والأرض، يدخل داخل أعدائه ويلتهمهم من داخلهم، يشرب دمَهم، يسحق عظامهم ولا يترك منهم غير جلدٍ، يملؤه بعدها بالرماد. بهذه الشكل كان يصنع الزومبي أو الأموات ـ الأحياء؛ الذين كان مصيرهم الرهيب أن يصبحوا عبيداً له.

كان الساحرُ عملاقاً وتبدو قامته مضاعفة بسبب الزينة الرهيبة التي يتزين بها. كان يُغطي وجهَه بقناعٍ على شكل فهدٍ، وفوقه قبّعة من جمجمة جاموس ذات قرون كبيرةٍ متوَّجة بدورها بقنزعة من أغصان مثل شجرة تطلع من رأسه. يتزين في ذراعيه بأنياب ومخالب وبراثن ضوارٍ، وفي عنقه بأطواق من أصابع بشرية، وعلى خصره سلسلة من الأصنام والقرعات فيها شرابات سحرية. كان مغطًى بشرائط من جلودٍ مختلف الحيوانات وخثرات دمٍ جاف.

وصل سومبِ بموقف شيطان منتقم، عازم على أن يفرض طريقته الخاصّة بالظلم، استسلم البانتوويّون والأقزام وحتى جنود ميمبِلِه دون أدنى مقاومة؛ انكمشوا، حاولوا أن يختفوا واستعدّوا لطاعة ما يأمر به سومبِ. رأت مجموعة الأجانب، التي جمّدتهم الدهشة، كيف راح ظهور الساحر يُدمّر الانسجام الهشّ الذي بدأ يتحقّق في نجوبي.

بدأ الساحرُ، المزمجر والمقرفص مثل غوريلا يدور في كلّ مرّة بسرعة أكبر. يتوقّف فجأة ويشير بإصبعٍ إلى شخص فيسقط على الفور أرضاً، في غيبوبة عميقة، مرتعشاً بتشنجات مصروعٍ مريعة. آخرون يبقون متخشّبين، مثل تماثيل غرانيتية، وآخرون يرعفون من أنوفهم وأفواههم وآذانهم. ويعود سومبِ إلى رتابته بالدوران مثل خُذروف، يتوقف ثم يصعق أحداً بقوّة إيماءة منه. خلال دقائق قليلة كان هناك اثنا عشر رجلاً وامرأة يتمرّغون على الأرض، بينما بقية الناس يزعقون جاثين على ركبهم، يبتلعون التراب، يطلبون العفو ويُقسمون على الطاعة.

ريح غير مفهومة مرّت مثل إعصار على القرية وحملت معها بنفخة واحدة قشّ الأكواخ، وكلّ ما كان على طاولة الوليمة والطبول وأقواس النخيل، ونصف الدجاجات. أضاءت الليل عاصفة من البروق، ومن الغابة وصلت جوقة مريعة من النحيب. مئات الجرذان توزّعت كالوباء في الساحة واختفت على الفور، مخلّفة نتناً قاتلاً في الجوّ.

فجأة قفز سومبّ فوق إحدى النيران التي شووا عليها اللحم للعشاء، وراح يرقص بين الجمر المضطرم الذي يأخذه بيديه العاريتين ليقذف به الحشود المذعورة. ومن وسط اللهب والدخان انبثقت مئات الهيئات الشيطانية، جيوش الشر، التي رافقت الساحر في رقصته المشؤومة. ومن رأس الفهد المتوّج بقرنين انبثق صوت كهفي كريهٌ، يصرخ بأسماء الملك المخلوع والقائد، اللذين ردّدهما الناس المنوّمين مغناطيسياً والمهسترين بصوت واحد طويل: كوسونغو، مْبِمْبِلِهْ، كوسونغو، مْبِمْبِلِهْ، كوسونغو، مْبِمْبِلِهْ.

عندئذٍ، وحين مَلَك الساحر سكان القرية في قبضته وانبثق منتصراً من النار واللهب يلعق ساقيه دون أن يحرقهما، ظهر طائر أبيض من الجنوب، وحلّق في دوائر فوق الساحة. فأطلق ألِكساندر صرخة ارتياح حين عرف ناديا.

دخلت القوى التي استدعتها نسر من جهات الأرض الأربعة. افتتحت العرض غوريلات الغابة، السوداء، الرائعة، الذكور الكبيرة في المقدّمة، تليها الأناث وصغارها. تليها الملكة نانا ـ أسانتِ، فخورة في عريها وأسمالها القليلة وشعرها الأبيض، الأجعّد مثل هالة من فضّة، تمتطي فيلاً هائلاً، قديماً مثلها، معلّم بضربات رماح في خصره. يرافقها تِنسينغ، لاما هيملايا، الذي جاء مستجيباً لدعوة ناديا في هيئته النجمية، وقد جاء معه بجماعة أهل الثلج متزيّنين بزينة الحرب. كذلك جاء الشامان واليماي وروح زوجته الرقيقة

على رأس ثلاث عشرة بهيمة أسطورية من الأمازون. كان الهنديّ قد عاد إلى شبابه وصار محارباً أنيقاً، مدهون الجسد، مزيّناً بالريش. أخيراً دخل القرية جمهورُ الغابة الواسع المضيء: الأسلاف وأرواح الحيوانات والنباتات، آلاف وآلاف الأرواح التي أضاءت القريةَ مثل شمسِ ظهيرةٍ ورطّبت الهواءَ بنسمة نظيفة وباردة.

في هذا النور الخيالي اختفت جيوش الشياطين الشريرة، وتقلّص الساحر إلى حجمه الطبيعي، فما عادت أسمالُ جلوده الدامية، أطواقُ أصابعه، أصنامُه، براثنُه وأنيابُه، مرعبة، بل بدت قناعاً مضحِكاً. الفيل الضخم الذي امتطته الملكة نانا ـ أسانتِ وجّه إليه ضربة بخرطومه طيّرت قناع الفهد وقرني الجاموس، وكشفت عن وجه الساحر. الجميع استطاعوا معرفته: كوسونغو، مْبِمْبِلِهْ، وسومبِ كانوا شخصاً واحداً، ثلاثة رؤوس لغول واحد.

جاء ردّ فعل الناس غير منتظر، مثله مثل كلّ الذي حدث في تلك الليلة الغريبة. جؤار طويل وأجشّ هزّ الجمهور البشري. من كانوا في حالة تشنّج، ومن تحوّلوا إلى تماثيل، ومن كانوا ينزفون خرجوا من غيبوبتهم، ومن كانوا راكعين على الأرض والحشود تحرّكوا بعزيمة مرعبة باتجاه الرجل الذي استبدّ بهم. تراجع كوسونغو ـ مْبِمْبِلِهْ ـ سومبِ، لكنّه حوصر في أقل من دقيقةٍ. مئة يدٍ أمسكت به، رفعته مقلقلاً ووضعته على الحمالة باتجاه بئر العذاب. صيحة مرعبة هزّت الغابة حين سقط جسم المسخ الضخم ذي الرؤوس الثلاثة بين أنياب التماسيح.

من الصعب جدّاً على أَلِكساندر أن يتذكّر تفاصيل تلك الليلة، لن يستطيع أن يكتبها بالسهولة التي وصف بها مغامراته السابقة. هل حلم بها؟ هل كان أسير هرع الآخرين الجماعي؟ أم أنّه رأى حقيقة بأمّ عينيه الكائنات التي استدعتها ناديا؟ لم يكن عنده جواب عن هذه الأسئلة. بعدها حين قارن روايته للأحداث مع ناديا، أصغت إليه

بصمت، ثم سرعان ما قبّلته قبلة خفيفة على خدّهِ وقالت إنّ لكلّ واحد حقيقته وكلّها صالحة.

بدت كلمات الفتاة نبوئيّة، لأنّه حين أراد أن يتحقّق مما حدث من بقية أعضاء المجموعة، روى له كلّ واحد قصّةً مختلفة. الراهب فِرناندو، مثلاً، لم يتذكّر غير الغوريلات والفيل الذي امتطته امرأة عجوز. كات كولد بدا أنّها التقطت جوّاً مليئاً بالكائنات البرّاقة، عرفت من بينها اللاما تِنسينغ، وإن كان هذا مُحالاً. جول غوشالِث قرّر أن ينتظر حتى يتمكّن من تحميض أفلامه قبل أن يعطي رأياً: ما لا يظهر في الصور، لم يحدث. الأقزام والبانتوويون وصفوا، إلى هذا الحدّ أو ذاك، ما رآه هو، بدءاً من الساحر وهو يرقص بين اللهب وحتى الأسلاف الذين يُحلّقون حول نانا ـ أسانتِ.

التقطت أنجي نيندرِرا أكثر من ألِكساندر بكثير: رأت ملائكةً شفافة الأجنحة وأسراباً من العصافير متعدّدة الألوان، سمعت موسيقى طبول، شمّت عطر مطرٍ من أزهار، وكانت شاهدةً على عددٍ من المعجِزات الأخرى. هكذا روتها لميشيل موشاحا حين جاء هذا في اليوم التالي ليبحث عنهم في زورق بمحرّك.

التُقِطَت إحدى رسائلها في معسكره وعلى الفور شرع بالعمل للعثور عليهم. لم يستطع العثور على طيّار شجاع بما فيه الكفاية كي يذهب إلى الغابة المستنقعية حيث ضاع أصدقاؤه؛ فاضطرّ لأن يأخذ رحلة تجارية إلى العاصمة، يستأجر زورقاً ويصعد به النهر للبحث عنهم دون أيّ دليل آخر غير حدسه. رافقه موظّف من الحكومة الوطنية وأربع رجال شرطة، كانوا في مهمّة التحقيق في تهريب العاج والماس والعبيد.

أحلّت نانا ـ أسانتِ خلال ساعات قليلة النظامَ في القرية، دون أن يُشكّك أحد بسلطتها. بدأت بمصالحة السكان البانتوويين مع الأقزام وتذكيرهم بأهمّية التعاون. الأولون كانوا بحاجة إلى اللحم الذي يأتي به الصيادون والآخرون لا يستطيعون العيش دون

المنتجات التي يحصلون عليها من نجوبي. كان عليها أن تُجبِر البانتوويين على احترام الأقزام، كما كان عليها أن تجعل الأقزام يغفرون لهم سوءَ المعاملة التي عانوا منها.

ـ ماذا ستفعلين كي تعلِّميهم العيشَ بسلام؟ ـ سألت كات.

ـ سأبدأ بالنساء، لأنّهنّ ينطوين على طيبة كبيرة في داخلهنّ ـ أجابت الملكة.

أخيراً حانت لحظة الرحيل. كان الأصدقاء منهكين، لأنّهم لم يناموا إلاّ قليلاً جدّاً والجميع باستثناء ناديا وبوروبا مرضى في مَعِداتهم. كما أنّ البعوض لسع جول غونثالث في الساعات الأخيرة من رأسه وحتى قدميه، فانتفخ وارتفعت حرارته، ومن كثرة ما حكّ نفسه كشف عن لحمه الحيّ. فقدّم له بِيَيةْ ـ دوكو مسحوقَ التميمة المقدّسة بتكتّم، كي لا يبدو متبجّحاً. عاد المصوّرُ خلال ساعتين إلى وضعه الطبيعي. طلب مذهولاً ذرّة منه كي يشفي صديقه تيموثي بروس من عضّة القردوح، لكنّ موشاحا أخبره بأنّ هذا قد شُفيَ تماماً، وينتظر بقيّة الفريق في نيروبي. استخدم الأقزام المسحوقَ العجيبَ ذاته لمداواة أدريان ونْزِة اللذين بدأت جراحهما تتحسَّن بشكلٍ واضح للعيان. وعندما تأكّد ألِكساندر من قوّة مفعول المنتج الغامض، تجرّأ وطلب قليلاً منه ليحمله إلى أمّه. حسب ما قاله الأطباء استطاعت ليزا كولد أن تهزم السرطان تماماً، لكنّ ابنها افترض أنّ قليلاً من مسحوقِ إييَمبا ـ أفوَا الأخضر، الرائع يمكن أن يضمن لها حياة مديدة.

قرّرت أنجي نيندِررَا أن تنفض عنها الخوفَ من التماسيح من خلال التفاوض معها. أطلت مع ناديا من فوق السياج الذي يحمي البئر وعرضت على الضببة الهائلة معاهدةً. ترجمتها ناديا بأفضل ما استطاعت، رغم أنّ معرفتها بلغة العظاءات في حدودها الدنيا. وضّحت لها أنجي أنّ باستطاعتها أن تقتلها رمياً بالرصاص، إن هي أرادت، لكن بدل هذا ستقودها إلى النهر، حيث ستُطلق حرّيتها.

بالمقابل طالبتها باحترام حياتها. لم تكن ناديا واثقة من أنّها فهمت عليها، كما لم تكن واثقة من أنّها ستفي بكلمتها، أو ما إذا كانت قادرة على تعميم المعاهدة على بقية التماسيح الأفريقية، لكنّها فضّلت أن تقول لأنجي أنّه من الآن فصاعداً لم يعد هناك ما تخاف منه. لن تموت ملتَهَمَةً من قِبل العظاءات، وأكّدت لها أنّها بقليل من الحظ ستحقّق رغبتها بالموت بحادث طائرة.

زوجات كوسونغو، الأرملات الآن، أردن أن يهدين زيناتهنّ الذهبية إلى أنجي، لكنّ الراهب فِرناندو تدخّل. وضع بطانية على الأرض وأجبر النساء على إيداع جواهرهنّ عليها؛ وعلى الفور ربطها من زواياها الأربع وجرّ الصرّة إلى حيث الملكة نانا ـ أسانتِ.

ـ هذا الذهب وهذا الزوج من أنياب الفيل هو كلّ ما نملكه في نجوبي، أنت تعرفين كيف تتصرّفين بهذا الرأسمال ـ وضّح لها.

ـ ما أعطاه لي كوسونغو هو لي! ـ برّرت أنجي متشبّثةً بأساورها.

صعقها الراهب فِرناندو بنظرةٍ منه مريعة ومطّ يديه. خلعت أنجي مجوهراتها مُكرهةً وأسلمتها إليه. ثم إنّه كان عليها أن تتعهّد له بأن تترك لهم جهاز إرسال واستقبال الطائرة كي يستطيعوا أن يتصلوا بالعالم، وأن تقوم برحلة على الأقل كلّ أسبوعين على نفقتها لتمدّ القرية بالحاجات الضرورية. في البداية سيكون عليها أن تلقي بها من الجوّ، إلى أن يتمكنوا من تنظيف جزء من الغابة للهبوط. ولن يكون هذا سهلاً نظراً لطبيعة الأرض.

قبلت نانا ـ أسانتِ أن يبقى الراهب فِرناندو في نجوبي ويؤسّس بعثة ومدرسةً، شريطة أن يتوصّلا إلى اتفاق عقائدي. تماماً كما أنّ على الناس أن تتعلّم العيش بسلام، كذلك على الآلهة أن تفعل. ليس هناك من مشكلة أن تتشاطر الآلهة المختلفة والأرواح الفضاء ذاته في القلب البشري.

خاتمة

بعد سنتين

مَثل ألِكساندر كولد في شقّة جدّته في نيويورك يحمل معه زجاجة فودكا لها، وباقة من أزهار الأقحوان لناديا. كانت صديقته قد قالت له إنّها لن تضع، كما تفعل جميع الفتيات، أزهاراً في معصمها أو في تقويرة صدرها بمناسبة ترفّعها. فهذه العادة corsage تبدو لها مريعة. كانت نسمة خفيفة تهبّ لتُخفّف من حرّ أيّارِ نيويورك، ومع ذلك كانت الأقاحي ذابلة. فكّر أنّه لن يعتاد أبداً على طقس هذه المدينة ويسعده ألا يضطرّ لذلك. كان يذهب إلى الجامعة في بيركلي وإذا ما نجحت خططه، فإنّه سيحصل على الشهادة في الطب من كاليفورنيا. كانت ناديا تتهمه بأنّه لا يزعج نفسه أبداً. كانت تسخر منه وتقول «لا أدري كيف تفكّر أن تُمارس الطب في أكثر مناطق الأرض فقراً، إذا كنت لا تستطيع أن تعيش دون معكرونة أمّك الإيطالية ودون مِزلاجك المائي». كان ألِكساندر قد أمضى شهوراً يُحاول أن يُقنعها بميزات الدراسة في جامعته ذاتها وأخيراً نجح. في أيلول ستكون في كاليفورنيا، ولن يُضطرّ لأن يجتاز القارّة كي يراها.

فتحت ناديا الباب وبقي هو والأقاحي الذابلة في يده، وأذناه المحمرّتان، لا يعرف ماذا يقول. لم يلتقيا منذ ستّة أشهر، والفتاة التي ظهرت في عتبة الباب كانت مجهولة. مرّ في ذهنه أنّه أخطأ

الباب، لكنّ شكوكه تبخّرت حين قفز بوروبا فوقه ليسلّم عليه بعناقات حارّة وعضّات. وصله صوت جدّته تنادي باسمه من عمق الشقّة.

ـ هذا أنا، يا كات! ـ ردّ هو مرتبكاً ـ عندئذ ابتسمت له ناديا فعادت على الفور الفتاة التي كانت دائماً، التي يعرفها ويُحبّها، الوحشية والمعبودة. تعانقا، فسقطت الأقاحي على الأرض، أحاط بها بذرع واحدة من خصرها ورفعها بصيحة فرح، بينما راح يُحاول باليد الأخرى أن يتخلّص من القرد. في هذه الأثناء وصلت كات كولد تُجرجر قدميها، انتزعت منه زجاجة الفودكا التي كان يمسك بها بحذر وأغلقت الباب برفسة.

ـ أرأيت كم تبدو ناديا مريعة؟ تبدو زوجةَ رجل مافيا ـ قالت كات.

ـ قولي لنا ما تُفكّرين به حقيقة، يا جدّتي ـ ضحك ألِكساندر

ـ لا تُناديني جدّة! اشترت فستانها من وراء ظهري، دون أن تستشيرني ـ صاحت كات.

ـ لم أكن أعلم أن الموضة تهمّك، يا كات ـ علّق ألِكساندر، وهو يلقي نظرة على السروال المشوّه والقميص الداخلي، الذي رُسم عليه ببغاوات، اللذين كانت ترتديهما جدّته.

كانت ناديا تنتعل حذاءً بكعب عالٍ وترتدي أسطوانة من الساتان الأسود القصير بلا شيّال. كان يجب أن يُجاملها ويقول إنّها ليست متأثّرة أدنى تأثّر برأيِ كات. دارت دورة كاملة كي تتألّق أمام ألِكساندر. بدت مختلفة جداً عن طفلة السروال القصير، المزينة بالريش، التي يتذكّرها. عليه أن يعتاد على التغيّر، فكّر، وإن أمِل ألا يكون لأمدٍ دائم، فقد كان يُحب كثيراً نسخَه القديمة. لم يكن يعرف كيف سيتصرّف أمام هذه النسخة الجديدة من صديقته.

ـ سيكون عليك أن تقضي الجوّ الخانق للذهاب إلى حفل التخرّج مع فزّاعة العصافير هذه، يا ألِكساندر ـ قالت جدّته مشيرة إلى ناديا ـ تعالَ أريد أن أُريك شيئاً...

قادت الفتيين إلى مكتبها الصغير والمغبر، المليء بالكتب والوثائق، حيث كانت تكتب. كانت الجدران مغطاة بالصور التي جمعتها الكاتبة في سنواتها الأخيرة. عرف ألِكساندر هنود الأمازون واقفين من أجل صورة مؤسّسة ماس، ديل باهادور، بما وطفلها في مملكة التنين الذهبي، الراهب فِرناندو في بعثته في نجوبي، أنجي نينِدِرا مع ميشيل موشاحا على ظهر الفيل، وعدداً آخر. كانت كات قد أطّرت أحد أغلفة *الإنترناشيونال جيوغرافيك* للعام 2002، الذي ربح جائزة مهمّة. كانت الصورة التي التقطها جول غونثالِث في أحد الأسواق الأفريقية وتُظهره مع ناديا وبوروبا يواجهون نعامة هائجة.

ـ انظر، يا بُني، الكتب الثلاثة منشورة ـ قالت كات ـ عندما قرأت ملاحظاتك أدركتُ أنك لن تُصبح أبداً كاتباً. ليس لديك نظر للتفاصيل. ربّما لن يكون هذا عائقاً بالنسبة إلى الطب، وها أنت ترى العالم مليئاً بالأطباء الخرقى، لكنّ هذا بالنسبة إلى الأدب مريع ـ أكّدت كات.

ـ ليس لديّ نظر ولا صبر، يا كات؛ لذلك أعطيتُكِ ملاحظاتي. أنتِ تستطيعين أن تكتبي الكتب أفضلَ منّي.

ـ أكادُ أستطيع أن أفعل كلَّ شيء أفضل منك، يا بُني ـ ضحكت وهي تعبث بشعره بحركة من يدها.

تفحّصت ناديا وألِكساندر الكتبَ بحزن غريب، لأنّها تحتوي على كلّ ما حدث لهما خلال ثلاث سنوات عجيبة من السفر والمغامرات. ربّما لن يكون هناك في المستقبل شيء يمكن أن يُقارن بما عاشوه، ولا بتركيزه وسحره. على الأقل كان مواسياً أن يعرفا أن الشخصيات، القصص والدروس التي تعلّماها محفوظة في تلك الصفحات. وبفضل كتابة الجدّة لن ينسيانها أبداً. مذكرات نسر وجغوار موجودة هناك، في مدينة البهائم، ومملكة التنين الذهبي وغابة الأقزام...

هذه المرة ستنقلنا إيزابيل الليندي في روايتها «غابة الأقزام» إلى أدغال أفريقيا المتوحشة والساحرة والغرائبية، حيث يمتزج السحر مع المغامرة، لنعيش مع ألكساندر وناديا صراعهم المرير مع واحد من الحكام الجشعين، الذي يسخر كل شي في بلاده لمصالحه الشخصية، بمن فيهم أقزام الغابة الطيبون.

«كانا وسط الغابة الروحية، محاطين، بآلاف وآلاف الأرواح النباتية والحيوانية. اتسع عقلا ألكساندر وناديا وأحسا بالروابط بين الكائنات، الكون كله مترابط بتيار من الطاقة، شبكة غريبة، رقيقة كالحرير، قوية كالفولاذ. أدركا أنه ما من شيء معزول، فكل شيء يحدث بدءا من الفكرة وحتى الإعصار يؤثر على البقية. شعرا بالأرض نابضة وحية، نظام عظيم يهدهد في حضنه الزهر والحيوان، الجبال والأنهار، ريح السهوب، حمم البراكين، ثلوج أعلى الجبال الأبدية. وهذا الكوكب الأم هو جزء من أنظمة أخرى أضخم، متصلة بنجوم لا نهائية من السماء الهائلة».

بهذا النص تنهي إيزابيل الليندي ثلاثيتها التي بدأت برواية «مدينة البهائم»، ثم «مملكة التنين الذهبي»، والتي تتوجه بها إلى جمهور الشباب لتكرس لديه الكثير من المفاهيم الإنسانية العميقة البعيدة عن الجشع والطمع والأنانية.

الناشر